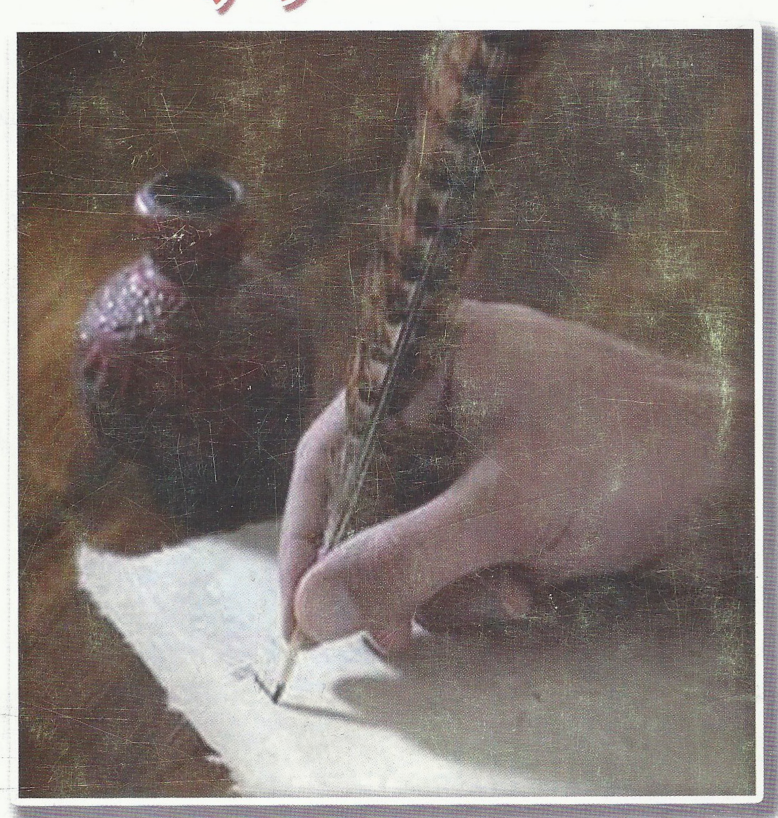




فن الشعر عند العرب



تأليف: نوري جعفر

فن الشعر عند العرب

عنوان الكتاب/فن الشعر عند العرب
المؤلف/أ.د نوري جعفر
تقديم أ.د. عبد الكريم راضي جعفر
الطبعة الأولى- بغداد- ٢٠١٣



العنوان :
وزارة الثقافة- العراق - بغداد - شارع حيفا- هاتف ٥٣٧٣٣٠٧
البريد الالكتروني baghdad 2013 @mocul. gov. iq

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد
(٧٠١) لسنة ٢٠١١



فن الشعر عند العرب

الأستاذ المتمّرس: نوري جعفر

تقديم

أ.د. عبد الكريم راضي جعفر

الطبعة الاولى - بغداد - ٢٠١٣
من اصدارات مشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية ٢٠١٣

تقديــم

أ. د. عبد الكريم راضي جعفر

(١)

منذ أنْ غادرتُ دائرة اللونين: الاسود والأبيض، كان بيت أخيه الأُمـيّ راضي جعفـر يتنفّس ألوان القوس قزح. ومن ضمن هذه الألوان، لونٌ بهيّ، تشهق منه ألـوانٌ مَلَكيّـة زاخرة بحروف فضيّة، وذهبيّة؛ ذلك هو لون الكتب التي كان يرسـلها المرحـوم العلامـة الدكتور نوري جعفر من بغداد الى قضاء في أقاصي الجنوب، هو القرنة، ليقرأَ فيها وَلداك يا راضي -كما تقول رسالة بعث بها بيد مَنْ أتمنه حزمة الكتب -ويتعرّفا على شمسٍ لا تغيب.

(٢)

وتركض بي خيول الزمن التي تجرُّ عربةً من قصبٍ نديٍّ.. كان الامـيُّ يربّتُ على خدٍّ بأنفٍ، ولحيةٍ، تضايقانني كلُما آنغرست قبلتُهُ، وأرنبة أنفه، فأتضايق من شدّةِ لصقهِ، لأسأله: أين أخوك؟ عمّي؟ يرتدّ بصره حسيراً، وتبرق عيناه شيباً. وبصوتٍ متهدّج نجيب بقسـمٍ: "بغربته.. لا أعرفُ أين!".

غبتُ اذن، عن عمي، وغاب عنا، مرتحلاً وفي يديه حقيبتـان: الاولى: هـدّلت كتفـه -علـى خفتها-: عدّته وعديده: اقلام، وورق، ومسودة كتاب جديد. والاخرى: مـا تهيّـأ لـه مـن أربطةعنق زاهدة، وبدلات شهدت معه السكن في بعض من أرض الله.

(٣)

ويأكل الزمن من فتوّتي، ومن شيخوخته، لألتقيه في المركز الثقافي لجامعـة البـصرة -في السبعينيات -وهو يحاضر عن نظريته الموسومة بـ (الابداع وأليات الـدماغ).. النظريـة التي بسطها باسلوب رائق وشائق، وبتواضع لا يهدّ حيلَ نملةٍ، ليـشيِّدَ لـه الحـاضرون

تمثالاً من قوة علمية، ونفاذ شخصية فذّةً، صفّق لها الجمعُ العلمي بحرارة. انه التواضع الذي هو سبب من أسباب القوة.

(٤)

وفي الزمن الرابع، كنتُ في بغداد.. في الثمانينيات.. شممتُ رائحة عمّته النخلة التي ترضعه -على كبره وعلوّ قدرة- تمرها؛ وتنفستُ تراب مكتبته التي تحتضن المصدر العربي النادر المضيء، والمصدر الأجنبيّ الذي فتح له باب (تشريح الدماغ)، فضلاً عن تخصصه الذي بلوره استاذه الكبير الفيلسوف جون ديوي؛ غير أنني لم أحظ منه بصحبة وافرة؛ لأنه كان ذا ارتحال دائم الى المؤتمرات العلمية العالمية، وانشغاله بمدارس الموهبين، واللغة، والفكر، والاصالة والابداع، وطبيعة الانسان في ضوء فسلجة بافلوف الذي صاحبه في معهده: معهد بافلوف للدراسات النفسية والتربية.. ورأى كيف تدرس فيه معلّمةٌ -من خلق الله- جراءً -من خلق الله- مادة الحساب، وكيف قرأ (جروٌ) أنيق الرقم(4): بأربع نبحاتٍ، وكيف أخلَّ جروٌ آخر ضعيف النظر بنظام الصف (الجرائيّ)، مخطّئاً زميله، ليجيب بتسعِ نبحاتٍ؛ ذلك أنّ ضعف بصره أغلق فتحه الـ(٤)، لتصبح (٩).. فغدا الصف حزمة نباحٍ تستهزئ بهذا الغلط الشنيع!!!.

تلك حكاية لا تنسى.. ما زالت أرويها لطلبتي الجدد في كل بداية سنة دراسية.

-٥-

(فن الشعر عند العرب)، كتاب انجزه الدكتور نوري جعفر في بداية الثمانينيات -كما ارجح- قلت: انجزه.. فحركة تأليفه أياه أبعد من هذا التاريخ بالطبع.

إنّ اللمسات التي سرت في جسده، لمساتٍ موسوعية.. قرأتْ، فهضمتْ، فأراقت على الورق، ما رأته منفتحاً على التكوين الفكري لحركة الأمة التي شكّلت الماهية والوظيفة.

وعلى كثرة مقروئه المراق في هذا الكتاب، فأنّ العلامة نوري جعفر -كما يقول- قد تعمّد في كثير من المواقف في هذا الكتاب أن لا يشير الى ارقام الصفحات من الكتب العربية الأصيلة التي اخذ منها، وذلك لكي بحث القارئ على الرجوع الى الينابيع اللغوية والأدبية الثرة، ليرتشف من منهلها الغزير، لا أنْ يكتفي بمجرد الاطلاع على ما ينقله الاخرون عنها، وليطلع أيضا على دقتهم وأمانتهم العلمية وتواضعهم، وتطلعهم دائماً وأبداً الى الحصول على ما نريد من المعرفة (من الكلمة التمهيدية).

إنّ ما ينحاز به هذا الكتاب، هو هذا الجمع الفذّ بين النصوص العلمية، والأدبية، والفلسفية، والسياسية، فضلاً عن النظر الى النصوص- قديمها وحديثها- بمنظار تكويني ينسجم مع حركة فهم هذا التكوين العجيب الذي نسميه شعراً، أو اللغة المتولدة من (التغيير المركب)، كما يسميه الفارابي، أو المعاناة الروحية الموصولة التني يصحب فيها الشاعر ذاته، كما تقول نازك الملائكة.. باختصار: هو تحويل آلام الدم الى حبر، على حدّ تعبير ت. س. إليوت.

إنّ مثل هذا الجمع، يمثّل جهداً فريداً رصيناً، يشير إلى طول نفس هذا الرائد، وبحثه الدائب في كتب اللغويين، والفقهاء، والنقاد، والفلاسفة، والساسة، غير ناسٍ الاشارة الى الذائقة الشعرية الخاصة التي يتمتع بها.. هذا ما يؤكده ارتصاف النماذج الشعرية المختارة -من حيث الموضوع والفن- مع ما ذهبتُ اليه.

رحمك الله..لقد تؤمن بحكمة تقول: ثلثان من الفطنة، وثلث من التغافل.. وفطنتك وتغافلك، جعلا منك خفيف الجسم، ولكنْ بثقل حجر كريم نادر.

رحمك الله.. وهدى الجامعات التي أسست بعضها، أن تسمّي قاعة من قاعاتها باسمك، أسوة بآخرين.

كلمة تمهيدية

-١-

قال الأصمعي -على ما ذكر الرواة- -تصَرفتُ في الأسباب على باب الرشيد مؤملا للظفر به والوصول اليه. فاني في ليلة قد نثرت السعادة والتوفيق فيها الأرقَ بين أجفان الرشيد اذ خرج خادم فقال: "أبا لحضرة أحد يُنشد الشعر؟" فقلت: "الله اكبر".. رب قيد مَضْيَقةٍ قد حلَّه التيسيرُ." فقال الخادم: "أدخل. فلعلها ان تكون ليلةً تعرس بالغنى إن فُزت بالحظوة عند أمير المؤمنين.. "فدخلتُ. فواجهت الرشيد في بهوه.. فقال "أشاعر انت ام راوية؟ "قلت: راوية لكل جد وهزل بعد أن يكون محسنا. فقال: تالله ما رأيت أدعاءً كهذا.. فقلت: " انا على الميدان. فأطلق من عناني يا أمير المؤمنين. "فأخرج من ثَنْي فَرْشه رُقعة. ثم قال: أنشدني "أرقني طارقُ همّ أرقًا. وهي أرجوزة رؤبة. فمضيت فيها مُضيَّ الجواد في متن ميدانه تهدر أشداقي. فلما صرت الى مديحه لبني أُمية ثنيت لساني الى ارجوزة اخرى. فلما رآني الرشيد قد عدلت من ارجوزة الى غيرها قال: "أمن حَيّرة؟ أم عن عمد؟ "قلت: "عن عمد. قد تركتُ كذبه الى صدقه فيما وصف به جدَّك المنصور من مجده. "فلما اتيت على آخرها قال الرشيد: "أتروي كلمة عدي بن الرقاع:

عَرَفَ الديارَ تَوهُّما فاعتادَها؟

قلت نعم. قال: هاتِ. فمضيت فيها... حتى اذا بلغت الى قوله:

تُزجي أغنَّ كأنّ إبرة رَوقه

استوى الرشيد جالسا بعد ان كان متكئا وقال: أتحفظ في هذا ذِكرا؟ قلت: نعم. ذكر الرواة ان الفرزدق قال: "كنت في المجلس الذي انشد فيه عدي بن الرَّقاع كلمته. وجرير الى جانبي. فلما ابتدأ ابن الرقاع في الانشاد قلت لجرير: هلم نسخر من هذا الشامي. فلما ذُقنا كلامه يئسنا منه.

فلمابلغ الى قوله:

تُرجـي أغـنَّ كـأنَّ إبـرة رَوقـه

وَعديٌّ كالمستريح قال جرير: "أما تراه يَسكُب في ذلك مثلا.. قلت: "يالُكَسع.. انه يقول:

قَلـمٌ اصاب مـن الـدواة مِـدادَها

فقال عدي: قلم اصابَ من الدواة مِدادها.

قال جرير: "أكان سمعك مخبوء" في صدره.. "قلت: اسكت. شغلنا سَبُكَ عن جيد الكلام.

وانا اقول: شغلنا علم الدماغ عن جيد الكلام.

ولكن مع ذلك –وربما بسببه- فقد كنا نختلس فترات الراحة- بعد السأم من قراءة الكتب التي تبحث في علم الدماغ باللغة الأنكليزية وهي كثيرة جافة ومعقدة لنستمتع بقراءة كتب الأدب ودواوين الشعر ونحن في سباق مع الزمن ولسان الحال يردد قول الشاعر (العابث):

لا تعجبـي لهـوى عـلى كِـبري

فعـلَيَّ مـن عهـد الـصِّبا قَـرْضُ

وكانت ثمرة ذلك –من بين أمور كثيرة اخرى-ان انجزنا: "الأصالة في شعر ابي الطيب المتنبي" و"مع الحريري في مقاماته" و"مواطن الأناقة والجمال في اللغة العربية" و"الجوانب السايكولوجية في ادب الجاحظ" و"بين الجاحظ وجورج برناردشو" "وتأملات في شعر الشريف الرضي" و"بين الجواهري وأبي الطيب المتنبي" و"ساعات مع مكسيم غوركي" وهذا الكتاب.

-٢-

لقد تناولنا في هذا الكتاب بعد كلمتنا التمهيدية هذه وبعد المقدمة التي تليها والتي استعرضنا فيها نشوء الشعر وتطوره وعلاقته بالغناء والرقص. والموسيقى -منزلة الشعر عند العرب. ثم استعرضنا بعد ذلك وعلى اساسه آراء فردية (مبتسرة ومتسرعة احيانا) ابداها كثير من المعنيين القدامى بنظم الشعر وروايته فيما يتعلق بالموازنة بين الشعراء وتفضيل هذا الشاعر على ذاك. ثم انتقلنا الى صلب الموضوع الذي هو "فن الشعر عند العرب": فتطرقنا في قسمه الأول الى آراء الفلاسفة- وبخاصة ارسطو وكبار الفلاسفة المسلمين: الفارابي وابن سينا وابن رشد. وانتقلنا -بعد ذلك- الى عرض آراء اصحاب الأختصاص القدامى ابتداءً من ابن سلّام الجُمَحي وانتهاءً بعبد القاهر الجُرجاني. وفي القسم الثالث والأخير من موضوع "فن الشعر عند العرب" ادلينا بدلونا في هذا الباب واوضحنا رأينا في قضية التمييز بين جيد الشعر والأجود منه ولم نقتصر - كما فعل الذين سبقونا- على التمييز بين جيد الشعر ورديئه. واوردنا طائفة من اجود الأشعار عند العرب في مختلف اغراض الشعر لا سيما الغزل والوصف بمختلف جوانبه والرثاء والمديح (في حالات نادرة جدا) عندما يكون الشاعر صادقا في مشاعره وعندما يكون الممدوح اهلا لذلك بنظر الذين عاصروه وجاءوا من بعده الى يومنا هذا.

والذي عندنا -في هذه المسألة- ان الشعر العربي الأجود هو الذي يرسم لنا صورا شعرية مترفة انيقة بالفاظ واوزان موسيقية مترفة انيقة تنسجم معها والذي يكون الشاعر صادقا ودقيقا في وصف مشاعره. وقضية التمييز بين الجيد والأجود او الرشيق والأرشق من كلام العرب المنظوم والمنثور هي امر لا يُدْرَك الا بالذوق الأدبي الرفيع وبالحس الفني المرهف وبالدِّرْبَة على قراء الرسائل القديمة والخطب ودواوين فطاحل الشعراء. وهذا امر غير ميسور يتعذَّر توافره. لدى كثير من الناس بمن فيهم -في الوقت الحاضر بصورة خاصة- من ينظم الشعر او يرويه او يقوم بتدريسه حتى على المستوى الجامعي في كثير من الأحيان.

قال ابو عمرو بن العَلاء: قيل لمنذر بن واصل "كيف شهوتُك لجيد الشعر؟" قال: "اسمع بالحرف منه- لم اسمعه من قبل- فتود اعضائي اذ لها اسماعا فتتنغَّم به كما تنغَّمت الأذن. " وقيل له: وكيف طلبك له؟

قال "طلب المرأة المُضِلَّةِ ولدها وليس لها غيره. "ثم قيل له: وكيف حرصك عليه؟ قال: "حرصُ الجموع المنوع على بلوغ لذته من المال. "وقال آخر (لم نعثر على اسمه): "اني لأسمع القصيدة البكر ومالي إلاَّ قميص واحد فأخلعه على صاحبها واستكسي الله عز وجل. "وقال دعبل:

يموت رديء الشعر من قبل اهله

وجيده يبقى وان مات قائله

وقال ابن مَيَّادَةَ:

لذيذاتُ المقاطعِ مُحكمَاتٌ

لو ان الشعرَ يُلْبَس لارتُدِينا

وقال غيره:

وهو المُشبُع بالمسامع إنْ مضى

وهو المضاعف حسنُه ان كُرِّرا

وقال آخر:

يستقبل الروح النَّدَّى اريجُه

أبداً ويؤكل بالضمير ويشْرَب

وقال غيره:

من كل معنى يكاد الميتُ يفهمه

حسنا ونَعْشَه القِرطاسُ والقَلَمُ

وخلاصة الأمر -كما قيل قديما-" ان اشعر الناس من انت في شعره حتى تفرغ منه".

وهذا الطراز الفريد من الشعر لا يقتصر بنظرنا على شاعر بعينه بل هو مبثوث بشكل متفرق في دواوين فطاحل الشعراء في ثنايا شعرهم الذي يجمع ايضا بين جيد الشعر ورديئهُ. كما انه ايضا موجود في ابيات نادرة لدى الشعراء المقلين والمنسيين احيانا. ويتجلّى - بأوضح اشكاله وبأرفع مستوياته - في الغزل والتشبيب وفي الوصف- بصورة المتعددة- وفي الرثاء وفي المدح (احيانا في حالات نادرة جدا). وابرز سماته: انه يرسم لنا صورا شعرية أنيقة مترفة بتعابير مترفة أنيقة تنسجم معها وبأوزان ذات جِرْس موسيقي رقيق كما سنرى ثنايا كتابنا هذا وبخاصة في الفصل الخامس منهُ.

ولا بد من الأشارة في اختتام كلمتنا التمهيدية هذه الى ان هذا التراث الفكري الغزير الذي خلَّفه لنا الأقدمون في مجال الشعر وفي الميادين الثقافية الأُخرَ يستثير الأعجاب ويبعث على الأرتياح والأعتزاز. وقد حصل في فترة تأريخية قاسية لم يُسجِّل فيها التقدم العلمي النظري والتكنولوجي تقدما ملحوظا بمقاييسنا الراهنة. ومع ذلك فقد تجشَّم اولئك الأفذاذ اهوالَ السفر ومتاعب الأقامة وصعوبات الأنتقال من مكان الى آخر واستنسخوا بأدوات كتابية بدائية وفي ضوء مصابيح الزيت والشموع الخافتة اخبارا ونوادر تفرّقت بين اقطار عديدة متباعدة الأرجاء.

قال الوزير ابو محمد المُهلّبي سألت ابا الفرج الأصبهاني: "في كم جمعت هذا الكتاب؟" -يعني- كتاب الأغاني- فقال: في خمسين سنة وقد كتبته مرة واحدة. وهي النسخة التي اهديتها الى سيف الدولة". واذا تذكرنا أيضاً أن الإمام البخاري -المحدِّث

المشهور -بقي على متن السِفْر المضني اكثر من تسعين يوما في تقصّي حديث نبوي واحد لم يَصحّ في النهاية عنده فنفاه ولم يُثبته في صحيحه لقَدَّرنا مبلغ ما ضحَّى به اولئك الرجال العِظام من اجل الثقافة. ونحن الان مطالبون- في الأقل- بالتعرف على تراثهم الفكري ولا نقول بتطويره واثرائه وقد توافرت لنا جميع المقوَّمات المادية والثقافية.

ذكر الرواة ان ابراهيم بن المهدي دخل يوما على المأمون -بعد ان عفا عنه- فوجد عنده جماعة يتكلمون في اللغة والفقه. فقال له المأمون: ما عندك يا عم في ما يقول هؤلاء؟ قال: يا امير المؤمنين.. لقد شَغلونا في الصِّغَر وشُغِلنا عنهم في الكبر. فقال له المأمون: لم لا تتعلمه اليوم؟ قال: أو يَحْسُنَ بي طلبُ العلم مع كِبَر سنِّي.. فقال المأمون: نعم. والله لئن تعيش طالبا للعلم خير من ان تعيش قانعا بالجهل. قال: والى متى يَحْسُنُ بي طلب العلم؟ فقال المأمون: ما حَسنُت بك الحياة.

قال الأصمعي: كنت اطلب العلم بالبصرة وانا مُقِلٌّ. وكان على باب زُقاقنا بَقَّال. فاذا خرجت باكرا يقول لي: الى اين؟ فأقول الى فلان المحَدّث واذا عُدت في السماء بادرني متهكما فيقول: من اين؟ فأقول من عند فلان الأخباري او اللغوي. فيقول وهو مشفق عليَّ: يا هذا. اقبل وصيتي: انت شاب فلا تُضِيّع نفسك واطلب معاشا يعود عليك نفعه. واعطني جميع ما عندك من الكتب حتى اطرحها في الدَّن. والله لو طلبت مني بجميع كتبك حبَّةَ بَقْل ما اعطيتك. قال الأصمعي: فضَّيق صدري بمداومته هذا الكلام حتى كنت اخرج من بيتي ليلا وادخله ليلا. وحالي -في خلال ذلك- تزداد ضيقا حتى افضيتُ الى بيع اساسات داري وبَقيت لا اهتدي الى نفقة يومي. وطال شعري وأخلَقُ ثوبي وأتسخ بدني.

والكسائي -الذي اصبح امام الكوفيين في اللغة والنحو وأحد القُرَّاء السبعة المشهورين ومؤدب الأمين والمأمون واثيرا عند هارون الرشيد حتى اخرجه من طبقة المؤدبين الى طبقة الجلساء والمؤنسين- انما تعلم النحو على الكبر. وسببه -على ما يقول الرواة- انه جاء الى قوم من الهبَّاريين وقد أعيا فقال لهم: عَيَيْتُ. فقالوا له: "أتجالسنا وانت تَلحن!.. "فقال: كيف لَحُنتُ؟ قالوا: ان كنت اردت من انقطاع الحيلة والتحير في الأمر فقل "عييتُ" مخففًا. وان كنت اردت من التعب فقل "أعييتُ". فأنفَ الكسائي من

هذه الكلمة. ثم قام من تَوّه فسأل عمن يُعلِّم النحو فأرشد الى مُعاذ الهَرّاء. فَلزمه حتى انفَذَ ما عنده. ثم خرج الى البصرة فلقي الخليل بن احمد وجلس في حلقته. فقال له رجل من الأعراب: كيف تركتَ أسد الكوفة وتميمها -وعندها الفصاحة- وجئت الى البصرة!! فقال للخليل: من اين اخذت علمك هذا؟. قال: من بوادي الحجاز ونجد وتهامة. فخرج ورجع وقد أنفَذَ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ. وحدَّث هارون بن علي المُنجِّم في أماليه عن ابي نُدبَة انه قال: سمعتُ الفَرّاء يقول: "مدحني رجل من النحويين فقال لي: ما اختلافُك الى الكسائي وانت مثله في النحو!! فأعجبتني نفسي فأتيته فناظرته مناظرة الأكفاء فكأني كنتُ طائرا يغرِف بمُنقاره من البحر".

ومن تلك الشخصيات الفذة -على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر- اسحق بن ابراهيم الموصلي الذي جمع الى جانب حذقه بصناعته حسن التصرف في العلوم وجودة الصنعة للشعر. أما الغناء -الذي انفرد به الموصلي- فكان اصغر علومه وادنى ما يوصف به وان كان الغالب عليه لأنه كان له في سائر علومه نُظَراء ولم يكن له نظير في الغناء. ومن الطريف ان نشير هنا الى ان اسحق بن ابراهيم الموصلي قال (على ما ذكر ياقوت في معجم الأدباء) "بَقِيتُ زمانا من دهري أغلِّس الى هُشيَم فأسمع الحديث. ثم اصير الى الكسائي فأقرأ عليه جزءاً من القرآن. وآتي الفراء فأقرأ عليه جزءاً. ثم آتي منصورا زلزل فيُطارحني طريقتين او ثلاثة. ثم آتي عاتكة بنت شُهيد فآخذ منها صوتاً او صوتين. ثم آتي الأصمعي فأناشده. وآتي ابا عبيدة فأذاكره. ثم اصير الى ابي فأعلمه ما صنعتُ ومن لقيت وما اخذته. واتغذى معه. واذا كان العشاء رحت الى الرشيد". ومن طريف ما يروى في هذا الشأن ان المأمون قال مرةً لجلسائه "لولا ما سبق لأسحق على السنة الناس وشهر به في الغناء عندهم لوليته القضاء بحضرتي فأنه اولى به واحقُّ واعفُّ واصدقُ تدينا من هؤلاء القضاة". وقيل ايضا ان الموصلي سأل المأمون ان يكون دخوله اليه مع اهل العلم والأدب والرواة -لا مع المغنين- فأجابه المأمون الى ذلك. ثم سأله ان يكون دخوله مع الفقهاء فأذن له بذلك. وذكر المرزُباني عن محمد بن عطية الشاعر قوله "كنت عند يحيى بن اكثم في مجلس له يجتمع فيه اهل العلم. وحضر اسحق الموصلي.

فجعل يناظر اهل الكلام حتى انتصف النهار. ثم تكلَّم في الفقه فأحسن واحتجَّ ثم تكلمّ في الشعر واللغة ففاق من حضر".

ويلوح ان الصفة العامة المشتركة بين هؤلاء الأفذاذ ومن هم على شاكلتهم وهم كثيرون هي انهماكهم المنقطع النظير في الدراسة الواسعة العميقة وانصرافهم الى ذلك بشكل يثير الأهتمام والأعجاب. ولعل ابرزهم في هذا الباب ابن سُحنون الفقيه والمؤدب المغربي المعروف. فقد ذكر الرواة انه كان يوما منهمكا في القراءة والكتابة الى ان حان موعد العشاء. فجاءته جاريته بالعشاء. فقال لها: انا مشغول عن الطعام بما انا فيه. فوجمت ووقفت صامتة على رأسه. فلما طال انتظارها اخذت تَلقمهُ الى ان اتت على الطعام كله. وانصرفت واستمر هو على تلك الحال الى ان اذَّن المؤذن لصلاة الصبح. فطوى اوراقه وقال: يا أم مدام.. هاتي الان ما عندك من الطعام. قالت: اطعمتك اياه يا سيدي. فقال: والله ما شعرت بذلك.

-٣-

ولا بد من التنبيه -في هذه المناسبة- الى انني تعمدت في كثير من المواقف في هذا الكتاب ان لا اشير الى ارقام الصفحات من الكتب العربية الأصلية التي اخذت عنها وذلك لكي احث القارئ على الرجوع الى تلك الينابيع اللغوية والأدبية الثرَّة ليرتشف من منهلها الغزير، لا ان يكتفي بمجرد الأطلاع على ما ينقله الاخرون عنها، وليطلع ايضا على دقتهم وامانتهم العلمية وتواضعهم وتطلعهم دائما وابدا الى الحصول على مزيد من المعرفة. سئل ابراهيم بن طهمان يوما في مجلس احد الخلفاء العباسيين عن مسألة فقال لا أدري. فقيل له: تأخذ كذا وكذا جراية من بيت المال في الشهر ولا تُحسن مسألة!! فقال "انما آخذ على ما أحسن. ولو اخذت على ما لا أحسن لفنّي بيت المال ولا يفنى ما لا احسن".

المقدمة

-١-

لاشك في ان قضية البحث في نشوء الشعر وتطوره عبر العصور لدى النوع الأنساني وفي كل مجتمع على انفراد قضية شائكة ومتعددة الجوانب تستلزم -من بين امور كثيرة- ان يستعين المرء بالعلوم الطبيعية والاجتماعية وبعلوم اللغة من ناحية الكشف عن نشوء اللغة نفسها وارتقائها من حيث هي كلام منطوق به ومدوّن يتداوله الناس في مجرى حياتهم اليومية المعتادة أثناء الأتصال الفكري والأنفعالي وعند التعبير عن الآراء والمشاعر. ومع ذلك فأنه من الممكن القول ان الشعر نشأ على ما يبدو لدى الأنسان البدائي في الماضي السحيق ليؤدي وظيفة اجتماعية وسايكولوجية متميزة اثناء فعالية الطبيعة القاسية -الجامدة والحية- للمحافظة على البقاء وللدفاع عن النفس اثناء الغزو وفي وقت جني المحاصيل الزراعية وفي مناسبات العبادة وممارسة الطقوس الدينية. والشعر نمط خاص من انماط التعبير اللغوي. وقد ارتبط الشعر منذ نشوئه بشكله البدائي بالرقص والغناء والموسيقى. معنى هذا: ان الشعر قد ارتبط منذ البداية بايقاعات الجسم اثناء حركاته الرشيقة عند الرقص وبالغناء من حيث الجرسْ الموسيقي وبالعزف ايضا باستخدام ادوات العزف البدائية المتوافرة آنذاك. ومن هذه الزاوية فأن الفنون الجميلة (او الرفيعة) الأربعة -الشعر، الغناء، الرقص، الموسيقى- نشأت في الأصل التاريخي فنا واحدا متعدد الجوانب. ثم تبلور كل منها على انفراد بمرور الزمن الطويل وانفصلت عن بعضها ولكنها في الوقت نفسه احتفظت بروابطها العضوية القديمة وبخاصة منها -عند العرب بصورة خاصة- الرابطة بين الشعر والعزف والغناء كما سنرى بعد قليل.

-٢-

أما الشعر عند العرب فقد حدد الجاحظ نشأته -بشكل غير دقيق يفتقر الى القرينة التأريخية -بقوله (في كتاب الحيوان الجزء الأول الصفحة - ٧٤- ٧٥): "أما اصل الشعر عند العرب فحديث الميلاد صغير السن. واول من نهج سبيله وسهل الطريق اليه امرؤ القيس بن حجر ومهلهل بن ربيعة". غير ان ابن خلدون تحدث عن الشعر عند العرب حديثا ممتعا آثرنا ان ننقل منه الفقرات التالية (المقدمة: الصفحات ٥٦٦- ٥٨٨):

"اعلم ان لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى... واعلم ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطئهم واصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم. وكانت ملكته مستحكمة وفيهم شأن الملكات كلها. والملكات اللسانية كلها انما تكتسب بالصناعة والأرتياض... والشعر من بين الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين... والشعر هو الكلام البليغ المبني على الأستعارة المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي... ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق الفاظه الى الذهن. ولهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما يعيبون شعر ابي بكر بن خفاجة شاعر الاندلس لكثرة معاينه وازدحامها في الواحد كما يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية... واعلم ان صناعة الكلام نظما ونثرا انما هي في الألفاظ لا في المعاني. وانما المعاني تبع لها. وهي اصل. فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الألفاظ بحفظ امثالها من كلام العرب بكثرة استعماله وجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر... والذي في البيان والمنطق انما هو الالفاظ. واما المعاني فهي في الضمائر. وايضا فالمعاني موجودة عند كل واحد. وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى. فلا يحتاج الى صناعة. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة. وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما ان الأواني التي

يغترف بها الماء من البحر منها آنية من الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف. والماء واحد في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء. كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الأستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليفه باعتبار تطبيقه على المقاصة. والمعاني واحدة في نفسها. وانما الجاهل بتأليف الكلام واساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمثابة المقعد الثري يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه... واعلم ان الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم واخبارهم وحكمهم. وكان رؤساء العرب منافسين فيه".

والشعر عند العرب -كما حدده قُدامة بن جعفر- "قول موزون مُقفى يدل على معنى وكون الشعر كلاما موزونا -بنظره- يميزه عن الكلام غير الموزون الذي يدل على اصل الكلام الذي هو بمنزلة الجنس للشعر. أما كون الشعر كلاما "مُقفًّى" فان ذلك يشير الى وجود قواف تميزه عما لا قوافي فيه ولا مقاطع. وتحديد الشعر- من وجهة نظر قدامة بن جعفر- بكونه كلاما موزونا مقفى "يدل على معنى" وذلك للفصل بين ما جرى من القول على قافية ووزن مع دلالة على معنى وبين ما جرى على ذلك من غير دلالة ولا معنى. ثم يقول قدامة (كما سنشرح ذلك في الفصل الرابع من هذا الكتاب) في معرض التمييز بين جيد الشعر ورديئه "واذ تبين ان ذلك كذلك وان الشعر هو كما قدمناه فليس من الأضطرار ان يكون ما هذا سبيلُه جيدا ابدا ولا رديئا ابدا بل يحتمل ان يتعاقبه الأمران: مرةً هذه. واخرى هذه. على حسب ما يتفق. فحينئذ يحتاج الى معرفة الجيد وتمييزه عن الرديء.

-٣-

لقد اقترن الشعر عند العرب -كغيرهم من الأمم الأخر- بالغناء والموسيقى بالدرجة الأولى والأهم (بصرف النظر عن تحديد تاريخ نشوئه بصورة دقيقة من الناحية التأريخية). ومن المعروف مثلا ان الأعشى كان يترنم بشعره في الجاهلية وربما كان ايضا

-اثناء غنائه الشعري- يعزف على الصنّج (الآلة الموسيقية الشائعة آنذاك) فوصف بكونه صَناَّجة العرب.

وقد تبلورت العلاقة بين الشعر والغناء والموسيقى عند العرب منذ بداية الصدر الأول للدولة الأسلامية مما ادى- من بين أمور كثيرة أخر- الى ان ينظم بعض الشعراء مقطوعات شعرية قصيرة غنائية راقصة وان يتعلموا ايضا صناعة الغناء ويجيدوا النظم. كما ان بعض المغنيين (والمغنيات) اخذوا بدورهم يجيدون نظم الشعر مما ادى الى ظهور اوزان شعرية جديدة (المتقارب: الهزج: الخفيف: الرمل) من جهة والى تضاؤل شأن اوزان شعرية أخَر متداولة او تعديل بعضها من جهة اخرى. وقد ساعد على ذلك (في صدر الدولة العباسية بصورة خاصة) تأنق الخلفاء والوزراء والأمراء والتجار في تشييد قصورهم وفي اقتناء ملابسهم وازيائهم ومأكلهم ومشاربهم واثاثهم واوانيهم المنزلية المستخدمة في الطعام وفي الشراب.

وقد تبوأ الغناء بالذات منزلة مرموقة آنذاك. فكتب الجاحظ مثلا العبارات الطريفة التالية في رسالته الموسومة "في طبقات المغنيين": "ثم انا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة المحيطين بالأمور معرفة "ذكروا ان اصول الآداب التي يتفرع العلم منها لذي الألباب اربعة: فمنها: النجوم وبروجها وحسابها الذي تعرف به الأوقات والأزمنة وعليها مزاج الطبائع وايام السنة. ومنها: الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير وما اشبه. ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعايب وقوام الأبدان وعلاج الأسقام وما يتشعب من ذلك. ومنها اللحون ومعرفة اجزائها وقسمها ومقاطعها ومخارجها ووزنها حتى يستوي على الأيقاع ويدخل في الوتر. وغير ذلك مما اقتصرنا على ذكره على اسمائه وجمله واجتنبنا التطويل... ولم يزل اهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه ويسلكون طريقه ويعرفون غامضة... خلا الغناء.. وكأن علمهم على الهاجس وعلى ما يسمعون... الى ان نظر الخليل البصري في الشعر... فلما احكم وبلغ منه ما بلغ اخذ في تفسير النغم واللحون فاستدرك منه شيئا ورسم له رسما احتذى

عليه من خلفه.. وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي اول من حذا حذوه وامتثل هديه واصبحت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن احمد قبله: منها معرفة الغناء وكثرة استماعه اياه وعلمه بحسنه من قبيحه وصحيحه من سقيمه. ومنها حذقه بالضرب والإيقاع.. فصنع الغناء بعلم فاضل وحَذق راجح ووزن صحيح.. وضع كثير من اهل زمانه اغاني كثيرة بها جس طبعهم والاتباع لمن سبقهم. فبعض اصاب وجه صوابه. وبعض اخطأ. وبعض قصَّر في بعض واحسن في بعض. ووجدنا لكل دهر دولة للمغنيين: يحملون الغناء عنهم ويطارحون به فتيان زمانهم... ويجمعون الى ذلك محاسن كثيرة في آدابهم وهيئاتهم. فلم نجد هذه الطبقة ذكروا ووجدنا ذكر الغناء واهله باقيا. "وذكر الحسن بن احمد بن علي الكاتب الذي عاش في القرن السابع الهجري في مؤلفه المسمى "كتاب كمال ادب الغناء" الصفحة ١٥ ما يلي: "ولما كانت صناعة الموسيقى وهي الألحان تنقسم الى جزأين: جزء علمي وجزءٌ عملي وجدت احدهما الطف من الآخر محلا واعم فائدة واكبر منفعة واثبت رسما واشرف اسما وهي العلمي. ووجدت الاخر اقل نفعا وبقاء واكثر شذوذا واغلاطا وتمويها واثقل على الحواس محملا. وانما يتم فضله وتكمل لذته وتظهر محاسنه ويتبين صحيحه ومعتله وصوابه وخطأه وترتسم في النفس صورته وتقدَّر بنيته اذا اقترن بصاحبه ووافقه وماثله وطابقه لتقدم الصناعة الأولى على الثانية بالشرف والفضيلة". والموسيقى بنظر الحسن بن احمد الخطيب معناها الألحان. واللحن مجموع نغم ألفت تأليفا محدودا. وقال القدماء ان الموسيقى اشتقت اسمها من ملك قديم يسمى موسيقافيا لذلك استأثرت بالشرف على سائر الصناعات. والموسيقى بنظره ترتبط ارتباطا وثيقا بصناعة الغناء. وصناعة الغناء عنده ليست "من الصناعات اذا طلبها الأنسان امكنه معرفتها وان عُنى به معلم حاذق في تفهيمه اياها او كثُرَ استماعه لها من المتقدمين فيها. لأنها تحتاج الى قوة في النفس قابلة لها والى طبع سَلِسِ القياد فيها وسرعة لَقْن بما يمر منها ولطف تحصيل لغامض اجزائها ونسب مقاديرها في اوضاع نَغَمها وازمنته وايقاعها. وليس يُغني التعليم فيها دون الطبع ولا الطبع دون

التعليم. فاذا اجتمعت لمن رامها طبيعة محمودة ومعلم حاذق ومران دائم وفراغ فَضْل وشهوة تامة فذلك ما ينبغي ان يكون. فان نقص من هذه الأسباب شيء دخل عليه من النقص بقدره. واذا اجتمعت في المغني هذه الخصال مع الحذق والأحسان واجتمع في السامع مثل ذلك من الفهم كان الطرب تاما ويخلص المسموع الى الروح فتظهر حينئذ الأريحية وتلبس النفس خِلَع التصرف مع الغناء وتجري في ميدان السرور وتأنف من الرذائل وتستجلب الفضائل ترفعا اليها وتشرفا بها".

ويسترسل احمد بن الطيب السرخسي في شرح الصلة بين الغناء والشعر فيبدي الملاحظات الطريفة والعميقة التالية: "ليس دليل فهم السامع الغناء ان يطرب او يتطارب. بل ربما كانت سرعة الطرب ادل على جهل السامع بما سمع وقلة معرفته. ويبين لك ذلك من انك تدعى من لايحُسن الغناء ولا الشعر ولا النحو ولا العروض اذا سمع شيئا من الغناء –وان كان في غاية الخروج والنفور والخطأ بعد ان يقال انه غناء– فهو يطرب عليه... واذا سمع الغناء بعينه من تبصر بالشعر والنحو والعروض والغناء لم يطرب اصلا بل يكون ذلك الغناء عنده بمنزلة القذف لا يشتهي إستماعه اصلا. فأقل الناس علما بالغناء اسرعهم طربا على كل مسموع. واكثر الناس علما به واشدهم تقدما في معرفته ابعدهم طربا عليه واقلهم رضى بما يسمع منهُ". ويذكر السرخسي حوادث طريفة في هذا الباب منها على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر قوله "ولقد قال لي احد ممن يُنَسّب الى الحذق –وقد ردَدتُ على خطأ– "قد غَنَّيتُ هذا لفلان فما عابه. فلم عبته انت؟" فنسب الخطأ الى ذلك الرجل واحتج بمشاركته اياه. وسمعت محترفا منهم وقد غنى لحنا لم افهم شعره. غير انني سمعت نغما وايقاعا ووزنا. فقلت ما شعر هذا.. فقال "هو لحن بلا شعر. صفته كما ترى." وهو يرى انه قد احسن وابدع. وسمعته ايضا يغني بشعر في الشمعة: وصفراء مجدولة" ... فقلت له: ما سمعت من غنَّى بشعر في الشمعة الا انت.. فقال "ماظننته إلا في جارية... واما ما يجري من التصحيف واللحن وكسر الشعر فأكثر من أن يحصى... ولقد غَنَّت محذقة منهم: "وقلَّ صبرى وقلَّ مني

الوفاء. "فقلنا: ليس هو كذا. وانما يقال: وقل مِن العزاء "فقال لي" عمري أغني هذا في دور الناس فما انكر عليَّ احد غيرك." وقال السرخسي ايضا: " وقد حُكيَ ان مغنيا غنى كافور الأخشيدي -وهو يرى انه اختار الأستفتاح- بشعر ابي نؤاس في الخصيب: "انت الخصيب وهذه مصر." واقبل يقف على "الخصيب" ويكرره دون الباء... الى أن قال له كافور فانا "الخصي" وقد علمت. فما بعد ذلك؟ فخجل وانقطع." ويستمر السرخسي في ابداء ملاحظاته المهمة والطريفة بصدد العلاقة بين الغناء والشعر بعد ان اوضح اهمية محتوى الشعر المغنَّى من ناحية المعاني والعروض والنحو فيقول بصدد العلاقة بين نغم الغناء والاوزان الشعرية "فالشدة واللين والتنقل والخفة والحلاوة.. تجري فيه تضاعيف ذلك على وجوه: فمنها: جودة التأليف وصحة القسمة وحسُن الوضع. وهي المشاكلة بين الأشعار والألحان. وهذه اصعب ما فيها .واغمض من ذلك معرفة معاني الألحان... فان كثيرا من الالحان لا معنى لها. ومنها ماله معنى بمنزلة البيت من الشعر فأنه قد يكون حسن النظم جزل اللفظ صحيح الوزن وليس فيه معنى وبغير فائدة اخرى. فان كان له معنى كان اكثر فائدة واقوى فعلا وافاد شيئا آخر. فمعنى اللحن هو غرض اللحن فيه الذي يقصده مثل ما يقصد الشاعر غرضا من الأغراض ومعنى من المعاني. فربما اصابه وبلغ الغاية فيه. وربما اخطأه. وربما قصَّر عنه او قاربه. فيجب ان نتعرف تلك الأغراض في الألحان والنغم والأصوات انفسها. فانها تحتاج الى ان تحاكي كما يُحاكي كلام المتكلم في سائر احواله.. واكثر هذه الألحان قصد به حكاية الأحوال والأزمان لتقدم فيها معان... واللحن يزيد في معنى الشعر وبهائه".

والغناء فيه قديم وحديث -كالشعر. والقديم. ولكل مزاياه. ومواقف المغنين من الغناء القديم والحديث كمواقف الشعراء متعددة ومختلفة في تمييز جيده من رديئه. ولكن الميل نحو القديم يغلب في الحالتين.

سأل الرشيد يوما ابراهيم بن ميمون الموصلي عن الغناء القديم والحديث فقال الموصلي "يا امير المؤمنين: الغناء القديم كالوشي العتيق الذي يُعْرَف فضله ويبين حسنه

بتكرار النظر فيه والتأمل له. فكلما ازددت له تأملا ظهرت لك محاسنه. والغناء المحدث كالوشي الحديث الذي يروقك منظره. فكلما تأملته بدت معايبه ونقصت بهجته."

لقد كانت العرب منذ جاهليتها الأولى تغني بالشعر وتترنم به وتهتز اعطافها ومشاعرها لموسيقاه وجرسه وتمد اصواتها بالنشيد وتزن الشعر بالغناء.

قال حسان بن ثابت:

تَغَنَّ بكل شعرٍ انت قائلُه

إنَّ الغناءَ لهذا الشعر مِضمارُ

وارتبط الشعر المغَنَّى به بالغزل ووصف جمال النساء حتى ان بعضهم تغنَّى بأبيات مطلعها "وضفائرٍ مجدولةٍ.." فقيل له: ما سمعنا بمن غنى بشعر في الشمعة الا انت.. فقال والله ما ظننته الا في جارية صفراء. وانا ممن يحب الصفر. ويجري هذا المجرى ان جارية غنَّت يوما:

وقل صبري وقلَّ منّي الوفاءُ." فقيل لها:

ليس هو كذلك. وانما هو"... وقلَّ مِنَّي العزاءُ".

وبصدد منزلة الغناء المقرون بالشعر الغزلي عند العرب يقول ابن جامع:

"ضامني الدَّهرُ ضيما شديدا بمكة. فأقبلت منها بعيالي الى المدينة. وحضرت صلاة المغرب. وبعد ان انفضَّ المصلون من المسجد بقي رجل عليه سيماء الوقار في موضعه قريبا مني. فانصرف وجهه إليَّ وقال: أحسبك غريبا.. قلت أَجل. فقال: فمتى كنت في هذه المدينة؟ قلت: دخلتها آنفا. وليس لي بها منزل ولا معرفة. وليست صناعتي من الصنايع التي بُحْتُ بها الى اهل الخير. فقال: وما صناعتك؟ قلت اغني. وانا ابن جامع. فقام من توه وركب مبادرا وخل بي بعض من كان على باب المسجد. ثم عاد مسرعا فأخذني الى مجلس له. فغنيّت:

شـــكونا الى احبابنـــا طـــولَ ليلنـــا

فقـــالوا لنـــا مـــا اقـــصرَ الليـــل عنـــدنا

وذاك لأن النـــوم يَغـــشى عيـــونهم

ســـريعا ولا يغْـــشَى لنـــا النـــومُ اعينـــا

فلـــو انهـــم كـــانوا يلاقـــون مثلمـــا

نلاقـــي لكـــانوا في المـــضاجِع مثلنـــا

فأهتزَّ الحاضرون طربا. ثم غنيَّتُ:

وددتُـــك لمَّـــا كـــان ودُّكَ خالـــصا

وأعْرَضْـــتُ لمّـــا صـــارَ نْهبـــاً مقـــسَّما

ولا يلبـــثُ الحـــوضُ الجديـــدُ بنـــاؤهُ

اذا كثـــر الـــورَّادُ أَن يتهَّـــدما

فازدادوا طربا. ثم غنيّتُ:

فلمَّـــا وقفنـــا للحـــديث وأســـفرَتْ

وجـــوْه زَهاهـــا الحـــسنُ ان تتقنَّعـــا

تَبـــا لَهُـــنَ بالعرفـــان لمـــا عَرفننـــي

وقلـــنَ امـــروٌ بـــاغٍ اضـــلَّ وأَوضـــعا

فلمَّـــا تواضَـــعّنَ الأحاديـــثَ قلـــنَ لـــي

أخِفـــت علينـــا أَن نُغـــرَّ ونُخـــدَعا

فازدادوا طربا. ثم غنيتُ:

فلـو كـان لـي قلبـان عـشت بواحـد
وخلفـت قلبـا في هـواك يعـذبُ
ولكـنني احيـا بقلـبٍ معـذبٍ
فلا العيش يصفو لـي ولا المـوت يقرب

تعلمتُ اسباب الرضا خوف سُخطها
وعلمهـا حُبِّـي لهـا كيـف تغـضَب
ولـي الـف وجـه قـد عرّفـتُ مكانـه
ولكـنّ بـلا قلـب الى ايـن اذهـب

قال جَبَلَة بن الاسود: خرجتُ يوما في طلب ابل لي ضلَّتْ. فما زلتُ في طلبها الى ان اظلم الظلام وخَفيَتْ الطريقُ. فسرتُ اطرف واطلب الجادة فـلا اجدها. فبينمـا انـا كـذلك اذ سمعتُ صوتا حَسنا بعيدا. فشجاني حتى كدت اسقط من فرسي. فقلت لأطلبنَّ الـصوت ولو تلفتُ نفسي. فما زلت اقرب اليه الى ان هبطتُ واديا". فاذا براعٍ قد ضمَّ غَنمـا لـه الى شجرة وهو ينشد:

وكنـتُ اذا مـا جئـت سُعدَى ازورهـا
ارى الأرض تُطـوى لـي ويدنو بَعيدُها
مـن الخفـرات البـيض ودَّ جليسُها
اذا مـا انقَـضْت احدوثَّـةٌ ان يعُيدَها

قال جَبَلَة: فدنوت منه وسلَّمت عليه. فردَّ عليَّ السلام وقال: مَنِ الرجل؟ قلت: منقطع به المسالك. أتاك يستجير بك ويستعينك. قال: مرحبا واهلا. انـزل عـلى الرحـب والـسعة

فعندي وطاءٌ وطيء وطعامٌ غير بطيء. فنزلت. فنزع شملته وبسطها تحتي. ثم اتاني بتمر ولبن وخبز. ثم قال: اعذرني في هذا الوقت. فقلت: ان هذا لخير كثير. فجاء الى فرسي فربطه وسقاه وعلفه.

وبالنظر لمنزلة الغناء المقرون بالشعر الرقيق في المجتمع العربي الأسلامي آنذاك فقد برع الكثيرون في هذا الفن. وقيل اول من غنى في الاسلام الغناء الرقيق طويسٌ. وقد تعلم سُريج الغناء الرقيق منه. وقيل ايضا ان اول صوت غُنِيَ به في الأسلام هو:

قـد براني الـشوق حتى

كـدتُ مـن وجـدي اذوبُ

ثم نجم بعد طويس وسريج ابن طُنبور واصله من اليمن. وكان ابن طنبور اهرع الناس واخفهم غناء. ومن غنائه:

وفتيانٍ على شُرب جميعا

دَلَفْتُ لهم بباطية هَدورِ

فـلا تَشربْ بلا طربِ فأني

رأيت الخيلَ تشرب بالصفير

ومن حذاق المغنين حَكَم الراوي. ومن غنائه:

امدح الكأس ومَن أعملها

واهجُ قوما قتلونا بالعطش

انما الراح ربيعُ باكر

فاذا وافت المرءَ انتعشْ

وذكر الرواة ان رجلا غنى بحضرة الرشيد بهذه الأبيات:

واذكـرُ ايـامُ الحمـى ثـم انـثني

علـى كبـدي مـن خشية ان تـصدَعا

فليـستْ عـشيّاتُ الحمِـى برواجـع

عليـك ولكـنْ خـلِّ عينيـك تـدمعا

بكـتْ عـيني اليُسرى فلمـا زجرتهـا

بكـت عـيني اليمنـى فأسبلتا معـا

فآستخف الرشيد الطربُ وامر له بصلة. وقيل ايضا ان دَحمـان الأشـقر غنَّـى عند الرشيد يوما فأنشد:

اذا نحـن أدْلجنـا وانـت أمامنـا

كفَـى لمطايانـا برؤيـاكِ هاديـا

ذكرتُـكِ بالـدَّيرَن يومـا فأشـرفتْ

بنـاتُ الهـوى حتـى بلغـنَ التَّراقيـا

اذا مـا طـواكِ الـدَّهرُ يـا أمَّ مالـك

فـشأن المنايـا القاضـياتِ وشـانيَا

فاهتَّز الرشيد واعاده منه مرات وامر له بصلة. وكـان للرشـيد -كمـا ذكـر الـرواة- جماعة من المغنين منهم ابراهيم الموصلي وابن جامع. وكان ابراهيم اشـدهم تـصرفا في الغناء وابن جامع احلاهم نغمة.

وقال اسحق الموصلي غنَّت الواثق يوما مغنية بهذه الأبيات:

ما كنتُ اعلم ما في البَين من حُرَق

حتـــى تنـــادوا بـــأن حِـــبيءَ بالـــسفُنِ

قامـــت تُـــودِّعني والـــدمُع يَغلبهـــا

فَهَمهمـــتُ بعـــضَ مـــا قالـــت ولم تَـــبِنِ

مالـــتْ إلـــيَّ وضـــمتَّني لِترشـــفني

كمـــا يَميـــل نَـــسيم الـــريح بالغُـــصن

واعرضـــت ثـــم قالـــت وهـــي باكيـــةٌ

يـــا ليـــت معـــرفتي اياكَ لم تكـــن

فاهتز الواثق طربا وامر لها بجائزة.

وُحَكَي أنَ البعلبكي -مؤذِّن ابي جعفر المنصور -رَجَّعَ في اذانه ليلـةً وكانـت جاريـة تصَب الماءَ على يد المنصور. فاهتَّزت طربا ووقع الأبريق مـن يـدها. فقـال لـه المنصور بلطف: خذْ هذه الجارية فهي لك. ولا تعدْ تُرجِّع هذا الترجيع. وقال عبد الرحمن بن عبد الله بن ابي عِمارة في قينة:

أَلَـــمْ تَرهـــا لا أَبعَـــد اللهُ دارهَـــا

اذا رجعَّلـــت في صـــوتها كيـــف تـــصنعُ

تُـــدير نظـــامَ القـــول ثـــم تـــردّه

الى صلـــصل مـــن صـــوتها يَتَّرجـــع

وقال الحادي سَلام لأبي جعفر المنصور يوما (وكان يضرب المثل بحدائه):

"مُرْ -يا أمير المؤمنين- بأن يظَّمئوا ابلا ثم يوردوها الماء. فأني آخذ في الحِداء فترفع رؤوسها وتترك الشُّرب". وحتى الطير يَحنَّ الى حُسْنِ الصوت حتى قيل:

والطيُّـــر قـــد يَـــسوقُه للمـــوتِ

اصـــغاؤه الى حَـــنين الـــصوت

والأبل تزداد في نشاطها وقوتها بالحداء فترفع آذانها وتلتفت يمنة ويسرةً وتتبختر في مشيتها. والراعي اذا رفع صوته بالنغم تلقَّته الغنم بآذانهـا وَجـدتَّ في رعيهـا. والدابـة تعاف الماء. فاذا سمعت الصفير بالغت في الشُّرب.

وكانوا يُنكرون على الرجل عدم اهتزازه للغناء. قال اسحق الموصلي "كنت يومـا عنـد احمد بن يوسف. ونحن في غناء. فدخل احمد بن ابي خالد فقال: والله ما أُجيد شيئا ممـا انتم فيه." فقال الموصلي "فقد والله هانَ ابن ابي خالد هذا عَليَّ وخَّف في عيني. فقلتُ لـهُ كالمستهزئ به: جُعِلْتُ فداك.. قَصدتَ الى ارقِّ شيء خلقه الله وأليْنَـه عـلى الأذن والقلـب فذممته". والغناء الحسن بنظرهم من اختـصاص النـساء. وان يكـون الـترنُّم بالـشعر الغزلي الرقيق الممزوج بالعزف وبمجالس الأنس حيث تُـدار الـراح "في عـسجدية" قـال ثمامة بن اشرس: كنتُ يوما عند المأمون. فاستأذن لعمير المأموني. فَكرِهْتُ ذلـك. ورأى المأمون الكراهية في وجهي. فقال لي: يا ثمامة.. ما بك.؟ قلت: يا امير المـؤمنين اذا غنآنـا عُمير ذكرتُ مواطن الأبل وكُثبان الرمـل. واذا غنتنـا فلانـة انبسط أَمـلي وقـوى جَـذلي وانشرح صدري وذكرتُ الجنان. كم بين ان تُغنيك جارية غادة كأنهـا غـصن بـان ترنـو بمقلة وسنان. بشعر عُكَّاشَة (بضم العين وتشديد الكاف او تخفيفها) بن عبد الـصمد البصري حيث يقول:

مـــن كـــفٍ جاريـــةٍ كـــأن بنانَهـــا

مـــن فـــضة قـــد طُرِّفـــتْ عنابًـــا

وكـــأن يمناهـــا اذا ضَـــربتْ بهـــا

تلقـــي علـــى الكـــفِّ الـــشِّمال حِـــسابا

وبين ان يغنيك رجل كثُّ اللحية غليظ الأصابع خشن الكف بشعر ورقاء بن زهير حيث يقول:

رأيتُ زهيرا تحت كلكلِ خالدِ

فاقبلتُ اسعى كالعَجول أبادرُ

وكم بين ان يحضرك من تشتهي النظر اليه وبين من لا يقف طرفك عليه.. فتبسم المأمون وقال: الفرق بينهما واضح. والنهج فسيح. ثم نادى: يا غلام لا تأذن له.

وكتب الجاحظ في رسالته الموسومة "في النساء" شيئا مشابها لكنه عزا البيتين دون تثبت الى الصحابي الجليل عُكَّاشة بن مِحصَن (بضم العين وتشديد الكاف او تخفيفها في الأسم الأول. وبكسر الميم وفتح الصاد الأسم الثاني). وعكاشة هذا هو الذي قال عنه الرسول "منا خيرُ فارس في العرب". فقال له ضِرار الأسدي: "ذلك رجل منا يا رسول الله" فقال النبي: "بل هو منا بالحلفِ." وتحضرنا -في هذه المناسبة- قضية اخرى تشير الى عدم تثبت الجاحظ احيانا مما يرويه: فقد ورد مثلا في كتاب البيان والتبيين: الجزء الأول الصفحة ١٤٧ ما يلي:

وقد قال مالك بن اسماء في استملاح اللحن من بعض نسائه:

أمُعطَّي مِنَّي على بصري للـ

حُبِّ ام انتِ اكملُ الناس حُسنا

وحديث أَلَّذهُ هو مما

يَنعت الناعتون يوزنُ وزنا

منطقٌ صائبٌ وتلحنُ احيا

نا وأحلَى الحديث ما كان لَحنا

كذا فهم الجاحظ في شعر مالك بن اسماء بن خارجة انه اراد باللحن الخطأ في الكلام. في حين ان اللحن هنا يعني التعريض والتورية. وعندما عوتب الجاحظ في ذلك قال: لقد فَطنتُ الى هذا المعنى بعد ذلك. فقيل له: نصلِّحْه. قال: كيف لي بما سارت به الركبان!! يريد بذلك انتشار قوله المغلوط في الآفاق.

اما الآن فلنعد الى ما كتبه الجاحظ في رسالته الموسومة "في النساء" لطرافته واهميته:

"وعلى ان الغناء الحَسَن والبدن الحَسَن احسن. والغِناء الشَّهي من الوجه الشهَّي والبدن الشهِّي أشهَى. وكذلك الصوت الناعم الرخيم من الجارية الناعمة الرخيمة... وكم بين ان يُسَمَع الغناء من فم نشتهي ان نقلبه وبين فم تشتهي ان تصرف وجهك عنه.. وعلى ان الرجال دُخلاء على النساء في الغناء. كما رأينا رجالا ينوحون. فصاروا دخلاء على النوائح.

وبَعْدُ: فأيما احسن وأملح واشهى وأغنج ان يغنيك فحل ملتّف اللحية كث العارضين.. او شيخ منخلع الأسنان مُغضن الوجه.. ثم يغنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء إبن زهير:

رأيتُ زهيرا تحت كلكل خالد

فأقبلتُ أسعى كالعجول أبادرُ

ام تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس او كأنها ياسمينة او كأنها خرطت من ياقوتة او من فضة مجلوة بشعر عكاشة بنِ مِحْصَن:

من كفّ جاريةٍ كأن بنانها

من فضة قد طرقت عنابا

وكأن يمناها اذا نطقت به

ألقت على يدها الشمال حِسابا

فأما الغناء المطرب في الشعر الغزل فانما ذلك من حقوق النساء. وانما ينبغي ان تغني باشعار الغزل والتشبيب والعشق والصبابة بالنساء اللواتي فيهن نطقت تلك الأشعار وبهن شبب الرجال ومن اجلهن تكلفوا في النسيب.

والبيتان المشار اليهما مجتزءان من مقطوعة انيقة وجدنا بعض ابياتها في كتاب سِمْط اللآلِيء ووجدنا بعضا آخر في كتاب الأغاني. وبالنظر لأناقة هذهِ المقطوعة الغنائية الرشيقة فقد آثرنا اثبات ابياتها جميعا:

يا ليلةً جَمعَتْ لنا الأحبابا

لو شئت دام لنا النعيمُ وطابا

بتنا نُسقَّاها شمولا قرقَفاً

تدع الصحيح بعقله مرتابا

حمراءَ مِثْل دمِ الغزالِ وتارةً

عند المِزاج تخالها زرْيابا

من كفّ جاريةٍ كأن بَنانَها

من فضة قد طُرِّفتْ عُنابا

وكأن يمناها اذا نطقت به

ألقتّ على يدها الشمال حسابا

هُبُّوا فقد النسيُم وطابا

والدَّهرُ يذهب بالنعيم ذَهابا

حشُّوا على حُسْنِ الصَّبوح فقد نَضَا

نورُ الصباح من الدَّجى جلبابا

-٤-

لقد اختلف الفقهاء في الغناء فأجازه عامَّةُ اهل الحجاز وكَرِهَه عامة اهل العراق. وقد اجازوا تحسين الصوت في القراءة والأذان. فأن كانت الألحان مكروهةً فالقراءة والأذان احقُ بالتنزيه عنها. وانّ كانت غير مكروهة فالشعر أحوج اليها لأقامة الوزن. وما جعلت العرب الشعر موزونا الا لمِدِّ الصوت والدنّدنة.

كما اختلف الفقهاء ايضا في الشعر والشعراء. وقد وقف بعضهم موقفا متزمتا. فردوا شهادة الشاعر في المحاكم وطالبوا برفض مبدأ الأجر لقاء نَسْخ الأشعار او تعليم الغلمان الشعرَ. كما طالبوا برفض استئجار دفاتر فيها شعر وغناء يقرأ فيها. وفي كتاب الشعر والشعراء لأبن قتيبة (وهو فقيه وقاض) اشارات الى ذلك في مواطن شتى.

شهد رجل عند احد القضاة. فردَّ شهادته وقال: بلغني أنَّ جارية غَنَّتَ فقلتَ لها: احسنتِ. فقال الرجل: اعز الله القاضي: قلت لها ذلك حين ابتدات او حين سكتتّ؟ قال: حين سكتت. فقال الرجل: استحسنت سكوتها -ايها القاضي-. فقبل القاضي شهادته. ومن طريف ما يروى في هذه المناسبة ان بعض المتزمتين جاءوا برجل الى القاضي وقالوا: وجدنا معه طنبوراً فأقم عليه الحدَّ. فأبى القاضي وقال لهم لا حدَّ عليه. فقالوا: كيف ذلك؟ وقد وجدنا معه آلة الفِسْق؟ فابتسم القاضي وقال: كل واحد منكم معه آلة الزنّا فهل يجب عليه الحد؟ فانقطعوا وانصرفوا. وكتب بعض الأدباء المتزمتين الى القاضي بسؤال في: ما يقول القاضي أيَّدَه الله تعالى في رجل سمى ابنه مُداما وكناه ابا الندامى وسمى ابنته المراح وكنَّاها ابنة الأفراح وسمى عبده الشراب وكناه ابا الأطراب وسمى وليدته القهوة وكناها ام النشوة: أينهي عن بطالته؟ أم يترك على خلاعته؟ فكتب القاضي الجواب: "لو علمنا مكانه لمسحنا اركانه.. فان أتبع هذه الأسماء افعالا وهذه الكنى استعمالا علمنا أنه قد احبَّ دولة المجون. فبايعناه وان لم يكن إلا اسماء سمّاها وماله بها من سلطان خلعنا طاعته وفرضنا جماعته. فنحن الى إمام فَعَّال احوج منا الى إمام قَوال".

ومن الطريف ان نشير في هذه المناسبة بصدد الغناء في المدينة انه لما دخل المدينة عثمان بن حيَّان المري واليا عليها اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار فقالوا له: انك لا تعمل عملا أجدْى ولا أولى من تحريم الغناء. ففعل واجل اهل الغناء ثلاثا يخرجون فيها من المدينة. فقدم ابن ابي عتيق في الليلة الثالثة: فحطَّ رحله بباب سَلاَّمة المغنية. فقالت له: او ما تدري ما حدث؟ واخبرته الخبر. فمضى الى عثمان فأستأذن عليه وقال له: ان من افضل ما عَمِلتَ تحريمَ الغناء. ولكن ما تقول -أمتع الله بك- في إمرأةٍ كانت هذه صناعتها. ثم تركتها وأقبلت على الصلاة والصيام والخير واني رسولها اليك: تقول اتوجه اليك واعوذ بك ان تخرجني من جوار رسول الله. ثم جاءَهُ بها وقال لها: احملي معك سبحة وتخشَّعي. ففعلت. فكثر تعجبه فقال ابن ابي عتيق كيف لو سمعتها في صناعتها.. فلم يزل ينزله شيئا فشيئا حتى أمرها بالغناء. فاهتز عثمان طربا ونزل عن سريره حتى جلس بين يديها. ثم قال: والله ما مثلك يخرج عن المدينة. قال ابن ابي عتيق لا يدعك الناس: يقولون أقَرَّ سلامة واخرج غيرها. قال عثمان: ندعهم جميعا. فتركوهم جميعا.

ومن الأدلة على اهتمام العرب بالشعر وعلى منزلته المرموقة عندهم انهم نسبوا للجن شعرا. وبصدد شعر الجن ابدى أبو العلا المعري في رسالة الغفران (ص٢٨٩- ٣٠٤) الملاحظات الطريفة التالية عند حديثه عن جولة لبيد في الجنة:

"ويبدو له ان يطلع الى اهل النار فينظر الى ما هم فيه ليعظم شكره على النعم... فيركب بعض دواب الجنة ويسير فاذا هو بمدائن ليست كمدائن الجنة... فيقول لبعض الملائكة: ما هذه يا عبد الله؟ فيقول: هذه جنة العفاريت الذين آمنو بمحمد صلى الله عليه وسلم وذكروا في سورة الأحقاف وفي سورة الجن. وهم عدد كثير. فيقول لأعدِلنَّ الى هؤلاء... فاذا بشيخ جالس على باب مغارة... فيقول له: اخبرني عن اشعار الجن: فقد جمع منها المعروف بالمرزباني قطعة صالحة. فيقول ذلك الشيخ: انما ذلك هذيانٌ لا معتمد عليه. وهل يعرف البشر من النّظم إلاَّ كما يعرف البقر من علم الهيئة ومساحة

الأرض؟ وانما لهم خمسة عشر جنسا من الموزون قلّما يعدوها القائلون. وان لنا لآلاف اوزان ما سمع بها الأنس". -وبعد ان يُنشد شعرا للجن ويستحسنه فيقول له: فكيف السنتكم؟ ايكون فيكم عرب لا يفهمون عن الروم؟ وروم لا يفهمون عن العرب؟ كما نجد في اجيال الأنس.. فيقول: هيهات ايها المرحوم.. انا أهل ذكاء وفطنَ. ولابُدَّ لأحدنا ان يكون عارفا بجميع الألسن الأنّسيَّة. ولنا بعذ ذلك -لسان لا يعرفه الأنس. ... وانا الذي انذرت الجن بالكتاب المنّزل: أدلجت في رفقه من الخابل زيد اليمن فمررنا بيثرب في زمان المَعوِ -الرطب- فسمعنا قرآنا عجبا يهدي الى الرُّشد فآمنا به... وعدت الى قومي فذكرت لهم ذلك... فيعجب -لبيد- لما سمعه من ذلك الجني ويكره الأطالة عنده فيودعه".

وبصدد ربط الشعر بالغناء ومنزلة الغناء في مجمل الثقافة العربية (او مكانة الشعر المغنّى به عند العرب) وردت في رسالة الغفران ايضا (ص٢٦٧- ٢٧٨) عبارات طويلة نقتطف منها ما يلي:

"ويعرض لهم لبيد بن ربيعة فيدعوهم الى منزله... ويبدو -أيد الله مجده بالتأييد- ان يضع مأدبة في الجنان ويجمع فيها من شعراء الخضرمة والاسلام... فيخطر له ان تكون كمآدب الدار الفانية... فيقترح -أمضى القادر له اقتراحه- ان تحضر بين يديه جَوار من الحور العين.... فأذا اتت الطعمة افترق غلمانه الذين كأنهم اللؤلؤ المكنون لإحضار المدعوين. فلا يتركون في الجنة شاعرا اسلاميا ولا مخضرما ولا عالما بشيء من اصناف العلوم ولا متأدبا إلا احضروه.... فاذا قضوا الأرب من الطعام جاءت السقاة بأصناف الأشربة والمسمعات بالأصوات المطربة. ويقول -لافتيء ناطقا بالصواب- عليّ بمن في الجنة من المغنيين والمغنيات ممن كان في الدار العاجلة فقضيت له التوبة. فتحضر جماعة كثيرة من رجال ونساء فيهم: الغريض ومعبد وابن مِسْجَع وابن سريج الى ان يحضر ابراهيم الموصلي بابنه اسحق فيقول قائل من الجماعة- وقد رأى أسراب قيان قد حضرن مثل بصيص ودنانير وعنان- من العجب أنّ الجّرادتَيْن في اقاصي الجنة. فاذا سمع ذلك لبيد - لابرح سمعه مطروقا بما يبهجه -قال: لابد من حضورهما.

فيركب بعض الخدم ناقة من نوق الجنة ويذهب اليهما على بعدِ مكانهما فتقبلان على نجيبين اسرع من البرق اللامع. فاذا حصلتا في المجلس حياهما وبش بهما وقال: كيف خلصتما الى دار الرحمة بعد ما خطبتما في الضلال؟ فتقولان: قدرت لنا التّوبة ومتنا على دين الأنبياء المرسلين. فيقول: احسنَ الله اليكما. أسمعانا شيئا من القصيدة الحائية التي تروى مرة لعُبيدة ولأوس مرة اخرى...

وَدِّعْ لَميسَ ودَاعَ الوامق اللاّحي
قد فتكتْ في فساد بعد إصلاح

اذ تستبيك بمعقول عوارضه
حمش اللثات عِذابٍ غَيْرِ مملاح

كأنَّ ريقتَها بعد الكرى اعتبقتْ
من ماء أدكنَ في الحانوت نَضَّاح

ومن مُشَعْشعة ورهاء نشوتها
ومن انابيب رمانٍ وتُفَّاح

إن أشرب الخمرَ او أرزأ لها ثمنا
فلا محالة يوما انني صاح

ولا محالة من قبر بمجنية
او في مليح كضمد التُرسْ وضَّاح

فتطربان مَن سمعَ وتستسفران الأفئدة بالسرور... ويكثرُ حَمْدُ الله سبحانه كما انعم على المؤمنين والتائبين وخلصّهم من دار الشقْوة الى محل النعيم... وَيلتفت لبيد فيرى جِرانَ العُود النميْري فيُحييه ويرحب به ويقول لبعض الفتيات اسمعينا قول هذا المحسن:

حَمَلْنَ جِرانَ العُـود حتَّـى وضعْنَهُ

بِعَليـاءَ في أَرجائهـا الجـن تعـزِفُ

وأحـرزْنَ مِنـا كـل حُجـرِةٍ مِئـزَرٍ

لَهُـن وطـاحَ النـوفلي المزخـرف

وقلـنَ تمتَّـعْ ليلـة النَّـأي هـذه

فأنـك محـرومٌ غـداً او مُـسيَّفُ

... فتصيب تلك القينة وتجيد. فأذا عجبت الجماعة من احسانها واصابتها قالت: اتدرون من أنا؟ فيقولون: لا والله المحمود. فتقول: انا ام عمرو التي يقول فيها القائل:

تَـصُدّ الكـأس عنَّـا أم عمـرو

وكـان الكـأس مجراهـا اليمينـا

ومـا شـرَّ الثلاثـةِ أمَّ عمـرو

بـصاحبك الـذي لا تـصحبينا

فيزدادون عجبا ولها إكراما ويقولون: لمن هذا الشعر؟ اهو لعمرو بن عدي اللخْمي؟ ام هو لعمرو بن كلْثوم التُغلبيّ؟ فتقول: أنا شَهدتُ "نَـدْماني جذيمـة": مالكـا وعقـيلا وصبحتهما الخمر المشعشعة لمأ وجدا عمروا بنَ عَديّ فكنت اصرف الكأس عنه فقال هذين البيتين. فلعل عمرو بن كلثوم حَسَّنَ بهما كلامه واستزادهما في ابياته.

ومنزلة الغناء عند الناس آنذاك يتعذر ايفاؤها حقها. والأمثلة على ذلك تتعذر الأحاطة بها. وهي طريفة وغريبة ايضا، منها مثلا -بالأضافة الى ما ذكرناه -ان رجلا غنى يوماً في المسجد الحرام وهو مستلق على قفاه ورجل من قريش يصلي في جواره. فسمعه خدام المسجد فابتدروه قائلين: يا عدو الله تغني في المسجد الحرام.. ورفعوه الى صاحب

الشرطة. فتجوز القرشي في صلاته ثم سلم. واتبعهم فقال لصاحب الشرطة: "كذبوا عليه اصلحك الله. انما كان يقرأ. فالتبس عليهم الأمر وظنوه غِناءً. فامتعض صاحب الشرطة ونهرهم وامرهم ان يخلو سبيل الرجل. فاصطحبه القرشي معه وهمس في اذنه " والله لولا انك احسنت واجدت ما شهد زورا لك. اذهب راشدا". وقيل ايضا ان الأوقص المخزومي ولي قضاء مكة فما رؤي مثله في العفاف والنبل. فبينما هو نائم ذات ليلة اذ مر به سكران يتغنى ويلحن في غنائه. فأشرف القاضي عليه فقال: "يا هذا شربت حراما وايقضت نياما وغنيت خطأ. خذه عني". فأصلحه له. ثم عاد الى فراشه.

-٥-

قال الحسن بن احمد بن علي الكاتب بصدد منزلة "صناعة الغناء" في مجمل المعرفة السائدة في القرن السادس الهجري- الذي عاش فيه-: "لم تزل هذه الصناعة اذا طلبت حتى الطلب وتتبع كل محصول فيها حتى يحاط بمعرفته تتقدم سائر التعاليم عند الفلاسفة بالشرف. فانهم كانوا يرون ان علم العدد وعلم الهندسة وعلم النجوم دون علم اللحون في الشرف. الا انه لما تعلق باسم هذه الصناعة دون معناه سقاط العوام فادعوا منها ما لايحسنون واكتسبوا بها من قوم لا يفهمون وضعها. ذلك عند من عدم التحصيل. فأما المحصلون فانهم لم يروا ان يلزموا من اصاب عتب من اخطأ ولا من علم نقص من جهل بل وفّوا الصناعة حَقَّها وعرفوا لها قَدْرها ونظروا الى علمها بعين التعظيم والتكرمة وقصدوا من صنعها بالبّر والمواساة.

ومن الجدير بالذكر هنا ان "العلم" بنظر الفلاسفة الأقدمين(وبخاصة ارسطو الذي انتشرت آراؤه في المجتمع العربي الأسلامي في صدر الدولة العباسية كما سنرى في الفصل الثالث من كتابنا هذا) ذو مراتب او طبقات ثلاث متفاوتة الأرتفاع في المنزلة والأهمية. اعلاها."علم ما غاب عن الحواس" فأدرك بالعقل والقياس. واوسطها علم الآداب النفسانية التي اظهرها العلم بالأشياء الطبيعية كالأعداد والمساحات وصناعة التنجيم.

وادناها العلم بالأشياء الجزئية والأشخاص الجسدية. فوجب: اذا كانت افضل العلوم ما لم تشارك فيه الجسوم ان تكون افضل الصناعات ما لم تشارك فيه الآلات. واذا كانت اللحون -عند الفلاسفة- اعظم اركان العمل الذي هو احد قسمي الفلسفة عندهم وجدنا الشعر اقدم من لحنه لا محالة. فكان اعظم من الذي هو اعظم من اركان الفسلفة آنذاك. والفلسفة عندهم علم وعمل. واللحون الغنائية والموسيقية في طبقة واحدة من الأرتفاع والمنزلة".

-٦-

وبصدد منزلة الموسيقى في مجمل الثقافة العامة وصلتها بالشعر في القرن الرابع الهجري كتب اخوان الصفا في الرسالة الخامسة من رسائلهم (رسائل اخوان الصفا وخلان الوفاء: المجلد الأول الصفحات ١٨٣- ٢١١) ما يلي: "واذ فرغنا من ذكر الصنائع العلمية الروحانية التي هي اجناس العلوم ومن ذكر الصنائع العلمية الجسمانية التي هي اجناس الصنائع وبينا ماهية كل واحدة منهما وكمية انواعها وما الأغراض المطلوبة منها في رسالتين لنا فنريد ان نذكر في هذه الرسالة الملقبة بالموسيقى الصناعة المركبة من الجسمانية والروحانية التي هي صناعة التأليف في معرفة النسب. وليس غرضنا من هذه الرسالة تعليم الغناء وصنعة الملاهي وان كان لا بد من ذكرها. بل غرضنا هو معرفة النسَّب وكيفية التأليف اللذين بهما وبمعرفتهما يكون الحذق في الصنائع كلها".

"اعلم يا اخي -ايدك الله وايانا بروح منه- بان كل صناعة تعمل باليدين فان الهَيُولَي الموضوعة فيها انما هي اجسام طبيعية ومصنوعاتها كلها إشكال جسمانية الا الصناعة الموسيقية فأن الهَيُولي الموضوعة فيها كلها جواهر روحانية وهي نفوس المستمعين. وتأثيراتها فيها مظاهر كلها روحانية ايضا. وذلك ان الحان الموسيقى أصوات ونغمات. ولها في النفوس تأثيرات كتأثيرات صناعات الصناع في الهيوليات الموضوعة في صناعتهم ضمن تلك النغمات والاصوات ما يحرك النفوس نحو الأعمال الشاقة والصنائع المتعبة وينشطها ويقوي عزماتها على الأفعال الصعبة المتعبة للأبدان التي

تبذل فيها مهج النفوس وذخائر الأموال. وهي الالحان المشجعة التي تستعمل في الحروب وعند القتال في الهيجاء ولا سيما اذا غني معها بأبيات موزونة في وصف الحروب ومديح الشجعان... مثل قول البسوس بنت منقذ.

قول البسوس بنت منقذ الذي اشار اليه اخوان الصفا اثار حرب البسوس المعروفة في ايام العرب اثناء جاهليتها وخلاصة الأمر: ان كليب بن ربيعة تزوج جليلة بنت مرة بن ذهل بن شيبان. وكان لمرة عشرة بنين: جساس أصغرهم. وكان فارسا شهما ابيا وكان يلقب "الحامي الجار" المانع الذمار وهو الذي قتل كليبا في هذه الحرب. وحدث ان كليبا دخل على امرأته جليلة يوما فقال لها هل تعلمين على الأرض امنع مني ذمة؟ فسكتت. ثم أعاد عليها الثانية. فسكتت. ثم أعاد عليها الثالثة. فقالت: نعم. اخي جَّساس. فوجم كليب. وبينما هي تغسل رأسه وتسرحه ذات يوم اذ قال لها: من اعزّ وائل؟ قالت: أخواي جساس وهمام، فنزع رأسه من يدها وخرج غاضبا. وكان لجساس خالة اسمها البسوس بنت منقذ وقد جاءت ونزلت على ابن اختها جساس. فكانت جارة لبني مُرَّة. وكان لها ناقة رقيقة حسنة ومعها فصيل لها. فلما خرج كليب غاضبا من قول زوجته جليلة شقيقة جساس رأى فيصل ناقة البسوس فرماه بقوسه فقتله. وعلمت بنو مرة بذلك فأغضوا على ما فيه وسكتوا. ثم لقي كليب ابن البسوس فقال له: ما فعل فصيل ناقتكم؟ فقال: "قتلته واخليت لنا بني امه". واغضت بنو مرة على هذا ايضا. ثم ان كليبا اعاد القول على امرأته جليلة شقيقة جساس فقال لها يوما: من اعز بني وائل؟ فقالت: اخي جساس. فأضمرها في نفسه واسَّرها وسكت. حتى اذا مرَّت به ابل جساس -وفيها ناقة البسوس- انكر الناقة وقال ما هذه الناقة؟ قيل له لخالة جساس. فقال: أو بلغ من امر ابن السعدية (يريد جساسا) ان يجُير علَّي بغير إذني.. ارم ضرعها يا غلام. فأخذ القوس ورمى ضَرْعَ الناقة فاختلط دمها بلبنها. وراحت الرعاة على جساس فأخبروه بالأمر. وولت الناقة ولها عجيج حتى بركت بفناء جساس. فلما رأتها البسوس صاحت بأعلى صوتها: واذلاَّه.. فسمعها جساس وقال لها اسكتي فلك بناقتك ناقة اعظم

منها. فأبت ان ترضى حتى صاروا لها الى عشر. فلما كان الليل انشأت تقول تخاطب سعدا اخا جساس وترفع صوتها تسمع جساسا:

أيا سعدُ لا تَغْرُرْ بنفسك وارتحلْ
فإنيَّ في قوم عن الجار اموات
ودونك أزوادي اليك فإنني
محاذرَةٌ أنْ يغدروا ببنيَّاتي
لعمرك لو اصبحت في دار منقذ
لما ضيم سعد وهو جار لأبياتي
ولكنني اصبحت في دار معشر
متى يَعْدُ فيها الذئبُ يعدو على شاتي

فلما سمعها جساس قال لها: لا تراعي: اني سأقتل جملا اعظم من هذه الناقة. سأقتل غلالا: يعني كليبا. فنشبت الحرب وقتل جساس كليبا. وعانى الطرفان المتحاربان الأمرين من هذه الحرب الطاحنة الطويلة الأمد.

أما الآن فلنعد الى رسالة اخوان الصفا في الموسيقى. ويستطرد اخوان الصفا في سرد ما للألحان والنغمات من آثار سايكولوجية بعيدة المدى عميقة الغور فيقولون: "ومن الألحان والنغَّمات ايضا ما يسكِّن سورةَ الغضب ويحل الأحقاد ويوقع الصلح ويكسب الألفة والمحبة... ومن الألحان والنغمات ما ينقل النفوس من حال الى حال ويغير اخلاقها من ضد الى ضد... فقد تبين بما ذكرنا ان لصناعة الموسيقى تأثيرات في نفوس المستمعين مختلفة كاختلاف تأثيرات صناعات الصناع في الهيوليات الموضوعة في صناعتهم. فمن اجلها يستعملها كل الأمم من بني آدم وكثير من الحيوانات ايضا. ومن الدليل على ان لها تأثيرات في النفوس استعمال الناس لها: تارة عند الفرح والسرور والأعراس والولائم

والدعوات. وتارة عند الحزن والغم والمصائب وفي المآتم. وتارة في بيوت العبادات وفي الأعياد. وتارةً في الأسواق والمنازل. وفي الأسفار وفي الحضر. وعند الراحة والتعب. وفي مجالس الملوك ومنازل السوقة. ويستعملها الرجال والنساء والصبيان والمشايخ والعلماء والجهال والصناع والتجار وجميع طبقات الناس. ... كل ذلك لرقة القلوب ولخضوع النفوس ولخشوعها. والأنقياد لأوامر الله تعالى ونواهيه والتوبة اليه من الذنوب والرجوع الى الله سبحانه وتعالى باستعمال سنن النواميس كما رسمت".

"وقد تستعمل هذه الصناعة للحيوانات ايضا. مثل ما يستعمله الجمَّالون من الجداء في الأسفار وفي ظلم الليل لينشط الجمال في السير ويخفف عليها ثقل الأحمال. ويستعملها رعاة الغنم والبقر والخيل عند ورودها الماء من الصفير ترغيبا لها في شرب الماء. ويستعملون لها ايضا الحانا أخر عند هياجها للنَّزو والسفاد. والحانا اخر عند حلب البانها لتدر. ويستعمل صياد الغزلان والدراج والقطا وغيرها من الطيور الحاناً في ظُلَمَ الليل بدفعها بها حتى تؤخذ باليد. وتستعمل النساء للأطفال الحانا تسكن البكاء وتجلب النوم. فقد تبين بما ذكرنا ان صناعة الموسيقى تستعملها كل واحدة من الأمم ويستلذها جميع الحيوانات التي لها حاسة السمع وان للنغمات تأثيرات في النفوس الروحانية كما لسائر الصناعات وتأثيرات في الهيوليات الجسمانية. فنقول الآن: ان الموسيقى هي الغناء. والموسيقار هو المغني. والموسيقات هي آلة الغناء. والغناء هو الحان مؤلفة. واللحن هو قرع يحدث في الهواء من تصادم الأجسام بعضها ببعض كما بينا في رسالة الحاس والمحسوس.

"واما علة تحريم الموسيقى في بعض شرائع الأنبياء عليهم السلام فهي من اجل استعمال الناس لها على غير السبيل التي استعملها الحكماء بل على سبيل اللهو واللعب والترغيب في شهوات لذات الدنيا".

الفصل الأول

منزلة الشعر عند العرب

-١-

للشعر عند العرب مكانة مرموقة عبرَّت عن نفسها بكثرة تعاطيه وتعدد رواته والعناية في تدوينه وحفظه. فاستأثر بالنصيب الأوفر من تراثهم الفكري وطغى على النثر طُغيانا ملحوظا قلَّ ان يشاهد المرء نظيرا له في تراث الأمم الآخر. وقد مارس نظمه وحفظه وانشاده كثير من الناس على اختلاف مشاربهم ومهنهم فتعَّذر الألمام حتى باسماء الشعراء المعروفين في قبائلهم في كثير من الأحيان. وقد قيل ان فتيانا جاءوا الى ابي ضَمْضمَ يوما بعد العشاء. فقال لهم: ما جاء بكم يا خبثاء؟ قالوا: جئنا نتحدث بالشعر. فقال: اكذبتم. ولكن قلتم كبر الشيخ فنتلعبه عسى ان نأخذ عليه سقطه. ثم انشدهم لمئة شاعر كلهم اسمه عمرو. فهذا الذي حفظه ابو ضمضم من الشعر الجاهلي وحده وللشعراء الذين اسم كل منهم عمرو. ولم يكن ابو ضمضم بأروى الناس.

لاشك في ان منزلة الشعر عند العرب وثيقة الصلة بصفاتهم الاجتماعية والفكرية المتميزة التي هي في الأصل التاريخي من وحي الصحراء. فالعرب -في الأصل -اهل قفر ووحشة من الأنس. فاحتاج كل فريق منهم في وحدته الى فكره ونظره. وعلموا ان معاشهم مما تنبت الأرض وتجود به السماء. فوسموا كل شيء حولهم بسمته ونسبوه الى جنسه. وعرفوا مصلحة ذلك في رطبه ويابسه وفي اوقاته ومنازله. ثم نظروا الى الزمان واختلافه فجعلوا منازله من السنة ربيعيا وصيفيا وقيضيا وشتويا ثم علموا ان شربهم من السماء فوضعوا لذلك الأنواء. واحتاجوا الى الأنتشار في صحرائهم المترامية الأطراف انتجاعا للكلأ وطلبا للماء. فجعلوا نجوم السماء لهم ادلة على اطراف الصحراء. وجعلوا بينهم احكاما ينتهون اليها عن المنكر ترغبهم في الجميل وتجنبهم الدناءة وتحضَّهم على مكارم الاخلاق. وليس لهم كلام إلا وهم يحاضُّون على اصطناع المعروف ثم حفظ الجار وعلى السخاء وابتناء الامجاد. فتحلوا بالنجدة والقرى وبالوفاء والبلاء وبالأريحية والنخوة والأهتزاز للكلمة الطيبة والتسابق في كسب الثناء والنكل الشديد عن الذم اوالهجاء. وكان العرب -في صحرائهم الجرداء- احسن الناس حالا واهنأهم عيشا، اذا

جارتهم السماء وصدقتهم الأنواء وازدانت الأرض "فاهتزت وربت" فتهدلت الثمار وسالت الأودية وكثر اللبن واللحم والتمر والقمح وقامت الأسواق وطابت المرابع وفشا الخصب.

والعرب في شظف عيشهم مستأنسون وفي بواديهم متحضرون. فقد اجتمع لهم من عادات الحاضرة احسن العادات ومن اخلاق البادية اظهر الأخلاق. ومما يدل على تحضرهم في باديتهم و "تبديهم" في تحضرهم وتحَلّيهم بأشرف احوال الأمرين المتناقضين اسواقهم فيتحاجون ويتناشدون ويتحادُّون ويتفاضون في فداء الأسرى. وهذه الأسواق كانت تقوم لهم طوال السنة فيحضرها من قَرُبَ من العرب ومن بعد. ولا معقل لهم إلا السيف ولا حصون لهم إلا الخيل ولا فخر إلا بالأريحية والبلاغة.

قال غَيلان بن خرشة حدثني عمي قال: توالت على العرب سنونٌ سبعٌ في الجاهلية اهلكت كل شيء. فخرجت على بكر لي في العرب. فمكثتُ سبعا لا اذوق فيهن شيئا الا ما ينال بعيري من حشرات الأرض. حتى دنوت الى حواء عظيم فاذا ببيت جحش عن الحي. فملت اليه. فخرجت إلي امرأة طُواله حسَّانة فقالت: من؟ قلت: طارق ليل يلتمس القرى.. فقالت: "لو كان عندنا شيء آثرناك به. والدال على الخير كفاعله. جس هذه البيوت فانظر الى اعظمها. فان بك في شيء منها خير ففيه". ففعلت حتى دنوت اليه. فرحب بي صاحبه وقال: مَن؟ قلت: طارق ليل يلتمس القرى.. فنادى: يا فلان. فأجابه. فقال له: هل عندك من طعام؟ قال: لا. (فقال غيلان بن خرشة ان عمه قال: فوالله ما وقد في اذني شيء كان اشد علي منَّه).

"ثم قال الرجل: هل عندك من شراب؟ قال: لا. فتأوه وقال: قد ابقينا في ضرع الناقة الفلانية شيئا لطارق ان طرق. فأت به".

ثم قال غيلان بن حرشة: فحدثني عمي الذي شهد فتح اصفهان وكور الأهواز وفارس وقد كثر ماله. فقال: "فما سمعت شيئا قط كان ألذ إلي من شَخَب ضرع تلك الناقة في تلك العلبة. حتى اذا ملأها وفاضت من جوانبها وارتفعت عليها رغوة كجمة

الشيخ اقبل بها نحوي. فعثر بعود او حجر. فسقطت العلبة من يده. فقال غيلان ان عمي حدثني انه اصيب بأبيه وامه فما اصيب بمصيبة اعظم عليه من ذهاب العلبة. وقال فلما رآني رب البيت كذلك خرج شاهرا سيفه فنحر اعظم نياقة سناما. ثم اوقد نارا ووضع سنامها فيها ودفع الي مدية وقال: يا عبد الله اصطل واجتمل. فجعلت اهوى بالبضعة الى النار. فاذا بلغت إناها اكلتها. ثم مسحت مافي يدي من اهالتها على جلدي وكان قد قمل على عظمي حتى كأنه شِنٌّ. ثم شربت ماء وخررت مغشيا عليَّ. فما افقت الى السحر".

ومن طريف ما يروى في هذه المناسبة ان امرأة جاءت الى الليث بن سعد وفي يدها قدح. فسألت عسلا. فأمر لها بداوية عسل. فقيل له: يا أبا الحارث. انما تسأل قدحا. قال: سألت على قدرها. ونعطيها على قدرنا. وعندما خرج يزيد بن المهلب بن ابي صفرة من سجن عمر بن عبد العزيز مرَّ بعجوز اعرابية. فذبحت له عنزا. فقال لأبنه: ما معك من النفقة؟ قال: مئة دينار. قال: ادفعها اليها. فتردد الأبن وقال: هذه العجوز يرضيها اليسير. وهي لا تعرفك. فنهره ابوه وقال ان كان يرضيها اليسير فانا لا ارضى إلا بالكثير. وان كانت لا تعرفني فانا اعرف نفسي. ادفعها اليها. فدفعها اليها.

ومن تواضع العرب ولين طباعهم انه كان يؤذن للناس في كاف المخاطبة وتاء المواجهة لكي يتخلصوا من مزاحمة الكتابة ومضايقة التعريض. فكان يقال للخليفة: اعزك الله. واصلحك الله. وما عاب هذا احد. ولا أنف منه حسيب ولا نسيب. ولا اباه كبير ولا شريف. وقالوا في هذا الباب "ما تعاظم احد على من دونه الا بقدر ما تصاغر لمن فوقه". لذلك قال ابن السماك للرشيد ((وقد عجب من رقته وحسن اصاخته لموعظته وبليغ قبوله لقوله)): "يا امير المؤمنين.. لتواضعك في شرفك اشرف من شرفك". وكتب الجاحظ في رسالته الموسومة" في النبل والتنبل وذم الكبر" العبارات الطريفة التالية: "ولا يكون المرء نبيلا حتى يكون نبيل الرأي: نبيل اللفظ: نبيل الخلق: نبيل المنظر: بعيد المذهب في التنزه: طاهر الثوب من الفحش... ومن حقوق النبل ان يتواضع لمن هو دونك

وتنصف من هو مثلك ولا تستكين لمن هو فوقك... والنبيل لا يتنَّبل. كما ان الفصيح لا يتفصَّح... ولم تر العيون ولا سمعت الاذان ولا توهمت العقول عملا اجتباه ذو عقل بأوبأ مغبة ولا انكر عاقبة ولا ادعي لمقت الناس من التكبر في غير موضعه والتنبل في كنهه... ولو كان في الكبر فضيلة وفي التيه مرؤة لما رغب عنه بنو هاشم ولكان عبد المطلب اولى الناس به منه بالغاية واحقهم بأقصى النهاية. ولو كان محمود العاجل ومرجَّو الاجل وكان من اسباب السيادة ومن حقوق الرياسة لبادر اليه سيد بني تميم وهو الأحنف بن قيس. ولشح عليه سيد بكر بن وائل وهو كليب بن ربيعة. ولاستولى عليه سيد الأزد وهو المهلب". ومع ذلك وربما بسببه فان الجاحظ يقول في رسالته المسماة "المعاش والمعاد" التي وجهها الى الوليد محمد بن احمد بن ابي دؤاد عند استيزاره: "واعلم ان نشر محاسنك لا يليق بك ولا يقبل منك إلا اذا كان القول لها على السن اهل المرؤات وذوي الصدق والوفاء... فأنما ثناء المادحين لك في وجهك فأما تلك اسواق اقاموها للأرباح وساهلوك في المبايعة. ولم يكن في الثناء عليهم كلفة ولكساد اقاويلهم عند الناس".

وقضية المدح والقدح او الثناء والهجاء في شعر العرب ونثرهم قضية شائكة ومعقدة سنتحدث عنها بأقصى حد من الأيجاز والتركيز في مكان آخر من هذا الكتاب. ويكفي هنا ان نشير الى ان انفع المدائح للمادح واجداها على الممدوح وابقاها اثرا واحسنها ذكرا ان يكون المديح صادقا وللظاهر من حال الممدوح موافقا وبه لائقا كما سنرى في حالة مدح الشعراء عمر بن عبد العزيز وفي حالة مدح ابي الطيب المتنبي سيف الدولة (مع ما في ذلك من مبالغة وصور شعرية انيقة). ولابد من القول هنا ان لكل شخص -مادحا كان ام ممدوحا- نصيبا من النقص ومقدارا من الذنوب. وانما تتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوئ. فأما الأشتمال على جميع المحاسن والسلامة من جميع المساوئ- دقيقها وجليلها وظاهرها وخفيها- فهذا لا يعرف.

وقديما قيل:

أخٌ لــي كأيــام الحيــاة إخــاؤه

تلــون الرنــا علــيّ خطوبهــا

اذا عبــتُ خِلــة فتركتــه

دعــتني اليــه خلــةٌ لا اعيبهــا

مما لا شك فيه ان لمنزلة الشعر عند العرب اسبابا وعوامل موضوعية حتمية الحدوث: ابرزها كون الشعر اداة ايديولوجية حادة في المدح والقدح. وللشعر ايضا متعة سايكولوجية واضحة من ناحية جرسه الموسيقي وايقاعه. وهو ايضا مصدر مهم من مصادر التاريخ -فقد حفظ للعرب مآثرها واخبارها وايامها ونوادرها ومكارمها. والشعر ايضا منبع ثر من منابع اللغة العربية. وكانت القبيلة اذا نبغ فيها شاعر اتت القبائل المجاورة تهنؤها. وكانت الولائم تقام وينتشر الفرح بين افرادها وتجتمع النساء يلعبن بالمزامير كما يفعلن في مواسم الأعراس ويتباشر الرجال والولدان في تلك المناسبة السعيدة. فالشاعر يدافع عن اعراضهم ويذب عن احسابهم ويخلد مآثرهم ويشيد بمكارمهم ويقف بالمرصاد لخصومهم ولما تنافر عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثه عند هرم بن سنان اقاما عنده سنة لا يقضي لأحدهما على الاخر تحاميا للفتنة واثارة البغضاء. وعندما قدم الأعشى -وكانت لعامر عنده بد- امتدحه وعرض بأبن علاثة-دون وجه حق-. فروى الناس شعره وتفرقوا بعد ان نفر عامر على ابن علاثة لشعر الأعشى. وقضية بني "انف الناقة" و"المحلق" و"بني نمير" وما يجري هذا المجرى معروفة ومشهورة.

ولما توفي عكرمة مولى عبد الله بن عباس وكان من ابرز الفقهاء والمحدثين وكان موته وموت كثير الشاعر في يوم واحد. فوضعا جميعا وصلي عليهما. قال الرياشي: حدثنا ابن سلام ان اكثر الناس كانوا في جنازة كثير. وقال هشام الخزاعي كنا بالرقة مع

هارون الرشيد. فكتب اليه صاحب الخبر بموت الكسائي والعباس بن الأحنف في وقت واحد. فقال الرشيد لابنه المأمون أخرج فصل عليهما. فخرج المأمون في جنده وقواده واهل خاصته.

فقيل للمأمون: من نقّدم؟ فقدم العباس بن الاحنف. وقد عرف ابن الاحنف بالغزل دون سواه من الشعر ولم يمدح احدا من الخلفاء وكان الكسائي امام الكوفيين في النحو وأحد القراء السبعة المشهورين ومؤدب الأمين والمأمون واثيرا عند الرشيد. وعندما امتدح نصيب عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وأمر له بأبل وثياب ودنانير ودراهم قيل له: اتعطي هذا العبد الأسود هذا العطاء.. قال: ان كان اسود فأن شعره ابيض. وان كان عبدا فأن ثناءه، حر. وقد استحق بما قال اكثر مما اعطي. وهل اعطيناه الا ثيابا تبلى.. ومالا يفنى.. ومطايا تنضا.. واعطانا شعرا يروى وثناء يبقى.

وروى خالد الكاتب عن ابيه انه قال: جاءني رسول الخليفة. فسرت اليه. فقال انشدني من اجود شعرك. فأنشدته:

رأت منه عيني منظرين كما رأتْ

من الشمس والبدر المنير على الأرضِ

عشية حياني بورد كأنه

خدود أضيفتْ بعضهن الى بعض

ونازعني كأسا كأن حبابها

دموعي لما صد عن مقلتي غمضي

وراح وفعل الراحِ في حركاته

كفعل نسيم الفجر في الغصن الغضِّ

فزحف الخليفة حتى انحدر من فراشه واستخف طربا. واجازني. وذكر ابن شهاب الزهري ان يزيد بن عبد الملك بن مروان دعاه يوما في الهزيع الأخير من الليل. قال: فأتيته فزعا وقد لبست كفني. فسلمت عليه فرد علي السلام وادناني منه. فشممت رائحة الحياة. فقال لي لمن هذان البيتان:

اذا رمتُ عنها سلوة قال شافعٌ

من الحب ميعاد السلو المقابر

ستبقى لها في مضمر القلب والحشا

سريرة حبّ يوم تبلى السرائر

قلت للأحوص. فقال: ما فعل الله فيه؟ قلت هو في سجنك، فامر بأطلاقه واجازه واجازتي.

وقال مروان بن ابي حفصة: خرجتُ أُريد معن بن زائدة. فضمنّي الطريقُ وأعرابيا. فسألته: اين تريد؟ قال: هذا الملك الشيباني فقلت له: فما أهديت اليه؟ قال: بيتين. فقلت: فقط؟ قال: اني جمعت فيهما ما يسره. فقلت هاتهما. فأنشدني:

مَعنُ بن زائدة الذي زيدتْ به

شرفا على شرف بنو شيبان

إن عَدَّ ايام الفعال فأنّما

يوماه يومٌ نَدى ويومُ طعان

قال مروان بن حفصة: وكانت لي قصيدة حِكْتُها بهذا الوزن. فقلت للأعرابي: تأتي رجلا قد كَثُرتْ غاشية وكثر الشعراء ببابه. فمتى تصل اليه؟ تأخذ مني ما املت بهذين البيتين وتنصرف الى حالك. قال: فكم تبذل؟ قلت خمسين درهما. فقال: ما كنت فاعلا ولا بالضعف. قال مروان فلم ازل به حتى بذلت له مئة وعشرين درهما. فأخذها وانصرف.

فقلت له: اني أصدقك. قال: الصدق بك احسن. فقلت: اني قد حكت قافية توازن هذا الشعر. واني اريد ان اضم هذين البيتين اليها. فقال: سبحان الله.. لقد خفت امرا لا يبلغك ابدا. ثم مضى. واتيت معن بن زائدة. وجعلت البيتين في وسط الشعر. وانشدته. فوالله ما هو الا ان بلغت البيتين فسمعهما فما تمالك ان خر من فرشه حتى التصق بالأرض. ثم قال: أعد البيتين. فأعدتهما. فنادى: يا غلام أئتني بكيس فيه الف دينار. فما كان الا لفظه وكيسه. فقال للغلام صبها على رأسه. ثم قال له: هاتِ عشرين ثوبا من خالصِ كسوتي ودابتي الكذا ونعلي قال مروان: فانصرفت بحباء الأعرابي لا بحباء معن.

ووفد ابو نواس على الخصيب بمصر فأذن له بالأنشاد وعنده الشعراء. فانشد الشعراء اشعارهم فلما فرغوا قال ابو نواس سأنشد قصيدة هي كعصا موسى تلقف ما صنعوا. قال الخصيب: انشد. فانشده قصيدته التي جاء فيها:

اذا لم تَزُر ارضَ الخصيب ركابنا
فأيُّ فتى غير الخصيبِ نزور

فاهتز الخصيب طربا وامر له بألف دينار. ومن طريف ما يروى -في هذا الصدد- ان المؤمل بن اميل قال: قدمت على المهدي- بالرَّي وهو يومذاك ولي عهد- فامتدحته بأبيات فأمر لي بعشرين الف درهم. فكتب صاحب البريد الى ابي جعفر المنصور -وهو في مدينة السلام- يخبره ان المهدي امر لشاعر بعشرين الف درهم. فكتب المنصور الى ابنه المهدي يعذله ويلومه. وكتب الى كاتب المهدي ان يوجِّه اليه بي. فطلبني فلم يظفُر بي. فكتب الى المنصور ان الشاعر توَّجه الى مدينة السلام. فأجلس المنصور قائدا من قواده على جسر النهروان وامره ان يتصفح الناس حتى اذا علق بي حملني اليه. فلما مرت القافلة التي انا بها بالقائد تفحَّصها فوقع بصره عليَّ فسألني من انت؟ قلت: المؤمل بن أميل المحاربي الشاعر احد زوار الأمير المهدي. قال: اياك طلبتُ. فكاد قلبي ان يتصدَّع خوفا من الخليفة. فقبض عليَّ واسلمني الى الربيع مولى المنصور. فأدخلني على المنصور.

فسلمّتُ تسليم مروَّع. فردَّ عليَّ السلام. قال: ليس ههنا الا الخير. انت المؤمل بن أميل؟ قلت نعم. أَصلح الله امير المؤمنين. فقال: اتيت غلاما غِرًّا فَخَدعتَه حتى اعطاك من مال الله عشرين الف درهم.. قلت نعم يا امير المؤمنين. اتيتُ غلاما غرا كريما فخدعته حتى اعطاني من مال الله عشرين الف درهم. قال المؤمل: فكأن كلامي هذا اعجبه. فقال لي: انشدني ما قلت فيه. فأنشدته. فقال: والله لقد احسنت. ولكن هذا لا يساوي عشرين الف درهم. فأين المال؟ قلت: هو ذا يا أمير المؤمنين. فقال للربيع امض معه فأعطه اربعة آلاف درهم وخذ الباقي. فلما ولي المهدي الخلافة رفعت اليه رقعة فلما قرأها تبسم وامر برد العشرين الف درهم إليَّ.

وقيل ان بشْر بن مروان كان مرة في عسكر له خارج مدينة البصرة وكان الجنود يتسللون الى مدينة البصرة لأغراض اللهو. فنادى منادي بِشْر: من شوهد في البصرة سمرت يداه. وكان احد الجنود يهوى فتاة فامتنع من زيارتها. فكتبت اليه تعاتبه بأبيات رقيقة وتستدرجه للقائها. فخرج اليها ليلا. فقبض عليه العسَس. وجيء به الى بشر فقال له بشر: أما سمعت النداء؟ قال: بلى ايها الأمير. فقال بشر: فما حملك على مخالفته؟ قال: هذه الأبيات ودفعها اليه. فلما قرأها بشر استحسنها فاطلق سراحه وامر مناديه ان ينادي في الجيش: من أحب النزول الى البصرة فليفعل.

وعندما بويع لأبي جعفر المنصور بالخلافة دخل اليه الشعراء وفيهم طريح بن اسماعيل الثقفي وأبن ميَّادة. فأذن لهم في الأنشاد فأنشدوه من وراء حِجاب. حتى اقبل ابن هَرْمَة في آخرهم فأنشده. فما بلغ الى قوله:

اليك أميرَ المؤمنينَ تجاوزت
بنابيْدَ أجوارَ الغلاة الرواحلُ

يَزُرنَ أمرأ لا يُصلح القومُ امره
ولا ينتْحي الأدنَون فيما يحاول

اذا ما اتـى شيئا مَضَى كالـذي اتـى
وان قـال إنـي فاعـلٌ فهـو فاعـل

كـريمٌ لـه وجهان وجـهُ لـدى الرضَا
أسيلُ ووجـهٌ في الكريهـة باسـل

لـه لحَظَـاتٌ عـن جفـانِ سَريرة
اذا كرَّهـا فيهـا عقـابٌ ونائـل

فَـأم الـذي أمنـت آمنـة الـردى
وأم الـذي حاولـت بالثكـل ثاكـل

فلما بلغ ابن هَرمة الى ذلك امر المنصور برفع الحجاب. فلما انتهى من الأنشاد قال له المنصور: سَلْ حاجتك. قال: يا امير المؤمنين تكتب الى عامل المدينة ان لا يحدُنَّي في الخمر اذا أتي بي اليه وانا سكران. فقال المنصورة ويحك.. هذا حد من حدود اللـه مـا كنت لأعطله.. فقال ابن هرمة: فاحتلْه لي يا أمير المؤمنين. فكتب المنصور الى عامل المدينة: "من اتاك بابن هرمة سكران فأجلده مئة جلدة. واجلد ابن هرمة ثمانين جلدة. فكان الشّرط يمرون بابن هرمة مطروحا في سِكك المدينة فيقولون: "من يشتري ثمانين بمئة... ويجوزونه وابراهيم بن هرمة هذا -مع شاعريته المعترف بها وكونه ايضا يسكن مدينة الرسول الأعظم -كان منهوماً في الخمر شأنه كشأن شعراء من طرازه" آخرين في مختلف الزمان والمكان. ولقد كان هو بالذات "من اصحاب السوابق" بالتعبير الدارج. وقد جلده خيثم بن عِراك صاحب شرطة المدينة لرباح بن عبد الله الحارثي في ولايته اثناء خلافة السفاح.

وقيل ايضا ان رجلا دخل على عبد الملك بن مروان وقد اتُهم بسرقة. فأنشده:

يَـدي يـا أميرَ المـؤمنين اعيذها
بعفـوك مـن عـارٍ عليهـا يُـشينها

فــلا خـيـرَ في الـدنيا ولا في نعيمهـا

اذا مـا شِـمالٌ فارقتهـا يمينهـا

فاستحسن عبد الملك البيتين. ثم قال له: ويحك.. هذا حدٌّ من حدود الله ولابد من اقامته عليك. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: "اجعله ذنبا واستغفر عليه منه: "فقال عبد الملك: خلوا سبيله. وذكر الرواة ان هارون الرشيد طلب علي بن الخليل لاتهامه بالزندقة. فاستتر عليّ طويلا. ثم قصد الرِّقةَّ وبها الرشيد. فلما قَعَدَ الرشيد للمظالم بالرقة حضر شيخ حسن الهيئة ومعه قصيدة. فأشار بها. فأمر الرشيد باخذها منه. فقال: يا أمير المؤمنين انا أحسن قراءة لها من غيري. فأذن له بقراءتها -وهي طويلة- ورد فيها:

يــا خـيرَ مَـن وَخَـدَتْ بأرجلـه

نُجْبُ الرّكـابِ بمهمـةٍ خلّـسِ

خـيرُ الخلائـف انـت كلِّهـمُ

في يومـك الآتـي وفي امـسي

انـي رَحلـتُ اليـك مـن فـزع

كـأن التوكـل عنـده ترسـي

فقال له الرشيد: مَن انت ايها الشيخ؟ قال: علي بن الخليل الذي يقال انه زنديق. فقال الرشيد: انت آمن واجازه وكتب الى حمدون ألا يعرض له.

قال حماد الراوية: كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك بن مروان في خلافته قد اثار حفيظة شقيقه هشام. فأخذ هذا يجفوني لذلك. فلما مات يزيد وأفضت الخلافة الى هشام خُفتُه. ومكثتُ في بيتي سنة لا اخرج الا لمن اثق به من اخواني سرًّا. فلما لم اسمع احدا ذكرني في السنة امنتُ. وخرجت وصليتُ الجمعة في الرصافة. فاذا شرطيان قد وقفا علي وقالا "يا حماد اجب الأمير يوسف بن عمر الثقفي" وكان واليا على العراق. فقلت في

نفسي: مِن هذا كنت أخاف. ثم قلت لهما: تدعاني حتى آتي اهلي واودعهم ثم اسير معكما. فقالا: ما الى ذلك من سبيل. فاستسلمت في ايديهما. ثم صرت الى يوسف بن عمر وهو في الأيوان الأحمر. فسلمتُ عليه. فرد علي السلام ورمى اليَّ بكتاب فيه من هشام بن عبد الملك الى يوسف بن عمر. أما بعْدُ: فاذا قرأت كتابي هذا فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ترويع. وادفع له خمسمائة دينار وجملا مُهريا يسير عليه الى دمشق. فأخذت الدنانير. ونظرت فاذا جمل مرحول. فركبت وسرت حتى وافيت دمشق. فنزلت على باب هشام. واستأذنت. فأذن لي. فدخلت عليه وهو جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب من حرير احمر وقد ضمخَّ بالمسك. فسلمت عليه. فرد علي السلام. واستدناني. فدنوت منه حتى قبلت رجله. فقال لي: اتدري فيما بعثت اليك؟ فقلت لا. قال: بعثت اليك بسبب بيت خطر ببالي لا اعرف قائله. قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال:

ودعوا بالصَّبوح يوما فجاءت

قينة في يمينها إبريق

فقلت هذا البيت لعديّ بن زيد العبادي في قصيدة. فقال انشدنيها.

فأنشدته:

بُكَّرَ العاذلون في وَضَح الصُّبح

يقولون لي أما تستفيق

ويلومون فيكِ يا ابنَة عبد الله

والقلبُ عندكم موثوق

لستُ ادري اذا كثُر العذْلُ فيها

أعذولٌ يلومني ام صديق

ودعــوا بالـــصبَّوح يومـــا فجـاءت

قينـــــةٌ في يمينهـــــا إبريـــــق

قدمتــه علــى عقــار كعيــن الــ

ديـــك ســـلافها الـــــراووق

مُـــرَّة قبــل مزجهــا فــاذا مـــا

مُزجـــت لـــذَ طَعمهـــا مَـــن يـــذوق

وذكر يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني قال ارسل الي الرشيد يومـا في وقـت لا يُرسـل فيه إلى مثلْي ابدا. فأتيته لابسا سلاحي مستعدا لأمر إن اراده. فلما رآني ضحك. ثم قال: يا يزيد اخبرني من الذي يقول فيك:

لا يَعبِــقُ الطيـــبُ خَدَّيـــه ومفرقـــه

ولا يمــــسحُ عينيـــه مـــنَ الكحــلِ

فقلت: لا اعرفه يا امير المؤمنين. قال: سوْةً لك من سيد قوم يُمدح بهـذا الـشعر ولا يعرف قائله.. وقد بلغ امير المؤمنين.. "قال يزيد فانصرفت خجلا ثـم علمـت ان قائلـه مسلم بن الوليد. وقد سألت يوما الحاجب فقلت له: مـن بالبـاب مـن الـشعراء؟ قـال: مسلم بن الوليد فقلت: وكيف حجبته عني؟ قال: اخبرتُه أنك مضيق وانه لـيس في يـديك شيءُ تعطيه اياه. وسألته الأمساك والمقام اياما الى ان تتسع. فقال يزيد: فـأنكرت عليـه ذلك. وامرت بادخاله فورا واجزته".

وذكروا ايضا انه جيء الى المصعب بن الزبير برجل مـن اصحاب المختـار بـن عبيـد الثقفي بعد قتله. فأمر المصعب بضرب عنقه. فقال الرجل: " ما اقبح بك ايهـا الأمـير ان اقوم يوم القيمة الى صورتك الجميلة هذه ووجهك الحسن الذي يستضاء به فـأتعلق بـك ثم اقول: يا رب سل مصعبا فيم قتلني.." ثم انشده ابياتا لعبيد الله بن قيس الرقيات:

إنمـــا مُـــصعبٌ شـــهابٌ مـــن الله

بـــه تجلـــت عـــن وجهـــه الظلمـــاء

مُلْكُـــهُ ملـــك رحمـــةٍ لـــيس فيـــه

جـــبروتَ منـــــه ولا كبريـــــاء

يتقـــي الله في الأمـــور وقـــد أفـــ

لحَ مـــن كـــان هَمـــه الأتقـــاء

فقال: مصعب قد عفوت عنك واجزل عطاءه. وقال يحيى بن عروة بن اذينـة: أضاق ابي إضاقة شديدة وتعذَّرت عليه الأمور. فعمل شعرا امتدح به هشام بن عبد الملك بن مروان. ودخل اليه في جملة شعراء. فقال لـه هـشام انـشدني قولـك: "ولقـد علمـت". فأنشده:

ولقد علمتُ وما الأسراف من خلقي

ان الـذي هـو رزقـي سـوف يـأتيني

لا أركـب الأمـر تـزري بـي عواقبُـه

ولا يُعـاب بـه عرضـي ولا ديـني

أقـوْم بـالأمر إمّـا كـانَ مـن اربـي

واكثـر الـصمت فيمـا لـيس يعنـيني

كـم مـن فقير غـنيٍّ الـنفس نَعرفـه

ومـن غـني فقـير الـنفس مـسكين

لا ابتغـي وصّـل مَـن يبغـي مفـارقتي

ولا ألـينُ لمـن لا يبتغـي لـيني

فلما فرغ من الأنشاد قال له هشام: احسنت والله واجدتَ. ثم خاطبه مازحا "الا جلستَ في بيتك حتى يأتيك رزقك.." قال يحيى بن عروة بن اذينة:

"ثم غفل عنه هشام." مع استحسانه الأبيات ورغبته الأكيدة في ان يسمع ما جاء به من شعر فيجيزه عليه. فخرج من وقته وركب راحلته مضى منصرفا. فأفتقده هشام وسأل عنه. فلما عَرَف خبره اتبعه بجائزة. وقيل ان الفرزدق علم ان امرأة لاذت بقبر ابيه بكاظمة. فسأل عن امرها فقيل له ان ابنا لها في حبس تميم بن يزيد عامل الحجاج على السند. فوجه الفرزدق الى تميم رجلا وكتب معه ابياتا منها:

أتتني فعاذتْ يا تميمُ بغالبٍ
وبالحفرةِ السافي عليه ترابُها
فَخَلِّ حنيا واتخذ فيه منة
لحوبة أم ما يسوعْ شرابها

فلم يدرِ تميم احبيس اسم ولدها ام حُبيش. فأطلقهم جميعا من السجن.

وقيل ان داود بن حاتم المهَّلبي كان يجلس للشعراء في السنة مجلسا واحدا فيقصدونه بذلك اليوم وينشدونه: فوجّه اليه مسلم بن الوليد راويته لشعره. فقدمَ هذا عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقه بعقب خروجهم عنه. فتقدّم الى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه ثم قال له: استأذن لي على الأمير. قال الحاجب: ومن انت؟ قال: شاعر. فقال الحاجب قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء والأمير على القيام. فقال للحاجب: ويحك. قد وفدْتُ على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله. فقال له الحاجب -وكان فيه ادب يفهم به ما يسمع- هات حتى اسمع فان كان الأمر كما ذكرت اوصلتك اليه. فأنشده بعض القصيدة. فاستحسنه وادخله على الأمير. فلما مثل بين يديه سلم وقال: قدمت على الأمير -اعزّه الله- يمدح بسمعه فيعلم به تقدمي على غيري ممن امتدحه. قال داود: هات. فلما بدأ بالأنشاد استوى داود جالسا واطرق حتى انتهى المنشد الى آخر الشعر. ثم رفع

رأسه اليه وقال: اهذا شعرك؟ قال: قلت نعم اعز الله الامير. قال الأمير: في كم قلته يا فتى؟ فقلت في اربعة اشهر ابقاك الله. قال: لو قلته في ثمانية اشهر لكنت محسنا. وقد اتهمتك لجودة شعرك وخمول ذكرك. فان كنت قائل هذا الشعر فقد انظرتك اربعة اشهر في قول مثله وامرت بالأجراء عليك. فأن جئتنا بمثل هذا الشعر وهبتُ لك مئة الف درهم والا حرمتك. فقلت: او الأقالة اعزَّ الله الأمير. قال: قد اقلتك. فقلت: الشعر لمسلم بن الوليد وانا راويته والوافد عليك بشعره. فقال: انا ابن حاتم.. انك لما افتتحت شعرك فكأنني سمعت كلام مسلم بن الوليد يناديني فأجبت النداء واستويت جالسا. ثم قال: يا غلام اعطه عشرة آلاف درهم واحمل الساعة الى مسلم مئة الف درهم.

قيل: لما أَوقعَ ابو عِصْمَةَ بأهل ديار بكر اوفدتْ ربيعة وفدا الى هارون الرشيد فيهم منصور النمَّريّ. فلما صاروا بباب الرشيد امرهم باختيار من يدخل عليه. فاختاروا رجلين احدهما النمَّري. فدخلا عليه ليسألا حوائج الوفد. وكان النمَّري مؤدبا لم يسمع منه شعر قطُّ قبل ذلك ولا عُرف به. فلما مثل هو وصاحبه بين يدي الرشيد قال لهما: قولا ما تريدان. فاندفع النمَّري فأنشد:

ما تنقصني حسرةٌ منى ولا جزعُ

اذا ذكرتُ شبابا ليس يرتجع

فقال له الرشيد: قل حاجتك واعرض عن هذا. فاستمر النمَّري بالأنشاد حتى بلغ الى قوله:

رَكْب من النمَّر عاذوا بأبن عمهم

من هاشم اذ الَّح الأزلُم الجَذَعُ

متوا اليك بقربي منك تعرفها

لهم بها من سنام المجد مُطَّلَع

إنَّ المكــــارمَ والمعـــروف أَوديـــةٌ

أَحلّـــكَ الله منهـــا حيـــثُ تجتمـــع

فقال الرشيد –رغم استحسانه الأبيات واهتزازه لها طربا –قل حاكم واترك هذا.

فقال:

اذا ذكــرت شــباب لــيس يُرتجــع

فأصغى الرشيد باهتمام لأنشاده الى ان بلغ الى قوله:

اذا رفعْــتَ امــرا فــأنَ الله رافعُــه

ومَــنْ وَضــعتَ مــن الأقــوامُ متــضَّع

نفــسي فِــداؤك والأبطــال مُعلمــة

يــومَ الــوغَى والمنايــا بيــنهم قُــرِع

حتى اتى على القصيدة كلها –وهي طويلة– ثم قال:

"يا أمير المؤمنين أخربت الديار وأخذت الأموال وهتك الحُرم". فقال الرشيد: اكتبوا له بكل ما يريد وامر له بثلاثين الف درهم.

ومن طريف ما يروى ان المهدي كسا ابا دلامة ساجا. فأخذَ به يوما وهو سكران. فأتي به المهدي. فأمر المهدي بتمزيق الساج عليه وان يحبس في بيت الدَّجاج. فلما كان بعض الليل وصحا ابو دلامة من سكره ورأى نفسه بين الدّجاج صاح بأعلى صوته: يا صاحب البيت.. فاستجاب له السّجان وقال له: ما بالك يا عدو الله؟ قال ابو دلامة: ويحك.. من أدخلني مع الدجاج؟ قال: أعمالك الخبيثة. أتي بك امير المؤمنين وانت سكران فأمر بتمزيق ساجك وحبسك مع الدجاج. فقال ابو دلامة: ويلك.. اوقد لي سراجا وجئني بدواة وورق فكتب الى المهدي:

أمِـــنْ صَـــهباءَ صـــافيةِ المِـــزاجِ
كـــأنّ شُـــعاعها لَهَـــبَ الـــسّراج

تَهُـــشُّ لهـــا النفـــوسُ وتـــشتهيها
اذا بـــرزت ترقـــرق في الزجـــاج

أمـــير المـــؤمنين فـــدتك نفـــسي
عـــلامَ حبـــستني وخَرقْـــتَ ســـاجي

أقـــاد الى الـــسجون بغـــير ذنـــب
كـــأنّي بعـــض عمّـــال الخَـــراج

ولـــو معهـــم حبـــستُ لهـــانَ امـــري
ولكـــنني حبـــستُ مـــع الـــدّجاج

دجاجـــاتٌ يطيـــفُ بهـــنَّ ديـــكٌ
ينـــادي بالـــصياح اذا يُنـــاجي

لقـــد كانـــت تُخبِّرنـــي ذنـــوبي
بـــأنيِّ مـــن عـــذابك غـــيرُ نـــاج

علـــى أنـــي وإنْ لاقيـــت شَّـــرا
لِخـــيرِكَ بَعْـــدَ ذاك الـــشَّرِ راج

فأستظرف المهدي الأبيات وامر بأطلاق سراحه. وعُزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الله عن الأردن وحلقه واقامه للناس وقال للموكلين به: من اتاه متوجعا او اثنى عليه فأتوني به. فأتاهْ عَدِيُّ بن الرقّاع -وكان عبيدة محسنا له- فأنشده من قصيدة:

وما عزلـــوك مـــسبوقا ولكـــنْ

الى الغايــــات ســـبَّاقا جَـــوادا

فذهب الموكلون بعُبيدة على الشاعر فأدخلوه الى الوليد واخبروه بمـا جرى. فتغّيظ الوليد وقال بغضب: اتمدح رجلا قد فعلتُ به ما فعلتُ؟ قال: يـا أمـير المـؤمنين.. اسمع الأبيات. فأنشدها: فاستحسنها الوليد فأجازه وامر بأطلاق سراح عُبيدة. ثم قال عَدِي: يا أمير المؤمنين: انه كان لي محسنا ففي اي وقت كنت اكافئه بعد هذا اليوم؟

قال حمّاد الراوية: كان انقطاعي الى يزيد بن عبد الملك قد أثار امتعاض هشام بن عبد الملك وجعله يجفوني دون سائر اهله من بني مروان. فمكثت في بيتـي سـنة خوفـا مـن هشام عندما افضت الخلافة اليه. لا اخرج من داري الا سرا لمن اثق به. فلمـا لـم اسمع احدا يذكرني امنت فخرجت يوما فصليت الجمعة في جامع الرصافة. فأذا بشرطيين قـد وقفا علي وقالا: يا حماد اجب الأمير يوسف بن عمر. فقلت في نفسي: من هذا كنت احذر. وصرت الى الأمير فرمى الي كتابا فيه من امير المؤمنين هشام بن عبد الملك الى يوسـف بـن عمر... اذا قرأت كتابي فابعث الى حماد الراوية من يأتيك به من غير ان يروَّع. وادفع لـه خمسمائة دينار وابعثه الى دمشق. فوصلت دمشق واسـتأذنت عـلى هـشام. فـأذن لي. فدخلت فسلمت عليه. ورد علي السلام واستدناني. فدنوت منه حتى قبلت رجليه. فقـال: يا حماد من قائل هذا البيت:

ودعـــوا بالـــصبَّوح يومـــا فجـــاءت

قينـــــة في يمينهـــــا إبريـــــق

فقلت: عدي بن يزيد العبادي في قصيدة له. قال: انشدني القصيدة. فأنشدته ايـاهـا. فطرب. وقال: اعد. فاعدت فاستخفه الطرب حتى نزل من فراشه.

-٢-

ذلك هو الوجه الأول (الأيجابي: المشرق) للشعر العربي الذي اعلى منزلته عند الناس. اما الوجه الثاني المغاير (السلبي: البشع) فيتجلّى في الهجاء وبخاصة المقذع السمج الذي هو بنظرنا وصمة عار في جبين الشعر العربي القديم والحديث. فقد اسرف الشعراء (وفي مقدمتهم الفطاحل) في الهجاء وتناولوا اعراض الناس الأحياء والموتى. واصبح من المعتذر العثور على ديوان لشاعر قديم او حديث وهو خلو من الذم (الرخيص احيانا والمديح الأرخص). قال حسّان بن اسحق ان اباه ذكر له عن جده انه قال لمسلم بن الوليد: "ويحك.. اما استحييت من الناس حين هجوت خُزيمة بن حازم.. ولا استحيت منا ونحن اخوالك.. وقد علمتَ اننا نتولاه.. وهو من تَعرف فضلا وجودا.. . فضحك مسلم إبن الوليد وقال: يا ابا اسحق -لغيرك الجهل-: أما تعلم ان الهجاء آخذ بطبع الشاعر.. وهو اجدى عليه من المديح المضرع.. وذكروا: ان مسلمة بن عبد الملك قال يوما لنصيب الشاعر: امدحّت فلانا؟ -يعني رجلا من الأمويين ذكر له اسمه- قال نصيب: كان ذاك- فقال مسلمة: أو حرمك؟ قال: كان ذاك. فقال: أفلا هجرته؟ قال: لم افعل لأني كنت احَّق بالهجاء منه: فقد أضعت مدحي في مثله. انما الناس ثلاثة -يا مسلمة- رجل لم أعرض لسؤاله فما وجه ذمه؟ ورجلٌ سألته فأعطاني فالمدح اولى به من الهجاء. ورجل سألته فحرمني فانه بالهجاء اولى".

ذكر الجاحظ في البيان والتبيين انه: "قد هجي حصْنُ بن حُذَيفة. وهُجي زرارة بن عَدس. وهُجي عبد الله بن جُدعان. وهجي حاجب بن زرارة مع شرفهم وسؤددهم وطاعة القبيلة لهم... ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغزار مع وقع الهجاء. وهذا من ادل كرمها. كما بكى مخارق بن شهاب. وكما بكى علقمة بن علاثة. وكما بكى عبد الله بن جدعان من بيت لخدَّاش بن زهير.

قال ابو حاتم السِّجستاني: كان الأخفش يطعن على شعر بشار. فلما سمع بشار بذلك: قال دعوني اياه. فبلغ ذلك الأخفش فارتاع وقال وقعت بلسان الأعمى. فذهب

اصحابه الى بشار وسألوه ان لا يهجوه. وكان الأخفش بعد ذلك يحتج بشعر بشار ليبلغه ذلك فكيف عنه. ولما اشتد الهجاء بين مسلم بن الوليد وابن قنبر مشى رجال من الأنصار الى مسلم وقالوا له: ويحك.. ما لنا ولك.. قد فضحتنا عندما بدأت تهجوه. ثم توقفت عن ذلك بعد ان مكنته من اعراضنا". ولما تمادى ابن قنبر في هجاء مسلم -وهذا لا يجيبه- توجه نفر من شيوخ الانصار ومعهم قراء بني تميم الى ابن قنبر وطلبوا إليه ان يكف عن هجاء شخص توقف عن اجابته. وذكر ابن سلاَّم الجمحي ان بني تميم قالوا ان شعراءنا بلاء علينا... ينشرون مخازينا ويهجون احياءنا وامواتنا...

وعندما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الأمراء والوجه هابه اهل الكوفة واتقى لسانه السليط الكبير والصغير. وكان الحكم هذا اعرج لا تفارقه العصا. فترك الوقوف بابوابهم وصار يكتب على عصاه حاجته ويبعث مع رسوله فلا يحبس له رسول. ولا يؤخر عنه لقراءة كتاب. ثم تأتيه الحاجة على اكثر ما قدر واوفر ما امل. فقال يحيى بن نوفل:

عصا حكم في الدار اولُ داخل

ونحن عن الأبواب نقصى ونُحَجَبُ

ذكر الرواة ان الحُطيئة قدم المدينة فوقف على عتيبة بن النَّهاس العجلي في عباءة. فلم يعرفه عتيبة. ولم يسلم الحطيئة عليه. وقال له: اعطني. فقال له عتيبة: ما انا في عمل فاعطيك من فضله. وما في مالي فضل على قومي فاعود به اليك. فانصرف الحطيئة مغضبا فقال لعتيبة رجل من قومه: عرضتنا للشر. هذا الحُطيئة. قال عتيبة ردوه. فردوه. فقال له عتيبة: انك لم تسلم تسليم الأسلام. ولا استأنستَ استئناس الجار . ولا رحّبت ترحيب ابن العم. وكتمتنا نفسك كأنك كنت معتلا. قال الحطيئة: هو ذاك. فقال عتيبة: اجلس فلك عندنا ما تحب. ثم سأله: من أشعرُ العرب؟ قال الذي يقول:

ومَن يجعل المعروفَ من دون عِرِضه

يَفْـره ومـن لا يتـق الـشتمَ يـشتمِ

- يعني زهيرا- فقال عتيبة ثم مَن؟

قال الذي يقول:

مِـن يـسأل النـاس يحرمـوه

وسـائلُ الله لا يَخيْـبُ

- يعني عُبيدا- فقال عبيدة: ثم مَن؟ قال: أنا. فقال عتيبة لغلامه اذهب به الى السوق فلا يشيرن الى شيء الا اشتريته له. فمضى معه الى السوق. فعرض عليه الخَزُّ والقزُّ فلم يلتفت الى شيء منه. واشار الى الكرابيس والقطن. فاشترى له منها حاجته. ثم قال الحطيئة: امسك. فقال الرجل: قد امرني أن ابسط يدي بالنفقة. قال الحطيئة لا حاجة بي ان يكون له على قومي يدٌ اعظم من هذه. ثم انشأ يقول في عتيبة:

سُئِلتَ فلم تَبخل ولم تُعط طائلا

فـسَّيان لأذُم عليـك ولا حَمْـدُ

وانت امروءٌ لا الجودُ منك سّجيةٌ

فتُعطي وقد يُعدَى على النائل الوجد

ومن الشائع المعروف ان سبب هجو ابي نواس للهيثم بن عدي ان ابا نواس حضر يوما مجلس الهيثم في حداثته. والهيثم لا يعرفه. فلم يستندمه ولا قربَّه.

فقام ابو نواس مغضبا. فسأل الهيثم عنه فعَّرفوه به. فقال: انا لله.. هذ والله بلية لم اجنها على نفسي. فقوموا بنا اليه نعتذر. فساروا اليه. ودق الهيثم على الباب وتسمى له. فقال ابو نواس: ادخل. فدخل فاذا ابو نواس قاعد يصفي نبيذا له فقال الهيثم -على

قدره ومكانته- المعذرة الى الله تعالى ثم اليك. فما عرفتك وما الذنب الا لك حيث لم تعرفنا نفسك فنقضي حقك ونبلغ الواجب من برِّك. فأظهر ابو نواس قبول المعذرة. فقال الهيثم: استعهدك من قول سبق منك فيَّ. فقال ابو نواس: ما قد مضى فلا حيلة فيه. ولك الأمان مما استأنف. فقال الهيثم: ما الذي مضى؟ جُعلتُ فداك؟ قال ابو نواس: بيت مَرّ وانا فيما رأيت من الغضب. قال الهيثم: فأنشدنيه. فدافعه ابو نواس. فقال الهيثم: فأنشدنيه. فدافعه. فألحَّ عليه فأنشده هجاء مقذعا. فقام الهيثم من عنده. ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات.

لم يقف الهجاء عند الشعراء عند هذا الحد بل امتد الى نيل بعضهم بعضا. قال الفرزدق نجوت من ثلاثة اشياء لا اخاف بعدها شيئا: نجوت من زياد بن ابيه حين طلبني. ونجوتُ من ابي زميلة وقد نذر دمي. وما فاتهما احد طلباه. ونجوت من مهاجاة مسكين الدارمي لأنه لو هجاني اضطرني ان اهدم شطر حسبي لأنه من بحبوحة نسبي واشرف عشيرتي. فكان جرير حينئذ ينتصف مني بيدي ولساني.

ومن طريف ما يروى ان بشاراً كان يعطي ابا الشمقمق مئتي درهم كل عام. فأتى ابو الشمقمق بشاراً مرة وقال: هلم الجزية يا ابا مُعاذ؟ فصرخ بشار في وجهه وقال: ويحك.. أجزيةٌ هي؟. قال ابو الشمقمق: هو ما تسمع. فقال بشار يمازحه: انت افصح مني؟ قال: لا قال: فأعلم مني؟ قال: لا. قال: فأشعر؟ قال: لا. قال: فلم اعطيك؟ قال: لئلا اهجوك. قال: إنْ هجوتني هجوتك. قال ابو الشمقمق: او هكذا.. اسمع.

وانشده ابياتا بذيئة. فأمسك بشار بفمه. ثم دفع اليه مئتي درهم. وقال متضرعا متخاذلا: لا تسمعنَّ منك العباد.

ووقف الفرزدق مرة على ابي الشَّمردل فاستنشده شعرا. فأنشده ابو الشمقمق بيتا. فقال له الفرزدق: لنَتركن هذا البيت او لتتركنُ عِرضَك.. فقال ابو الشمقمق: خذه لا بارك الله لك فيه.

ومن طريف ما ذكر –في هذا الباب- ما حَدَّث به علي بن جبلة الشاعر المعروف بالعكُّرك. قال: جاءني ابو يعقوب الخريمي فقال لي: ان لي اليك حاجة. قلت: وما هي؟ قال: تهجو لي الهيثم بن عدي. فقلت: وما لك انت لا تهجوه؟ وانت شاعر.. فقال: قد حاولت فما جاءني شيء كما اريد. فقال العكوّك: كيف اهجو رجلا لم يتقدم لي منه اساءة.. ولا له الي جُرم يُحفِظني.. فقال ابن جبلة: تقرضني: فأني مليء بالوفاء. قال العكوك: فامهلني اليوم. قال: فمضيت وغدوت عليه فأنشدته ما اراد.

والشعراء لا سيما الفطاحل منهم لا يتورعون في هجاء من سبق لهم ان مدحوه. وقد بلغ ابو الطيب المتنبي القمة في موقفه من كافور. فقد انشده من قصيدة قوله:

انــــتَ اعلـــى مَحلّـــة أن تُهنَّـــا
بمكـــــان في الأرض او في الـــسماءِ
تفـضَحُ الـــشمس كلّمـــا ذرَّتِ الـــشمـ
ـس بـــشمسِ مـــنيرةِ ســـوداء
ان في ثوبــك الـــذي المجـــدُ فيـــه
لـــضياء يـــزري بكـــل ضـــياء
إنمـــا الجلـدُ ملـــبسٌ وابيـــضاض الـــ
نفـــسِ خـــيرٌ مـــن ابيـــضاض القبـــاء

وقال المتنبي ايضا في مدح كافور:

وبحرُ ابـو المسكِ الخَضُّم الـذي لـه
علـــى كـــل بحـــرٍ زَخْـــرةٌ وعبُـــابُ
تجـــاوز قَـــدْرَ المـــدح حتـــى كأنَّـــه
بأحـــسن مـــا يُثنَـــى عليـــه يُعـــاب

وغالبه الأعداءُ ثم عَنَوا له
كما غالبت بيضَ السيوفِ رقاب

واكثرُ ما تَلقى ابا المسك بذلةً
اذا لم يَصُنّ إلاّ الحديدُ ثيابُ

واوسع ما تلقاه صدرا وخلْفَه
ماءٌ وطعنٌ والأمام ضِراب

وأنفذُ ما تلقاهُ حكما اذا قضى
قضاء ملوكُ الأرض منه غضاب

يقود اليه طاعته الناس فضله
ولو لم يَقُدها نائل وعقاب

أيا اسدا في جسمه روُح ضيغم
وكم أسد أرواحُهنّ كلاب

ويا آخذا من دهره حق نفسه
ومثلك يُعطى حقّه ويُهابُ

ولا مَلْكَ إلاَّ انت والمْلكُ فَضلَةٌ
كأنك نَصلٌ فيه وهو قرابُ

وما شئتُ إلاَّ أن أدلَّ عواذلي
على أنَّ رأيي في هواك صواب

وأعلم قوما خالفوني فشرَّقوا
وعزَّبتُ أني قد ظفرتُ وخابوا

جـرى الخِلـفُ إلا فيـكَ أنـك واحـدٌ
وأنـك ليـثٌ والملـوك ذئـاب

وأنـك إنْ قويسْت صَحفَ قـارئُ
ذِئابـا ولم يُخطـئ فقـال ذُبـاب

ومـا كنتُ لـولا انـتَ إلاَّ مهاجرا
لـه كُـلَّ يـوم بلـدةٌ وصِحابُ

ولكنـك الـدنيا إلى حبيبـةٌ
فمـا عنـك لـي إلاَّ اليـك ذهـابُ

وقال ايضا يمدحه:

واخـلاقُ كـانور اذا شئتُ مدحـه
وان لم اشـأ تُملـيَّ علـيَّ واكتُـبُ

ايا المسكِ هل في الكأس فضلٌ انالـه
فـأني أُغنـى منـذ حيـن وتـشرب

أحـنَّ الى اهلـي واهـوى لقـاءهم
وأيـن مـن المشتاق عنقـاء مغـرب

فـأن لم يكـن إلاَّ ابـو المسك او هُـمُ
فأنـكَ أحلـى في فـؤادي واعـذب

ويغنيـك عمـا ينسب النـاس انـه
اليـك تنـاهى المكرمـات وتُنْسَبُ

وتعـذلني فيـك القـوافي وهمتّـي

كـأني بمـدحِ قبـل مـدحك مـذنب

وقال ايضا في مدحه -وهو كثير-:

فـدى لأبـي المسك الكرام فأنهـا

سـوابق خيـل يهتـدينَ بـأدهم

ومَـن مِثْلُ كـافور اذا الخيـلُ احجمتْ

وكـان قليلا من يقـول لهـا اقـدمي

شـديدُ ثَبـات الطـرف والنقـعُ واصـلٌ

الى لهـوات الفـارس المُتَلـثم

فلـولم تكـن في مصر ما سرت نحوهـا

بقلـبٍ المـشوقِ المـستهامِ المتَّـيم

ولا تَبحـثْ خيلـي كـلابُ قبائـل

كـأن بهـا في الليـل حَمـلاتُ دَيلـم

ولـو كنـتُ ادري كـم حيـاتي قَـسمتُها

وصَـيرَّتُ ثلثيهـا انتظـارك فـاعلم

رَضـيتُ بمـا تَرضـى بـه لـي مَحبَّـة

وقُـدتُ اليـك الـنفس قـود المـسلِّم

وقال ايضا يمدحه:

تَرَعـرْع المَلَـكُ الأسـتاذُ مكـتهلا

قبـل اكتهـال اديبـا قبـل تأديـب

يـدبر المُلْـكَ مـن مـصر الى عـدن

الى العـراق فـأرض الـروم فـالنوب

اذا اتتهـا الريـاحُ النّكْـبُ مـن بلـد

فمـا تَهـبُّ بهـا إلاّ بترتيـب

ولا تجاوزهـا شمـس اذا شُـرقت

إلا ومنـه لهـا إذن بتغريـب

يـا أيهـا الملـك الغـاني بتـسمية

في الـشرق والغـرب عـن وصفٍ وتلقيـب

وقال ايضا قي مدحه:

وامـضى سـلاح قَلَّـدَ المـرءُ نفسه

رجـاء ابـي المسك الكـريم وقَـصده

تَـولى الـصبا عنّـي فأخلفـتَ طيبـهُ

ومـا ضـرّني لمـا رأيتـك فقـدهُ

لقـد شَـبَّ في هـذا الزمـان كهولُـه

لـديك وشـابت عنـد غـيرك مُـرده

فـزازك مِنّـي مـن اليـك اشـتياقُه

وفي النـاس إلاّ فيـكَ وَحـدْكَ زُهْـدُهُ

فـأن نِلـتُ مـا أَملـتُ منـك فربمـا

شَـربتُ بمـاءٍ يُعجـز الطـير وِرده

ووعــدكِ فِعلٌ قبــل وَعــد لأنــه
نظــيرُ فِعــال الــصادق القــول وَعــدُه

ثم هجاه فقال:

أمينــا وإخلافــاً وغــدرا وخــسَّة
وجبنــا أشخاصــا لحــث لــي ام مخازيــا

وتُعجــبني رجــلاكَ في النعــل أنــني
رأيتــكُ ذا نعــل اذا كنــتَ حافيــا

وإنّــك لا تــدرى ألونُــك اســودُ
مــن الجهــل أم قــد صــار ابــيض صــافيا

ويــذكرني تخيــيطُ كعبــك شِــقه
ومَــشيُك في ثــوب مــن الزيــد عاريــا

وقال يهجوه ايضا:

مَــن علــمَّ الأسـودَ المخـصَّي مكرمــةً
أقوامــه البــيض أم آبــاؤه الــصِيد

أكلمــا اغتــال عبــدُ الــسؤ ســيّده
او خانــه فلــه في مــصر تمهيــدُ

لا تــشترِ العبــد إلاَّ والعــصا معــه
إن العبيــدَ لأنجــاسُ مناكيــد

مــا يقبضُ المــوتُ نَفْسا مــن نفوسُهُم
إلاّ وفي يــده مــن نَتْنِهــا عــود

لقد كان موقف المتنبي من كافور -في الحالتين المتنافرتين- وما زال وسيبقى موضع نظر. وقد آثرنا ان نقف عنده قبل مواصلة الحديث لأهميته بنظرنا بالنسبة لأبي الطيب نفسه ولكافور وللتاريخ. والذي عندي في هذه المسألة ان المتنبي من حيث هو شاعر فذ (ذو مقومات فسلجية خاصة سأذكرها بعد قليل) كان صادقا في التعبير عن مشاعره الجامحة الأيجابية والسلبية. ولكنه قد لا يكون محقا بمقاييس غيره. (وهذه قضية اخرى لا يعنينا امرها هنا رغم اهميتها). معنى هذا - بعبارة اخرى ان ابا الطيب لم يكن بمستطاعه ان يكون غير ذلك. وقديما قيل:

ومُكلِّفُ الأشياءِ ضَدَّ طباعها

مُطلَّبٌ في الماء جذوة نارِ

لقد كان المتنبي صادقا في التعبير عن مشاعره الحقيقية التي تنطوي على المبالغة في المدح وعلى الأيغال في الذم في اللحظة التي عَبَّر عنها دون خِداع او موارية أو مداجاة. فقد ظن (دون وجه حق من الناحية الموضوعية)- عندما اطنب في مدح كافور في اعقاب مفارقته سيف الدولة على مضض -ان علاقته بكافور ستكون ابدية وانه سيجد عنده ضالته المنشودة ويقضي بذلك على حياة التنقل والترحال. وعندما تلاشت آماله (الذاتية) وانطوت معها مشاعره الأيجابية المرتبطة بها وقف موقفه الآخر. فقد اندفع بمشاعره الأيجابية الجيّاشة نحو كافور كما اندفع بعد ذلك بمشاعره السلبية العنيفة عنه. ولم يكن بمقدوره ان يكون غير ذلك كما سنرى بعد قليل. ولا شك عندي ان كافوراً الذي خلع عليه المتنبي ارقَّ الأوصاف هو غير "كافور" الذي اوسعه المتنبي بعد ذلك ذما ومقتاً. فلدينا اذن -عند المتنبي في حالتيه المتنافرتين -كافوران متنافران لا وجود لهما وجودا متكاملا إلاّ في مشاعر المتنبي المعَّبر عنها في شعره. وهما يختلفان -كل الأختلاف- عن كافور الحقيقي الذي يصوره المؤرخون.

اثبتت الدراسات المعاصرة للجهاز العصبي المركزي (لا سيما الدَّماغ) ان هناك اختلافات كبيرة وكثيرة بين الناس من ناحية انماط اجهزتهم العصبية المركزية.

فبعضهم يتصف جهازه العصبي المركزي بالحماسة (الأندفاع: الطيش) حين تتغلب عنده عملية الأثارة المخية على عملية الكف المخية. فيعتذر عليه بالتعبير الدارج "ان يضبط اعصابه في كثير من الأحيان". وبعض آخر يذهب الى الجهة المغايرة فتتغلب عنده عملية الكف المخية على عملية الأثارة المخية فيتصف بالتخاذل (الأستخذاء: الجبن). وتتوازن عند بعض آخر العمليتان المخيتان فيصبح السلوك متزنا تعبر فيه الأثارة عن نفسها تعبيرا طبيعيا في المواقف التي تستلزمها كما تعبر عملية الكف تعبيرا مماثلا. وينقسم الناس ايضا من ناحية العلاقة بين المخ (الذي هو القسم الأعلى من الدماغ والمسؤول عن عمليات التفكير والمحاكمة والموازنة والأستنباط) وبين الأقسام الدماغية التي تقع تحت المخ (المسؤولة عن المشاعر او العواطف) الى مجموعتين. بعضهم تتغلب عنده القدرة على الموازنة بين الأشياء والمواقف بتؤدة ودقة واتزان. وبعض آخر يذهب الى الجهة المعاكسة حيث تتغلب عنده المشاعر او الأنفعالات او العواطف. ويبدو أن كبار الشعراء والفنانين ينظرون الى الأحداث والأشخاص بمشاعرهم المرهفة الفضفاضة السلبية والأيجابية ويتخذون في اثناء ذلك مواقف ذاتية متنافرة (بنظر غيرهم). وكلما كان الشاعر فذا كلما كانت مشاعره اكثر جموحا في الحالتين. والمتنبي شاعر فذ بدون شك. ومشاعره الجامحة أتعبتهُ واتعبتْ غيره وادت الى مقتله بالشكل المؤلم المعروف. وقد عبَّر ابو الطيب هو نفسه عن ذلك قبل مصرعه المؤلم بمدةٍ وجيزة بقوله:

قُطَعْتُ بسَيري كلَّ يهماء مَفزعِ
وجهت بخيلي كلّ صرْماء بلقع

وصيرت رأي بعد عَزمي رائدي
وخلّفت آراءٌ توالتٍ بمسمعي

ولا أرعوى إلا الى من يؤذُّني
ولا يطّبيني مَنزلٌ غَيرُ صُموع

وقال ايضا -وهو كثير-:

أفيقـا خِمـارُ الهـمّ بَغَّـضني الخمـرا

وسـكري مـن الأيـام جنبَّـي الـسَّكرا

لَبِستُ صروفَ الـدَّهر أخشنَ ملبسي

فَعَّـرفني نابـاً ومزقنَّـي ظفـرا

وفي كُـل لحظٍ لـي ومسمع نغمة

يلاحظـني شـزرا ويوسـعني هُجـرا

ولـي كَبـدُ مـن رأي همهـا النـوى

فتركـبني مـن عَزمهـا المركـب الـوعرا

ومـن كـان عَزمـي بـين جنبيـه حثـه

وُخيَّـلَ طـولْ الأرض في عينـه شـبرا

صـحبْتُ ملـوكَ الأرض مغتبطـا بهـم

وفـارقتُهم مـلآنَ مِـن حَنـق صـدرا

ومن يدري. فلعل ذلك هو احد عوامل خلود ابي الطيب المتنبي الشاعر العربي الفذ... الشاعر الذي تبوأ المركز الأول والأهم -دون منازع- بين الشعراء الذين سبقوه وعاصروه. والذين جاءوا من بعده الى يومنا هذا.

ولعل من المناسب ان نشير هنا -قبل ان نتحدث عن المواقف المتناقضة عند البحتري- ان ابا العلاء المعري (وهو من المعجبين بشعر ابي الطيب المتنبي كما عبر عن ذلك في عنوان شرحه ديوان المتنبي فسماه "معجز احمد" والذي كان يخصُّ المتنبي. وحده بصفة الشاعر" ويسمى سائر الشعراء بأسمائهم) لم يستسغ مواقف ابي الطيب المتناقضة التي تحدثنا عن جانب واحد منها. بل استهجنها ولم يجد تفسيرا لها الا برميه

بالتذبذب. فقد استشهد المعري (رسالة الغفران ص٢٨- ٣٠) ببيتي المتنبي في ذم اهل زمانه بشكل مقذع في قصيدة مدح فيها علياً بن محمد سيار بن مُكرم التميمي وهما:

أذُمّ الى هـــذا الزمـــانِ أهَيْلَــه

فـــأعلمُهم نـــدم وأحـــزمهم وَغْــدُ

واكـــرمهمُ كلــبٌ وابــصرهم عَــم

واســهُرهم فَهــدٌ وأشــجعهم قــرد

"صغرَّهم تصغيرَ تحقير غير تكبير وتقليل غير تكثير. فنفث مصدوراً واظهر ضميرا مستورا. وهو سائغ في مَجاز الشعر. وقائله غير ممنوع من النظم والنثر.

وكيف ادَّعى حقَّ الخلافة غاضبٌ.......

وهجا المستعين بأصناف الأهاجي.

وذكر المرزباني في كتابه الموَّشح رواية عن محمد بن يحيى الصُّولي عن ابي الفياض سوار بن ابي شراعة ان احمد بن طاهر قال:

ما رأيت اقل وفاء من البحتري ولا أسقطَ: رأيته قائما يُنشد احمد بن الخصيب مدحا له فيه. فحلف عليه ليجلسن. ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضب عليه. ثم اوصل له مديحا فيه واخذ له منه مالا فدفعه اليه. ثم نكبَ المستعين احمد بن الخصيب بعد فعله هذا بشهور. فلعهدي قائما ينشد قصيدته في ذم ابن الخصيب التي اولها "لأبن الخصيب الويل..."

وذكر الصولي في "اخبار البحتري" انه سأل عبد الله بن المعتز: اكان البحتري يجسر ان يقول لما قُتل المتوكل في يوم المنتصر قصديته التي جاء فيها:

لَــنِعْمَ الــدَّمُ المــسفوحُ ليلــة جعفــر

هَــرقتْم وجنح الليــل ســودٌ وياجره

اكــان ولــيُّ العهــدِ أضــمر غَــدره

ومــن عجــب ان ولــي العهــد غــادُره

فــلا ملــي الباقــي تــراث الــذي مضــى

ولا حملــتْ ذاك الــدعاء منــابره

فقال ابن المعتز: "انما عمل هذه الأشعار في ايام المعتز يتقرب بها اليه".

وذكر البحتري انه دخل يوما على المعتز بالله وهو محبوس وانشده ابياتا كان قالها في محمد بن يوسف الثغري لما حبس وخاطب المعتز بالله كأنها عملها له في الحال. وهي:

جعِلـت فِـداك الـدهر لـيس بمنفـك

مــن الحاثــات المشـكو والنــازل المُشكي

ومــا هــذه الأيــام إلاَّ منــازلُ

فمــن منــزل رحــب ومــن منــزل ضنــك

وقــد هــذبنك الحادثــات وانمــا

صــفاء الــذهب الأبريــز قبلــك بالســبك

أمــا في رســول الله يوســف اســوة

لمثلــك محبوســا علــى الظَّلــم والأفــك

اقــام جميــل الـصبر في الـسجن بُرهــةً

فــآل بــه الـصبرُ الجميــلُ الى الملُــك

علــى انــه قــد ضيــم في حبــسك العُلــى

واصبــح عــزُّ الــدين في قبــضة الــشرك

فأخذ المعتز بالله الرقعة التي فيها الأبيات واحتفظ بها وقال: ان فرج الله عني قضيت حقك. وعندما خلع المستعين بالله دخلت على المعتز بالله وهو خليفة وانشدته قصيدتي التي هجوت بها المستعين التي اولها:

يجانبنا في الحب من لا نجانبه

ويبعد عنا في الهوى من نقاربه

فأستحسنها واجازني عليها واستعاد بعض ابياتها. ثم تذكرت الرقعة التي كنت انشدته الشعر الذي كان فيها فقال: قد امرت لك بكل بيت منها بألف دينار. وكانت ستة ابيات. فأخذت ستة آلاف دينار".

وعن ابي الفرج الأصبهاني قال حدثني ابو الفضل العباس بن احمد بن محمد بن ثوابة قال: قَدم البحتري النِّيل على احمد بن علي الأسكافي مادحا له. فلم يثبه ثوابا برضاه بعد أن طال مكثه عنده. فهجاه بقصيدتين جمع في القصيدة الثانية -الى هجائه اياه- هجاء ابن ابي ثوابة. فبلغ ذلك ابن ثوابة فبعث الى البحتري بألف درهم مع ثياب ودابة بسرجها ولجامها. فردها البحتري وقال: قد اسلفتم اساءة فلا يجوز معه قبول صلتكم. فكتب اليه ابن ثوابة: "أما الأساءة فمغفورة والمعذرة مشكورة. والحسنات يذهبن السيئات. وما يأسو جراحك مِثلُ يدك. وقد ردَدتُ اليكم ما ردَدتهَ عليَّ. وأضعفتهُ... فأن تلافيتَ ما فرط منك اثنينا وشكرنا. وان لم تفعل احتملنا وصبرنا". فقبل البحتري ما بعث به ابن ثوابة وكتب اليه: "... كلامك -والله- احسن من شعري. وقد اسلفتني ما اخجلني وحملتني ما اثقلني... وسيأتيك ثنائي". ثم غدا البحتري على ابن ثوابة بقصيدته التي اولها:

ظَلالٌ لهيا ماذا ارادت من الصَدِّ

ومدحه بمبالغة -بعد ذلك- بقصائد مدونة في ديوانه. وهي كثيرة ومعروفة.

قال احمد بن محمد بن زياد سألت ابا الغوث عن السبب في خروج ابيه من بغداد فقال: "كان ابي قد قال في قصيدته التي يمر فيها أبا عيسى ابن صاعد ابياتاً وجد بها بعض اعدائه عليه مغالاة فشنعّوا عليه. وكانت العامّة حينئذ غالبة ببغداد فخافهم على نفسه". ومن تلك الابيات قوله:

اخي متى خاصمتَ نَفْسَك فاحتشِد
لها، ومتى حَدَّثْتَ نفسك فاصدُقِ

أرى علَلَ الاشياء شَتى ولا ارى الـ
تجمعة إلاّ عِلَّةً للتفَرُّق

ولم أَرَ كادُّنيا حليلةً واحقٍ
فيحبٍّ متى تحسُنْ بعينيه تَطْلُقِ
تراها عياناً وهي صُنْعَةُ واحدٍ
فتحَسَبُها صُنْعيْ حكيمٍ وأَخرق

وقيل للبحتري يوماً: ويحك!! أتقول في قصيدتك التي مدحتَ فيها ابا سعيد الثغري:

يرمون خالقهم بأقْبحَ فِعْلهم
ويُحرِّفون كلامَه المخلوق

أصرتَ قَدرياً معتزلياً؟ قال: "هذا ديني ايام الواثق. ثم نزعتُ عنه ايام التوكل". ان هذه الموقف المتنافر الذي لا ينفرد به البحتري وحده بالطبع -تصدق عليه ملاحظات دقيقة وعميقة ابداها ابو العلاء المعري في رسالة الغفران (ص٤٧٧) في معرض الحديث عن ابن الرومي: "والبغداديون يدَّعون ان ابن الرومي يتشيع. ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجميلة التي قالها في رثاء يحي بن زيد بن علي:

أمامك فـــانظر اي نهجيــك تــنهجُ

طريقـــان شـــتى مـــستقيمٌ واعــــوجُ

ألا أيهـــذا النـــاس طـــال ضريركم

بـــآل رســول الله فاخــشوا او ارتجــوا

أكـــلَّ اوانِ للــــنبيّ محمـــد

قتيــــل زكـــي بالــــدماء مـــضَّرج

تبيعـــون فيـــه الـــدينَ شـــر أئمـــة

فللـــه ديـــنُ الله قـــد كـــاد يُمـــزج

أمـــا فـــيكم راع لحـــق نبيـــه

ولا خـــائف مـــن ربـــه يتحـــرج

بني المصطفى كم يأكل الناس شلوكم

لبلـــواكم عمـــا قليـــل مفـــرج

أبعـد المكنّـى بالحـسين شـهيدكم

تـضيء مـصابيح الـسماء فتـسرج

وكنـا نُرجّيـه لكـشف غمامـة

بأمثالـــه امثالهـــا تتـــبلج

فـأن لم يكـن حيًّـا لـدنيا فأنـه

لـدى الله حـي في الجنـان مـزوج

فـساهمنا ذو العـرش في ابـن نبيـه

ففـــاز بـــه والله اعلـــى وأفلـــج

لقد عبر ابو العلاء المعري تعبيرا طريفا عميقا ومهذبا عن تناقضات الشعراء وتكسبهم بالشعر وملقهم مواقفهم المذبذبة المعروفة التي سوف نذكر منها -على سبيل التمثيل لا على سبيل الحصر- في هذا الفصل من فصول الكتاب.

ذكر الرواة ان بشاراً بن بُرد مدح المهدي بقصيدة من جيد شعره. فلم يُعطه المهدي شيئا. فقيل لبشار: ان امير المؤمنين لم يستحسن شعرك قال: والله لقد مدحته بشعر لو مدح به الدَّهر لم يخش صرفه على احد.

ولكنه كذب املي لأني كذبت في قولي. وقيل ان الحسين بن مطير انشد المهدي قصيدته التي ورد فيها:

أضَحتْ يمينك من جودٍ مصورة

لا بل يمينك منها صورة الجود

من حُسنِ وجهك تُضحي الشمس مشرقةُ

ومن بنانك يُجري الماءُ في العود

فقال المهدي: كَذَبتَ يا ابن مُطير. قال الحسين بن مُطير: ولم ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال المهدي: وهل تركتَ موضعا لأحد بعد رثائك لمعن بن زائدة.. (يشير المهدي بذلك الى قصيدته التي سيأتي ذكرها في الجزء الأخير من هذا الكتاب) والتي ورد فيها:

تُمنَّى اناسٌ تأوهَ من ضلالهم

فأضحوا الى الأذقان صرعى وضلّعا

وعندما توفي المهلب بن ابي صفرة رثاه نهار بن توسعة بأبيات منها:

ألا ذهب الغزو المفربُ بالغنى

وماتَ النَّدى والحزم بعد المُهلب

ثم ولي قتيبة بن مسلم الباهلي. فدخل عليه نهار بن توسعة مادحاً. فقال له قتيبة: أأنت القائل في المهلب كذا وكذا؟ قال وانا الذي اقول فيك:

ما كان مذ كنا ولا كان قبلنا

ولا هو كائن كأبن مسلمٍ

أهم لأهل الشرك قتلا بسيفه

وأقسم فينا مغنما بعد مغنم

فقال له قتيبة بامتعاض: ان شئت فاقتل. وان شئت فأكثر... وان شئت فذم. والله لا تُصيب مني خيرا ابدا. ثم أمر قتيبة باسقاط عطائه. فلزم نهار بن توسعة منزله حتى قُتل وولي يزيد بن المهلب. فأتاه. فدخل عليه وهو يقول:

ان كان ذنبي ياقتيبة انني

مدحت امرأ قد كان في المجد أوحدا

ثم يستمر بمدح آل المهلب. فلما انتهى قال له يزيد: احتكم يا نهار.. قال.. مئة الف درهم. فأعطاه اياها.

وذكر حماد بن اسحق الموصلي عن ابيه انه قال: كنت بين يدي المأمون قائما. فدخل الحاجب برقعة فيها ابيات وقال للمأمون اتأذن بأنشادها. قال المأمون هاتِ: فأنشد:

أجزْني فأنّي قد ظَمئتُ الى الوعد

متى يُنجزُ الوعدُ المؤَّكدُ بالعُهْدِ

أعيذك من خِلْفِ الملول وقد ترى

تقطع انفاسي عليك من الوجّد

رأى الله عبد الله خير عباده

فملكه والله أعلمُ بالعبد

ألا إنما المأمون للناس عصمةٌ

مميزة بين الظلالة والرشد

فقال له المأمون: أحسنتَ. قال الحاجب: بل احسن قائلها يا أمير المؤمنين. قال المأمون: ومن هو؟ قال: عبدك الحسين بن الضحاك. فغضب المأمون وقال لا حيا الله من ذكرت ولا بيّاه ولا قربه. أليس هو القائل في رثاء المخلوع:

فلا تّمتِ الأشياءُ بعد محمد

ولا زال شَملُ الملك فيه مبدّدا

ولا فِرحَ المأمونُ في العيش بعده

ولا زال في الدّنيا طريدا مُشّردا

يَعتدلُ التاج فوق مِفَرقه

على جبين كأنّه الذهبُ

فقال له عبد الملك: يا أبن قيس تمدحني بالتاج كأني من الأعاجم وتقول في مصعب بن الزبير:

"إنّما مُصعبٌ شهابٌ من الله"...

لا شك في ان الشاعر –من حيث هو مواطن كغيره من الناس– يعيش في مجتمع معين ذي خصائص معينة في فترة تأريخية معينة. كما ان الشاعر يعيش ايضا– من حيث هو شاعر– في عالمه الخاص الذي ينفرد به: بمشاعره الفضفاضة واحاسيسه المرهفة وخياله المجنح. وقد يجنح احيانا الى المصانعة والمداجاة او المداهنة. وقديما قال زهير:

ومَــن لم يُـصانع في امـور كـثيرة

يُـضرس بأنيـاب ويوطــأ بمنسـيمِ

وقال حسان بن ثابت:

وإن امـرأ يُمـسي ويـصبح سـالما

مـن النـاس إلا مـا جنـى لَـسعيدُ

وقال آخر يصف الناس من حوله:

إنْ يعلمـوا الخيـرَ يُخـضوه وان علمـوا

شـرًا اذاعـوا وإن لم يعلمـوا كـذبوا

كتب الجاحظ في البيان والتبيين: "ان العربي يعاف الشيء ويهجو به غيره. فأذا ابتلى به فَخَر بَه. ولكن لا يفخر لنفسه من جهةُ ما هجا بـه غـيره. فـافهم هـذا. فـأن النـاس يغلطون على العرب ويزعمون انهم يمدحون الذي يهجونه. وهـذا باطـل. لـيس شيء إلا وله وجهان. فاذا مدحوا ذكروا احسن الوجهين. واذا ذموا ذكروا اقبح الوجهين. ويدخل في هذا الباب ما ذكره صاحب زهر الاداب: "وفد الى رسول الله الزبرقان بن بَدّر وعمرو بن الأهتَم... فقال الزبرقان: يا رسول الله.. انا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم. آخـذ بحقهم وأمنعهم من الظلم. وهذا يعلم ذلك -يعني عمرا-. فقال عمرو: اجل يـا رسـول.. انه مانع لحوزته مطاع في عشيرته شديدُ المعارضة فيهم. فقال الزبرقان: أما واللـه لقـد علم اكثر مما قال. ولكنه حسدني شرفي... فقال عمرو: أما لئن قال فوالله -يـا رسـول الله- ما علمته الا ضيق البطن زمرُ المروءة. احمق الأدب لئيم الحال حديث الغنـى. فلمـا رأى الكراهة في وجه رسول الله لما اختلف قوله قال: يا رسول الله.. رَضيُت فقلتُ احسنَ ما علمتُ وغضبت فقلت اقبحَ ما علمتُ. وما كذبتُ في الأولى ولقد صَدَقتْ في الثانية".

ويدخل في هذا الباب ايضا -وهو كثير وطريف- ان غَيلان بن خَرَشة الضنّيّ مَرَّ يوما مع عبد الله بن عامر بن كُرَيْز -امير البصرة- على نهر ام عبد الله الذي يشق مدينة البصرة. فقال عبد الله: ما أصلح هذا النهر لأهل هذا المصر!! قال غيلان: أجل ايها الأمير.. يُعلِّم القوم صبيانّهم السباحةَ فيه ويكون لسقياهم وسَيْل ميرتهم وتأتيهم فيه مؤونتهم. ثم مَرَّ غَيلان هذا يساير زيادا بن ابيه امير البصرة -بعد ابن عامر وكان يجفوه-. فقال زياد: ما أضَّر هذا النهر بأهل هذا المصر.. فقال غيلان: أجل ايها الأمير.. تنزّ منه دورهم وتغرق فيه صبيانهم ومن اجله يكثر بعوضهم.

ذكر الحريري في المقامة الدينارية ان الحارث روى: "قال نظمني وأخدانا لي ناد لم يخبّ فيه مناد ولا كَبا قَدْحُ زناد ولا ذكت نارُ عناد. فبينا نحن نتجاذب اطراف الأناشيد ونتوارد طرف الأسانيد اذ وقف بنا شخص عليه سمل وفي مشيته قزل فقال: يا اخاير الذخائر وبشائر العشائر... استحالت الحال واعول العيال.. واودى الناطقُ والصامتُ ورثى لنا الحاسدُ والشامت... قال الحارث بن همام.. فأبرزتُ له دينارا وقلت اختبارا: ان مدحته نظما فهو لك حتما فانبرى يُنشد في الحال من غير انتحال":

أكِرمْ به أصَفر راقتْ صُفرته

جَوَّابَ آفاق ترامتّ سفرته

مأثورةٌ سمعته وشهرته

قد أودعتّ سِرّ الغنى أسرتُه

كأنما من القلوب نقرته

به يصول مَن حوته صرته

وحبذا مغناتُه ونُصرته

كم آمر به استتبتْ إمرته

ومـــــترف لـــولاه دامـــت حَـــسرته

وجـــيش هـــــمّ هزمتـــه كرتُّـــه

لولا التقى لقلتُ حَلّت قدرتُهْ

ثم بسط يده بعد ما انشده وقال أَنجز حُرٌّ ما وعد وسَحَّ خالٌ اذ رَعَد. فنبذتُ الدينار اليـه وقلت له خذه غيرَ مأسوف عليه... ثم جردتُ له دينار آخر وقلت له هل لك في ان تذمه ثم تضّمَّه.. فأنشد مرتجلا وشدا عجلا:

تَبّـــاً لـــه مـــن خـــادع ممـــاذق

أصـــفر ذي وجهـــين كالمنـــافق

وحبـــه عنـــد ذوي الحقـــائق

يـــدعوا الى ارتكـــاب سـخطِ الخالق

لـــولاه لم تقطـــع يمـــين ســـارق

ولا بـــدت مظلمـــة مـــن فاســـق

ولا اشمـــأز باخـــلٌ مـــن طـــارق

ولا شـــكا الممطـــول مطـــل العـــائق

"فقلت ما اغزر وبلك فقال والشرط املك: نفحتهُ بالـدينار الثـاني وقلـت لـه عوذهمـا بالمثاني. فألقاه في فمه وقرنه بتوأمه".

وكتب ابو العلاء المعري في ديباجة سقط الزند: "أمّا بَعْدُ. فأن الشعراء كأفراس تتابعن في مّدى. ما قصر منها سُبقَ. وما وقف ليم ولِحقَ. وقـد كنـتُ -في رُيَّـان الحداثـة وجِـنّ النشاط- مائلا في صفر القريض اعده بعض مآثر الأديب ومن اشرف مراتب البليـغ. ثـم رفضته السقب غِرْسَه والرَّألِ تَريكتَه رغبة عن أدب معظم جيده كـذب. ورديئـة يـنقص

ويُجدب. وليس الرِّيُّ عن النشاف. وتُعلمك بجني الشجرة الواحدةُ من ثمارها. ويدلك على خزامى الأرض النفحة من رائحتها... ولم اطرق مسامع الرؤساء بالنشيد ولا مدحُت طالبا للثواب. وانما كان ذلك على معنى الرياضة وامتحان السَّوس".

-٣-

ونود ان نختتم هذا الفصل من فصول الكتاب بذكر حوادث أخر طريفة تتعلق بمنزلة الشعر عند العرب وبموقفهم من المدح والهجاء.

ذكر الرواة أن النابغة الجعدي أمسك أربعين يوما فلم ينطق بالشعر. ثم ان بني جعدة غزوا فظفروا. فاستخفه الطرب والفرح فرام الشعر فذل له ما استصعب عليه. فقال له قومه "والله لنحن بأطلاق لسان شاعرنا أسر منا بالظفر بعدونا". وقيل ان طفيليا نظر الى قوم ذاهبين. فلم يشك أنهم في دعوة ذاهبون الى وليمة. فقام وتبعهم. فاذا هم شعراء قصدوا السلطان بمدائح لهم. فلما انشد كل واحد شعره واخذ جائزته لم يبق الا الطفيلي -وهو جالس ساكت- فظن صاحب الدار أنه احدهم فقال له: انشد شعرك. قال الطفيلي: لست بشاعر. فقيل له: فمن انت؟ قال من الغاوين الذين قال تعالى في حقهم "والشعراء يتبعهم الغاوون" فضحك صاحب الدار وامر له بجائزة الشعراء.

وقيل ان خالد بن عبد الله القسري دخل سجنه يوما فعرضوا عليه يزيد البلخي. فقال له خالد: "يا يزيد؟" قال خالد "لبيك ايها الأمير.." فقال خالد "محبوس انت؟" قال نعم. قال: في اي شيء؟ قال في تهمة. فقال خالد "تعود الى ما اتهمت به ان أطلقتك؟ "قال: لا"ايها الامير. فأطلقه. وكان يزيد هذا عاشقا لجارية من جواري الحي. فأخذه اولياء الجارية ليلا فقدموه الى خالد. وقالوا: هذا سارق. فقال له خالد: أسرقت يا يزيد؟ وبالأمس اطلقتك.. قال: نعم: ايها الأمير(وكره يزيد ان يصرح بالقصة فتفضح صاحبته وينالها اهلها بما تكره). فالتفت خالد الى اولياء الجارية وقال لهم: أحضروا رجال الحي حتى نقطع يده بحضرتهم. فأنشد احد الحاضرين:

أخالد قد والله وطئت عشوة

وما العاشق المسكين فينا بسارق

أقر بما لم يأته المرء انه

رأى القطع خيرا من فضيحة عاشق

ولولا الذي قد خفت من قطع كفه

لألفيت في أمر الهوى غير ناطق

اذا بدت الغايات في السبق للعلى

فأنت ابن عبد الله أول سابق

فاهتز خالد للأبيات واقنع اولياء امر الجارية ان يزوجوها ليزيد. فزوجوها بعد تردد وتعنت. ونفذ خالد المهر من عنده. وجمع بينهما.

وكانوا يأنفون من الهجاء وينزهون اسماعهم عن سماع ما يرد فيه من كلام غير لائق بذوي الشرف والسؤدد حتى قيل في وصفهم:

تخالهُم صما عن الجهل والخنا

وخرسا عن الفحشاء عند التهاجر

ومرضى اذا لاقوا حياءً وعفة

وعند الحفاظ كالليوث الخوادر

وقال شاعرهم ايضا:

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه

كأن به من كل فاحشة وقر

وقيل ان العجاج دخل يوما على عبد الملك بن مروان فقال له عبد الملك: بلغني أنك لا تقدر على الهجاء. قال: من قدر على تشييد الأبنية امكنه اخراب الأخبية. فقال عبد الملك: فما يمنعك من ذلك؟ قال: ان لنا عزا يمنعنا من ان نظلم وان لنا حلما يمنعنا من ان نظلم. فعلام الهجاء.. فقال عبد الملك: والله.. لكلماتك هذه اشعر من شعرك.

ومن طريف ما يروى ان احمد بن المعذل كان قمة في الأدب واللغة والبيان؟. وكان من الأبهة والتمسك بالمهاج والتجنب للعبث والتعرض للأشفاق ولما في ايدي الناس واظهار الزهد فيه على جانب بعيد الشأو -كما ذكر المبرد- حتى جعل في فقهاء وادباء اهل زمانه. وكان اخوه عبد الصمد بن المعذل يؤذيه ويهجوه. وكان احمد يحب اخاه- على تباين طريقيهما- فكان احمد. وكان عبد الصمد سكيرا مخمورا. وكانا يسكنان دارا واحدة ينزل احمد في غرفة في اعلاه وعبد الصمد في اسفلها. فدعا عبد الصمد ليلة جماعة من ندمائه واخذوا في القصف والعزف حتى منعوا احمد الود ونغصوا عليه التهجد. فطلع احمد عليهم وقال بأعلى صوته "أيا من الذين مكروا السيئات ان يخسف الله بهم الأرض". فرفع عبد الصمد رأسه وقال مبتسما ومنتشيا: "ما كان الله ليعذبهم وانت فيهم". وقيل ايضا ان احمد كتب يوما الى عبد الصمد: "أما بعد.. فأن اعظم المكروه ما جاء من حيث يرجى المحبوب... وانت كالأصبع الزائدة: ان تركت شانت وان قطعت آلمت...

وانت امروء منا خلقت لغيرنا
حياتك لا ترجى وموتك فاجع
وانت على ما كان منك أبن حرة
واني لما يرضى به الخصم مانع
وفيك خصال صالحات يشينها
لديك جفاء عنده الود ضائع

ثم قال له في اختتام هذه الرسالة:

حملتك حمـل العـين لج بهـا القـذى

فـلا تنجلـي يومـا ولم تبلـغ العمـى

وللشعراء اساليب كثيرة في التخلص او التملص من بعض المواقف المحرجة في مقدمتها الأيهام والموارية ففي الأيهام او الأبهام يقول الشاعر كلاما مبهما يحتمل معنيين مضادين لا يميز احدهما عن الآخر ولا يأتي في كلامه بما يحصل به التمييز فيما بعد. بل يقصد ابهام الأمر فيهما. ولكن لا يفهم من الفاظه مدح ولا هجاء. بل يكون لفظه صالحا للأمرين. ومثاله: ما يحكى ان بعض الشعراء هنأ الحسن بن سهل باتصال ابنته بوران بالمأمون مع من هنأه. فأثاب الحسن الشعراء كلهم وحرمه. فكتب هذا الشاعر الى الحسن ممازحا: "ان انت تماديت على حرماني عملت فيك بيتا لا تعلم مدحتك فيه ام هجوتك". فاستحضره الحسن وسأله عن قوله فاعترف. فقال له الحسن: لا اعطيك او تفعل. فقال:

بـــــارك الله للحـــــــــسن

ولبـــــوران في الخـــــتن

يـــا امـــام الهـــدى ظفـر

ت ولكـــن ببنـــت مـــن

فاستحسن منه الحسن ذلك وسأله: اسمعت هذا المعنى؟ ام ابتكرته؟ فقال "نقلته من شاعر قاله في خياط اعور اسمه يزيد":

خــاط لـــي زيـد قبـــاء

ليـــت عينيـــه ســـواء

ومن حيل الشعراء ايضا المواربة وهي ان يقول الشاعر قولا ما ينكر عليه فيه بسببه وتتوجه اليه المؤاخذة. فاذا حصل الأنكار عليه استحضر بحذفه وجها من الوجوه التي يمكن التخلص بها من تلك المؤاخذة من ذلك مثلا ان احد الخوارج انشد يوما مفتخرا:

فمنـا حقيـن والبطيـن وتعنـب

ومنـا امـير المـؤمنين شـبيب

فلما بلغ الشعر هشام بن عبد الملك استدعاه وسأله: انت القائل "ومنا أمير المؤمنين شبيب".. قال: يا امير المؤمنين.. اخطأ من نقل البيت اليك. فقد قلت "أمير" بالفتح لا بالضم. والخطاب لك. فاستحسن قوله.

وكانوا يستظرفون الشعر الرقيق كما يستظرفون الغناء في جميع المناسبات. فقد ذكر الرواة ان سليمان بن عبد الملك قعد يوما للمظالم. فعرضت عليه الرقع. فمرت به رقعة جاء فيها " ان رأى أمير المؤمنين -أعزه الله- ان يخرج الى جاريته فلانة حتى تغنيني ثلاثة اصوات فعل.." فاستشاط سليمان غيظا وامر من يخرج اليه فيأتيه برأسه. ولكنه استرجع فورا واتبع الرسول برسول آخر يأمره ان يدخله عليه. فلما وقف الفتى بين يديه قال به بغضب "ما الذي حملك على ما صنعت؟" فقال الفتى "الثقة بحلمك والأتكال على عفوك يا أمير المؤمنين" فلان سليمان وامره بالقعود. حتى اذا لم يبق احد بني امية الا خرج أمر فاخرجت الجارية ومعها عودها. فغنته.

وقال الجاحظ "ذكرت للمتوكل لتأديب بعض ولده. فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني. فخرجت من عنده فلقيت محمد بن أبراهيم وهو يريد الأنحدار الى مدينة السلام فعرض علي الخروج معه وترب حداقته ونصبت ستارته وامر بالغناء. فاندفعت عوادة له فغنت.

كـل يـوم قطيفـة وعتـاب

ينقضي دهرنـا ونحـن غضاب

الفصل الثاني

آراء مختلفة في الموازنة بين الشعراء

-١-

ثبت لدينا بشكل لا يقبل الشك او الجدل -في ضوء دراستنا المستفيضة بالذات التي استغرقت سنين طويلة والتي استشرنا فيها امهات كتب الأدب والتاريخ ودواوين فطاحل الشعراء -ان المعنيين بدراسة الشعر ورواته واصحابه والمستمتعين بتلاوته وسماعه يختلفون فيما بينهم اختلافا كبيرا -يصل الى حد التناقض احيانا- في التمييز بين جيد الشعر ورديئهُ وفي المفاضلة بين الشعراء. والأختلاف المشار اليه يعود -في هذه الحالة بالذات (التي نتحدث عنها في هذا الفصل من فصول الكتاب وفي جوانب كثيرة من الحالة التي سنتحدث عنها بأسهاب في الفصل الرابع) الى عوامل شخصية ذاتية ناجمة في الأصل عن الذوق الأدبي الخاص والسجية الشعرية (التي سنتحدث عنها في الفصل الخامس) وبغزارة المعرفة بالشعر والغوص في متاهاته وتشعباته المتعددة. يضاف الى ذلك -ولا يقل اثرا عنه- انتفاء وجود موازين معينة مستقرة ومتفق عليها للحكم على جودة الشعر وللمفاضلة بين الشعراء. ومع ان بعض المعنيين -من اصحاب الأختصاص- وضع للشعر الجيد موازين واضحة ومتبلورة- كما سنرى في الفصل الرابع من فصول هذا الكتاب- إلاّ أنَّ تلك الموازين لم تكن موضع الأجماع رغم وجود جوانب عامة مشتركة بينها.

لقد آثرنا ان نتحدث -في هذا الفصل من فصول الكتاب عن آراء كثيرة متفرقة ومختلفة منشورة في كتب الأدب- القديم بصورة خاصة- منسوبة لأدباء وشعراء ورواة متعددين مختلفين الى درجة التنافر احيانا في مستوياتهم الثقافية وفي غزارة معرفتهم بالشعر نفسه.

-٢-

ذكر الرواة أنه كان يُضْرب للنابغة الذبياني قبة أَدم بسوق عُكاظ . فتأتيه الشعراء. فتعرض عليه اشعارها. فأنشده مرة الأعشى ثم حَسّان بن ثابت ثم قوم آخرون من الشعراء. ثم جاءت الخنساء فأنشدته:

وان صخرا لتأتمُ الهُداةُ به
كأنه علمٌ في رأسه نارُ

فقال النابغة: لولا ان ابا بصير -يعني الأعشى- انشدني آنفا لقلت انك اشعر الأنس والجن. فقام حسان بن ثابت مغضبا وقال: انا والله اشعر منها ومنك ومن ابيك. فأجابه النابغة بهدوء ورزانة: يا ابن اخي انت لا تحسن ان تقول:

فأنك كالليل الذي هو مدركي
وان خُلتُ أن المنتأى عنك واسع

خطاطيفُ حجن في حبال متينة
تُمد بها أيد اليك نوازع

فوجم حسان ولم ينبس ببنت شفة.

وقال الأصمعي ايضا: جاء مروان بن ابي حفصة الى حلقة يونس بن حبيب. فسلم ثم سأل: ايكم يونس بن حبيب؟ فأومأنا اليه. فقال: اصلحك الله.. اني ارى قوما يقولون الشعر لأن يكشف احدهم سؤته ثم يمشي كذلك في الطريق أحسن له من ان يظهر مثل ذلك الشعر. وقد قلت شعرا أعرضه عليك.؟ فأن كان جيدا أظهرته. وان كان رديئا سترته. فأنشدته قصيدته التي جاء فيها:

طرقتك زائرةٌ فحييّ خيالها
بيضاءُ تخلط بالجمال جلالها

فقال له يونس: يا هذا اذهب فأظهر هذا الشعر فأنت -والله- اشعر فيه من الأعشى في قوله:

رَحَلت سمية غدوة أجمالَها

فأصاب حبه قلبها وطحالها

فقال مروان: سررتني وسؤتني بقولك هذا. سررتني بارتضائك شعري. وساءني تقديمك اياي على الأعشى وانت تعرف محله. فقال له يونس: انما قدمتك عليه في تلك القصيدة لا في شعره كله لأنه قال فيها -كما رأيت:

فأصاب حَبَّة قلبها وُطحالَها

والطّحال ما دخل في شيء إلا افسده. وقصيدتك سليمة من هذا وشبيهه.

وقال الأصمعي ايضا: قلت لأبي عمرو بن العلاء: كيف موضع عَدِيّ بن زيد من الشعراء؟ قال: كسهيل في النجوم: يعارضها ولا يدخل فيها. او -كما ذكر الصولي- "بمنزلة الشِعرى في الكواكب تعارضها ولا تجري معها". يعني انه يشبه بها ويقعد به عن شأوها. وقال السِّجستاني: سألت الأصمعي عن عدي بن زيد أفحلٌ هو؟ (بمعنى انه من فحول الشعراء الذين ذكرهم ابن سلاَّم الجُحمي في كتابه طبقات فحول الشعراء كما سنرى في الفصل الرابع) فقال الأصمعي: ليس هو بفحل ولا انثى.

وقيل لأبن شُبرمه من أشعر الناس؟ قال الفرزدق. فقيل له: ان اردنا الجاهليين؟ فقال: وهل كان اجهل منه؟ ومن طريف ما يروى ان ابن شبرمة وجماعة يسمرون عند عيسى بن موسى فربما آخر عنهم الأذن وربما أمروا بالأنصراف قبل ان يصلوا. وكان لعيسى حاجب يُدعى عياضا فقال ابن شبرمة:

اذا نحن أعتمنا ومالَ بنا الكَرى

أتانا بأحدى الراحتين عياضُ

- أي بأذن او بانصراف.

وبصدد الموازنة بين الشعراء وتفضيل هذا الشاعر على ذلك تحدث بديع الزمان الهمداني في مقامته القريضية فقال: حدَّثنا عيسى بن هشام قال: طرحتني النوى مطارحها حتى اذا وطئتُ جُرجان الأقصى فأستظهرت على الأيام بضياع أجلتُ فيها بين العمارة واموال وقفتها على التجارة وحانوت جعلتُه مثابة ورفقة اتخذتهم صحابة. وجعلت للدار حاشيتي النهار. والحانوت ما بينهما. فجلسنا يوما نتذاكر الشعر والشعراء. وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد. ينصت وكأنه يفهم ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى اذا مال الكلام بنا ميله وجُرَّ الجدلُ فينا ذيله قال: "اصبتم عذيقة ووافيتم جذيله. ولو شئتُ للفظتُ فأفضتُ ولو اردت لسردت ولجلوت الحق في معرض بيان يسمع الصم وينزل العصم". فقلت يا فاضل اذن فقد منيت وهات فقد اثنيت. فدنا وقال: سلوني اجبكم واستمعوا اعجبكم. قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو اول من وقف بالديار وعرصاتها واغتدى والطير في وكناتها ووصف الخيل بصفاتها. "ولم يقل الشعر كاسبا". قلنا وما تقول في النابغة؟ قال: "ينسب اذا عَشق ويثلب اذا حَنق ويمدح اذا رغب ويعتذر اذا رهب. فلا يرمي إلاّ صائبا". قلنا فما تقول في طرفة؟ قال: "هو ماءُ الأشعار وطينها وكنز القوافي ومدينتها. مات ولم تظهر اسرارُ دفائنه ولم تطلق عتاق خزائنه". قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: "يذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه". قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق؟ وأيهما اسبق؟ قال: "جرير ارق شعر اواغزر غزرا. والفرزدق أمتن صخرا واكثر فخرا. وجرير اوجع هجوا واشرف يوما والفرزدق اكثر روما واكثر قوما. وجرير اذا نسب اشجى واذا ثلب اردى واذا مدح اسنى والفرزدق اذا افتخر اجزى واذا وصف اربى واذا احتقر ازدرى". قلنا فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: "المتقدمون اشرف لفظا واكثر في المعاني حظا. والمتأخرون الطف وصفا وارق نسجا".

ومن طريف ما عثرنا عليه في هذا الباب ان احد العلماء سئل: من اشعر الناس؟ قال: الذي يصور الباطل في صورة الحق ويصور الحق في صورة الباطل: بلطف معناه ورفقة فطنته فيقبح الحسن الذي لا احسن منه ويحس القبيح الذي لا اقبح منه. وقد استشهد هذا الرجل الحصيف -في معرض تحسين القبيح بأبيات الحارث بن هشام التي يصف بها اعتذاره عن فراره يوم بدر. كما استشهد بأبيات في معرض تحسين القبيح. واستشهد ايضا - في معرض تقبيح الحسن- بقول بشار العقيلي في سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس.

قال رجل لجرير -على ما ورد في كتاب الأغاني -من اشعر الناس؟ فقال له جرير: ""قُم" معي حتى أعرفك الجواب". فأخذه بيده وجاء الى ابيه عطية الخطفّي وقد اخذ معِزا له فاعتقلها وجعل بعض ضرعها يتدلى فصاح جرير به: اخرج يا أبي. فخرج شيخ دميم رث الهيئة وقد سال لبن العنزة على لحيته. فالتفت جرير الى الرجل وقال له: ترى هذا؟ قال الرجل: نعم. فقال جرير: اتعرفه؟ قال: لا. قال جرير: هذا أبي. اتدري لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال: لا. قال جرير: مخافة ان يسمع صوتُ الحلب فيطلب منه. ثم قال: "اشعرُ الناس من فاخر بهذا الأب ثمانين شاعرا وقارعهم فغلبهم جميعا".

وقال ابن الأثير في كتابه " المثل السائر في ادب الكاتب والشاعر" (٣ ص٢٢٥- ٢٢٩) "وقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع وانفذتُ شطرا من العمر في المحفوظ والمسموع فألفيته بحرا لا يوقف على ساحله... فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثر فوائده وتتشعب مقاصده. ولم اكن ممن اخذ بالتقليد والتسليم في اتباع من قصر نظره على الشعر القديم اذ المراد من الشعر انما هو ايداع المعنى الشريف في اللفظ الجزل واللطيف. فمتى وجد ذلك "فكل مكان خيمت فهو بابل". وقد اكتفيت -في هذا- بشعر ابي تمام حبيب بن اوس وابي عبادة الوليد البحتري وأبي الطيب المتنبي. وهؤلاء الثلاثة هم لاتُ الشعر وعزّاه ومناته: الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته. وقد

حوت أشعارهم غرابة المحدثين الى فصاحة القدماء وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء.

أما ابو تمام فأنه رب معان وصيقل ألبْاب واذهان. وقد شهد له بكل معنى مبتكر. واما ابو عباده البحتري فأنهُ احسن في سبك اللفظ على المعنى واراد ان يْشعَر فغنى. وقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الأطلاق...

واما أبو الطيب المتنبي فانه اراد ان يسلك مسلك ابي تمام فقصرت عنه خطاه ولم يُعطه الشعر من قياده ما اعطاه. لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال واختصَّ بالأبداع في وصف مواقف القتال. وانا اقول قولا لستُ فيه متأثما ولا منه متلثما وذاك انه اذا خاض في وصف المعارك كان شعره امضى من نِصالها واشجعَ من أبطالها وقامت اقوالهُ للسامع مقام افعالها... ولا شك انه كان يشهد مع سيف الدولة فيصف لسانه ما ادَّى اليه عيانُه... وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ومهما وصف فهو الوصف وفوق الإطراء.

وسئل النابغة الذبياني: من اشعر الناس؟ فقال: "من استجيد كذبه واضحك من ردته" وسئل الفرزدق: من اشعر الناس؟ فقال: بِشر بن حازم في قوله:

ثوى في ملحد لا بدَّ منه
كفى بالموت نأيا واغترابا

وسئل جرير فقال: بِشر بن حازم في قوله:

رَهينُ بلى وكلّ فتى سيبلى
فشقّي وانتحبي انتحابا

وقال العُتبي: أنشد مروان بن ابي حفصة لزهير فقال: زهير اشعر الناس. ثم أنشد للأعشى: فقال: بل هذا اشعر الناس. ثم أنشد لأمرئ القيس فقال: أمرؤ القيس – والله- اشعر الناس.

وذكر الرواة ان ابا عمرو الشيباني استجاد هذين البيتين:

لا تحسبن المـوتَ مـوتَ البلـى
إنمـا المـوتُ سـؤالِ الرجـالِ
كلاهمـا مـوتٌ ولكـن ذا
أشـدُ مـن ذاك علـى كـل حـال

وقد بلغ من اعجاب ابي عمرو بهما – وقد سمعها وهو في المسجد- ان كلف رجلا – بعد الصلاة- حتى احضره قرطاسا ودواة وكتبهما. قال الجاحظ" وانا ازعم ان صاحب هذين البيتين لا يقول شعرا أبدا"...

قال الأصمعي: حضرنا مأدبة ومعنا ابو مُحرز: خلف الأحمر. وحضرها ابن مناذر الشاعر. فقال لخلف الأحمر: يا أبا محرز: ان يكن زهير والنابغة وامروء القيس قد ماتوا فهذه اشعارهم مخلدّة. فقس شعري الى شعرهم واحكم فيه بالحق. فغضب خلف ثم اخذ صفحة مملوءةً مرقا فرمى بها عليه. فقام ابو مناذر مغضبا وهجاه بعد ذلك. ومن طريف ما يروى عن خلف الأحمر –في هذه المناسبة- ان ابن سلاّم قال يوما: قال لي خلف الأحمر: كنت اسمع ببشار بن برد قبل ان اراه. فذكروه لي يوما وذكروا ابياته وسرعة جوابه وجودة شعره. فاستنشدتهم شيئا من شعره. فأنشدوني. فلم احمده.

وقال ابو حاتم السِّجستاني: سألت الأصمعي: عن عمرو بن كلثوم: أفحل هو؟ قال ليس بفحل. قلت: فأبوا زيد؟ قال ليس بفحل. قلت: فالجويدرة؟ قال: لو كان له خمس قصائد مثل قصيدته العينية كان فحلا. قلت: فحميد بن ثور؟ قال ليس بفحل. قلت فأبن مقبل؟ قال: ليس بفحل. وقال ابو حاتم السجستاني ايضا: ثم سألت الأصمعي: من

أشعر: الراعي أم ابن مقبل؟ قال: ما أقربهما. فقلت: لا يقنعنا هذا. فقال: الراعي اشبه شعرا بالقديم. قلت: فأبن احمد الباهلي؟ قال : ليس بفحل. ولكنه دون هؤلاء وفوق طبقته. قلت: فكعب بن جعيل؟ قال: أظنه من الفحول ولا استيقنه. قلت فحاتم الطائي؟ قال: حاتم انما يعد فيما يكرم (ولم يقل انه فحل في شعره). ثم قلت: فجعفر إبن حجاز البارقي حليف بني نمير؟ قال: لو اتم خمسا او ستا لكان فحلا. ثم قلت: فكعب بن سعد الغنوي؟ قال: ليس من الفحول الا في المرثية فأنه ليس في الدنيا مثلها. ثم قال السجستاني وسألته عن خفَّاف بن ندبة وعنترة والزبرقان بن بدر. فقال هؤلاء اشعر الفرسان. ومثلهم عباس بن مرداس (ولم يقل انهم فحول). فقلت: الأسود بن يعفر النهشلي؟ قال: يشبه الفحول. قلت: فعمرو بن شأس الأسدي؟ قال: ليس بفحل. هو دون هؤلاء. قلت: فأوس بن مغراء الهجيمي؟ قال: لو كان قال عشرين قصيدة لحق بالفحول. ولكنه قطع به. قلت: فكعب بن زهير بن ابي سُلمى؟ قال: ليس بفحل. قلت: فعمرو بن معدي كَرِب؟ قال: من الفرسان. قلت فسليك بن سلكة.؟ قال: ليس من الفحول ولا من الفرسان. ولكنهم من الذين يغرون فيعدون على ارجلهم فيختلسون. ثم قال: وسلامة بن جندل لو كان زاد شيئا لكان فحلا. ثم قال: اشعرت ان ليلى اشعر من الخنساء..

قال ابو عبيدة: اتفقوا على ان اشعر المقلين في الجاهلين ثلاثة: المتلمس والمسَّيب بن علي وحُصين بن الحُمام المُـرّي. وقيل ان الاصمعي سمع ابا عمرو بن العلاء يقول: كان اوس بن حجر فحل العرب. فلما نشأ النابغة الذبياني طأطأ منه. وذكروا ان الحطيئة دخل يوما على سعيد بن العاص متنكرا. فلما قام الناس وبقي الخواص اراد الحاجب ان يقيمه فأبى ان يقوم. فقال سعيد للحاجب: دعه. وتذاكروا ايام العرب واشعارها. فلما اسهبوا قال الحطيئة: ما صنعتم شيئا. فقال له سعيد بن العاص: فهل عندك علم من ذلك؟ قال: نعم. قال سعيد: فمن اشعر العرب؟ قال الذي يقول:

قـد جُعـل المبتغـون الخير في هـرم

والــسائلون الى ابوابــه طرقــا

- البيت لزهير بن ابي سلمى-

فقال سعيد: ثم من؟ قال: الذي يقول:

فأنــك شمــس والملـوكُ كواكــب

اذا طلعــت لم يبــق مــنهن كوكــب

-يعني النابغة الذبياني-. ثم قال الحطيئة لسعيد بن العاص: وحسبك بي اذا وضعت احدى رجليّ على الأخرى ثم عويت في اثر القوافي كما يعَوي الفصيل في اثر أمه. فقال سعيد: ومن انت اعزّك الله؟ قال انا الحطيئة. فرحّب به سعيد وامر له بألف دينار.

كان يحيى بن ابي زيد البصري يفضل النابغة الثاني ويهتز لشعره وبخاصة قصيدته التي اولها:

كتمتْــك لــيلا بــالحموحين ســاهرا

وَهمَّــينِ همُــاً مــستكينا وظــاهرا

وكان يقول "والله لو مزجت هذه القصيدة بشعر البحتري لكادت تمتزج لـسهولتها وسلامة الفاظها وما عليها من الديباجة والرونق. فمن يقـول ان امـرأ القـيس وزهيرا اشعر من هذا.. هلموا فليحاكموني". (والقصيدة طويلة وهي من اجود الشعر في الرثـاء بنظرنا وهذه بعض ابياتها):

أحاديــث نفــس تــشتكي مــا يريبهُــا

وَورد همــومٍ لــو يَجــدن مــصادرا

تُكلفّــني ان يُغفَــل الــدهرُ همّهــا

وهـل وَجـدّت قبلـي علـى الـدهر ناصـرا

ألم تـر خـيرُ النـاس اصـبح نعـشه
علـى فتيـة قـد جـاوز الحَّـي سـائرا
ونحـن نرجـي الخـير ان فـاز قـدحنا
ونرهـب قـدح الـدهرإن جـاء قـامرا
لك الخيرُ ان وارت بك الأرض واحدا
واصـبح جـد النـاس بعـدك عـاثرا
وردت مطايـا الــراغبين وعريــت
جيـادك لا يحفـي لهـا الـدهرُ حـافرا

قال يونس بن حبيب النحوي: ان علماء البصرة كانوا يقدمون امرأ القيس. وان اهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى. وان اهل الحجاز والبادية كانوا يقدمون زهيرا والنابغة الذبياني. وقال آخرون: الشعراء ثلاثة: جاهلي واسلامي ومولَّد. فالجاهلي امـرؤ القـيس. والأسلامي ذو الرِّمَّة. والمولد ابن المعتز. وقال غيرهم: الأعشى والأخطل وابو نواس. وذهب فريق ثالث الى ترتيبهم على نحو آخر: المهلهل وعمرو بن ابي ربيعة والعباس بن الأحنـف. وقد ذكرا ايضا: ان تحاكم الزبرقان بن بَدُر وعمرو بن الأهتم وعبدة بن الطيب والمخبَّـل السعدي الى ربيعة بن حذار الأسدي في الشعر: أيهـم اشـعر؟ فقـال للزبرقـان: امـا انـت فشعرك كلحم أَسخن لا هو -أنضج فأكل ولا ترك نيئا فينتفع به. اما انت يا عمرو: فـان شعرك كبرود حبر يتلألأ فيها البصر. فكلما اعيد النظر فيها نقص البصر. ثـم التفـت الى المخبل فقال: وأما أنت يا مخبل: فأن شعرك قصر عن شعرهم وارتفع عن شعر غـيرهم ثم قال: واما انت يا عبدة: فان شعرك كمزادة احكـم خَرزُهـا فلـيس تُقطـر ولا تمطـر. وروى ابن سَّلام عن ابي عمرو بن العلاء انه قال: سـئل حسـان بـن ثابـت: مـن اشـعر الناس؟ فقال: اشعر الناس حيا هذيل. وقال عبد الرحمن بن ابي بكـرة: رأيـت الحطيئـة بذات عِرْق فقلت له: يا ابا ملكية: أي الناس أشعر؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه حية فقال:

هذا اذا طمع.. وقال ابو عبيدة: مَرَّ لبيد بمجلس لبني نَـهْد بالكوفة وهو يتوكأ على عصا. فلما جاوز امروا فتى منهم ان يلحقه فيسأله: من أشعر الناس؟ ففعل. فقال لـه لبيـد: الملك الضلل -يعني أمرأ القيس-. فقالوا: ألا سألته: ثم من.. فرجع الفتى فسأله: فقـال: ابن العشرين -يعني طرفة-. فلما رجع الفتى قالوا له ليتك كنت سألته ثم مـن؟ فرجـع فسأله: فقال: صاحب المحجن:- يعني نفسه-.

وذكر الشريف المرتضى في اماليه: ذاكرني قـوم مـن اهـل الأدب بأشعار المحدثين وطبقاتهم وانتهوا الى مروان بن يحيى بـن ابـي حفصة. فـأفرط بعـضهم في وصـفه وتقريظه وبالغ آخرون في ذمه وتهجينه والأزدراء على شعره وطريقته. واستخبروا عمـا اعتقده فيه. فقلت لهم: كان مروان متساوي الكلام ومتشابه الألفاظ غـير متـصرف في المعاني ولا غواص عليها ولا مدقق لها. فلذلك قلت النظائر في شعره. ومدائحـه مكـرّرة الألفاظ والمعاني. وهو غزير الشعر قليل المعنى. الا انـه -مـع ذلـك- شـاعر لـه تجديـد وحذق. وهو اشعر من كثير من اهل زمانه وطبقتـه. واشـعر شـعراء اهلـه. ويجـب ان يكون دون طبقة مسلم بن الوليد في تنقيح الألفاظ وتـدقيق المعاني وحـسن الألفـاظ ووقوع التشبيهات. ودون بشار بن برد في الأبيات النادرة السائرة. فكأنه طبقة بينهمـا. وليس بمقصر دونهما شديدا ولا منحط عنهما بعيدا.

وكان اسحق بن ابراهيم الموصلي يقدم ابن ابي حفصة على بشار ومسلم. وكذلك ابـو عمرو الشيباني. وكان الأصمعي يقول مروان بن ابي حفـصة مولَّـد ولـيس لـه علـم في اللغة. واختلاف الناس في اختيار الشعر بحسب اختلافهم في التنبيه على معانيه وبحـسب ما يشترطونه من مذاهبه وطرائقهُ. ويروى عن عنبسة الفيل -الشاعر المعروف بهجائية الفرزدق -انه قال: قدم ذو الرمة الكوفة فوقف ينشد قصيدته الحائية التي فيها:

هـي الـبرءُ والأسـقام والهـَّم والمُنـى

ومـوتُ الهـوى في القلـب مِنّـي المبرحُ

وكان الهوى بالنأيّ يُمحى فينمحي

حُبّـك عنـدي يـستجدُّ ويـريحُ

اذا غيَّرالنـأي المحـبين لم يكـد

رسيسُ الهـوى مـن حُـبَ مَيَّـةَ يَبْـرحُ

فلما انتهى الى هذا البيت ناداه شُبرمة: يا غيلان.. اراه قد بـرحَ. قـال عَنبّـسة الفيل: فشنق ذو الرمة ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر. ثم قال:

اذا غـيرالنـأي المحـبين لم أجـد

رسيسَ الهـوى مـن حُـبّ ميَّـة يـبرح

قال عنبسة فلما انصرفت حدثَتُ ابي فقال: اخطأ شبرمة حين انكـر عـلى ذي الرمـة واخطأ ذو الرمة حين غيَّر شعره لقول ابن شبرمة. وهذا كقوله تعالى "ظلمـات بعـضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها" وانما لم يرها ولم يكد. ويـدخل في هـذا البـاب – وهو ظريف- ما ذكره الثعالبي (الجزء الأول من يتيمة الـدهر في محاسـن اهـل العـصر ص٣٣- ٣٥): استنشد سيف الدولة يوما ابا الطيب المتنبي قصيدته التي اولها:

عـلى قـدر اهـل العـزم تـأتي العزائم

وتـأتي عـلى قـدر الكـرام المكـارم

وكان معجبا بها كثير الأستعادة لها. فاندفع ابو الطيب يُنـشدها. فلمـا بلـغ قولـه فيها:

وقفـتَ ومـا في المـوت شـكٌ لواقـفٍ

كأنـك في جفـن الـردى وهـو نـائم

تَمُـرُّبـك الأبطـال كلمـى هزيمـةً

ووجهـك وضّـاحٌ وثغـرك باسـم

قال سيف الدولة: قد انتقدنا عليك هذين البيتين كما انتقد على امرئ القيس بيتاه:

كـأنّي لم اركـب جَـوادا للـذة

ولم اتـبطّن كاعبـا ذات خَلخـال

ولم أسـبأ الـزق الـرويّ ولم اقـل

لخيلـي كُـرّي كـرّة بعـد إجفـال

وبيتاك لا يلتئم شطراهما كما يلتئم شطرا بيتي امرئ القيس وكما ينبغي لأمـرئ القيس ان يقول:

كـأنيَ لم اركـب جـوادا ولم اقـل

لخيلـي كـرى كـرة بعـد اجفـال

ولم أسـبأ الـزق الـروي للـذة

ولم اتـبطن كاعبـا ذات خلخـال

ولك ان تقول:

وقفـت ومـا في المـوت شـك لواقـف

ووجهـك وضـاح وثغـرك باسـم

تمـربـك الأبطـال كلمـى هزيمـة

كأنـك في جفـن الـردى وهـو نـائم

فقال المتنبي: ايد الله الأمير. ان صح الذي استدرك على امرئ القيس هذا كان اعلم بالشعر منه فقد اخطأ امرؤ القيس واخطأت انا. والأمير يعلم ان الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك: لأن البزاز يعرف جملته. والحائك يعرف جملته وتفاريقه لأنه هو الذي اخرجه من الغزلية الى الثوبية. وانما قرن إمرؤ القيس لذة النساء بلذة الركوب للعبد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضيافُ بالشجاعة في منازلة الأعداء. وانا -ايها الأمير- لما ذكرت الموت في البيت الأول اتبعته بذكر الردى لمجانسته. ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من ان يكون عبوسا وعينه من ان تكون باكية قلت "ووجهك وضاح وثغرك باسم" لأجمع بين الأضداد في المعنى وان لم يتسع اللفظ لجميعها. (فاعجب سيف الدولة بقوله ووصله بخمسين دينارا من دنانير الصلات -وفيها خمسمائة دينار).

رُوى عن الأصمعي انه قال: كنت اسير مع ابي عمرو بن العلاء وخلف الأحمر وكانا يأتيان بشار فيسلمان عليه بغاية الأعظام ثم يقولان يا ابا معاذ ما احدثت؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتي وقت الزوال ثم ينصرفان. وأتياه يوما فقالا: ما هذه القصيدة التي احدثتها في سَلْم بن قتية؟ قال: هي التي بلغتكم. قالا: بلغنا انك اكثرت فيها من الغريب. قال: نعم. بلغني ان سلم بن قتيبة يتباصر بالغريب فأحببت ان أورد عليه ما لا يعرف. قالا: فأنشدناها يا ابا مُعاذ. فأنشدهما:

بَكّرا صاحبيّ قبل الهجّير

ان ذاك النجاح في التبكير

حتى فَرغَ منها. فقال له خلف الأحمر: لو قلت -يا أبا معاذ- مكان "ان ذاك النجاح في التبكير" "بكرا فالنجاح في التبكير" كان احسن.. فقال بشار: انما بنيتها اعرابية وحشية فقلت "ان ذاك النجاح في التكبير" كما تقول الأعراب البدويون. ولو قلت "بكرا فالنجاح في التبكير:" كان هذا من كلام المولدين ولا يشبه ذاك الكلام ولا يدخل في معنى القصيدة.

وروى عن عنبسة الفيل انه قال: قدم ذو الرمة الكوفة فوقف ينشد الناس قصيدته الحائية:

هي البُرُء والأسِقام والهم والمنى
ومـوت الهوى في القلب مني المبرح
وكان الهوى بالنأي يُمحى فيمحي
وُحبّك عندي يستجد ويَربْح
اذا غير النأي المحبين لم يكَد
رسيسُ الهوى من حب ميَّة يبرح

فلما انتهى الى هذا البيت ناداه شبرمة: يا غيلان. اراه برح. فشنق ذو الرمة ناقته وجعل يتأخر بها ويتفكر ثم قال:

اذا غير النأي المحبين لم اجد
رسيس الهوى من حب ميَّة يبرح

قال عنبسة فلما انصرفت حدثت ابي فقال: اخطأ شبرمة حين انكر على ذي الرمة. واخطأ ذو الذمة حين غير شعره لقول ابن شبرمة انما هو كقول الله تعالى: "ظلمات بعضها فوق بعض اذا اخرج يده لم يكد يراها" وانما هو لم يرها ولم يكد.

-٣-

وبصدد الموازنة بين الشعراء انشأ بديع الزمان الهمداني مقامته القريضية في التحدث عن الشعر: "حدثنا عيسى بن هشام قال: طرحتني النوَّى مطارحها حتى اذا وطئتُ جُرجانَ الأقصى واستظهرت على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة واموالٍ وَقَفْتُها على التجارة وحانوت جعلته مثابة ورفقة اتخذتهم صحابة. وجعلت للدار

حاشيتي النهار. وللحانوت ما بينهما. فجلسنا يوما نتذاكر الشعر والشعراء. وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد. ينصت وكأنه يفهم. ويسكت وكأنه لا يعلم. حتى اذا مال الكلام بنا ميله وجر الجدل فينا ذيله قال: اصبتم عذيقة ووافيتم جُذَيلة. ولو شئت تلفظت فأفضت ولو اردتُ لسردت ولجلوتُ الحق في معرض بيان يسمع الصم وينزل العُصم. فقلت: يا فاضل ادنُ فقد مَنَّيتَ وهاتِ فقد اثنيت. فدنا وقال: سلوني اجبكم واستمعوا اعجبكم. قلنا: فما تقول في امرئ القيس؟ قال: هو اول من وقف بالديار وعَرصَاتها واغتدى والطير في وكناتها ووصف الخيل بصفاتها. ولم يقل الشعر كاسبا ولم يجد القول راغبا. ففضُل من تَفتَّق للحيلة لسانه وانتجع للرغبة بنانه. قلنا: وما تقول في النابغة؟ قال: ينسب اذا عشق وُيثلب اذا حَنق ويمدح اذا رغب ويعتذر اذا رهب. فلا يرمي الا صائبا. . قلنا: فما تقول في طَرفة؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها. وكنز القوافي ومدينتها. مات ولم تظهر اسرارُ دقائقه ولم تُطلق عنان خزائنه. قلنا: فما تقول في زهير؟ قال: يُذيب الشعرَ والشعرُ يذيبه. ويدعو القول والسِّحْر يجيبه. قلنا: فما تقول في جرير والفرزدق؟ وأيهما اسبق؟ قال: جرير أرقُّ شعرا واغزر غزارة. والفرزدق امتن صَخرا واكثر فخرا. وجرير اوجع هجوا واشرف يوما. والفرزدق اكثر رَوْما وآثر قوماً. وجرير اذا نسب اشجى واذا ثلب اردى واذا مدح اسنى. والفرزدق اذا افتخر اجزى واذا وصف اوفى واذا احتقر ازرى. قلنا: فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم؟ قال: المتقدمون اشرف لفظا واكثر في المعاني حظا. والمتاخرون الطف صنعا وارقّ نسجا. قال عيسى بن هاشم فنلته ما تاح واعرض عنا فراح. وجعلت انفيه واثبته. وانكره وكأني اعرفه. ثم دلتني عليه ثناياه. فقلت: الأسكندري والله. فقد كان فارقنا خِشْفا ووافانا جْلِفاً. ونهضت على اثره ثم قبضت على خَصْره. وقلت: ألست ابا الفتح؟ الم تكن فينا وليدا..."

وقال الصولي في "اخبار ابي تمام": حدثني ابو عبد الله الحسين بن علي قال: قلت للبحتري أيكما اشعر؟ أنت؟ أو أبو تمام؟ فقال: جيده خيرٌ من جيدي ورديئي خير من

رديئه. وقال الصولي ايضا عن ابي العباس عبد الله بن المعتز ان محمد بن يزيد المبرد جاءه يوما فأطنب في ذكر ابي تمام وان ابن المعتز سأله عن أبي تمام والبحتري فقال لأبي تمام استخراجات لطيفة ومعان طريفة (لا يقول مثلها البحتري). وهو صحيح الخاطر حسن الأنتزاع. وشعر البحتري احسن استواء. وابو تمام يقول النادر والبارد (وهو المذهب الذي كان اعجبَ الى الأصمعي). ثم قال المبرد: "والله ان لأبي تمام والبحتري من المحاسن مالو قَيسَ بأكثر شعر الأوائل ما وجد فيه مثله. "ومن طريف ما يروى عن ابي القاسم علي بن محمد الأسكافي انه قال: "استظهاري على البلاغة بثلاثة: القرآن وكلامه الجاحظ وشعر البحتري"

-٤-

كتب ابو منصور الثعالبي في يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر (مج٣ ص١٦-٢٠):

"لما كان الشعر عُمدَةَ الأدب وعلم العرب الذي اختُصَّتْ به عن سائر الأمم وبلسانهم جاء الكتاب المنزَّل على النبي منهم المرسل صلى الله عليه وآله وسلم كانت اشعار الأسلاميين أرقَّ من اشعار الجاهليين. واشعار المحدثَين الطف من اشعار المتقدّمين. واشعار المولدَّين ابدع من اشعار المحدثين. وكانت اشعار العصريين اجمع لنوادر المحاسن وأنظم لبدائع اللطائف من اشعار سائر المذكورين لانتهائها الى ابعد غايات الحسن وبلوغها اقصى نهايات الجودة والظرف تكاد تخرج من باب الأعجاب الى باب الأعجاز ومن حد الشعر الى السَّحر. فكأن الزمان ادخَّر لنا من نتائج خواطرهم وثَمرات تراثهم وأبكار افكارهم أتمَّ الألفاظ والمعاني استيفاء "لأقسام البراعة واوفرها نصيبا من كمال الصنعة ورونق الطِلاء". ويستطرد الثعالبي في وصف مؤلفي الكتب الذين سبقوه عن شعر المتقدمين وطبقاتهم ودرجاتهم وعَرْضهم نماذج من اشعارهم ويقول "وبقيت محاسن اهل العصر التي معها رداء الحداثة ولذة الجدة وحلاوة قرب العهد وازدياد الجَودة -على كثرة النقد- غير محصورة بكتاب يضم نشرها وينظّم شَذْرها ويشدُ أزرها ولا مجموعة في مصنَّف يقيد شواردها يخَّلد فوائدها... وقد كنت تصديت لعمل ذلك في

سنة اربع وثمانين وثلثمائة... والعمر في اقباله والشباب في مائه..."كل ذلك حفزه على القيام بهذه المهمة التي أدت في نهاية المطاف الى نشر يتيمة الدهر...

وكتب ابن رشيق في كتابه "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده" (ص١٦-١٧):

"فقد وجدتُ الشعر اكبر علوم العرب واوفر حظوظ الأدب واحرى ان تُقبَل شهادته وتُمثَّل ارادته... ووجدت الناس مختلفين فيه متخلفين عن كثير منه: يقدمِّون ويؤرخون. ويقلون ويكثرون. قد بوبوه ابوابا مبهمَة ولقبوه القابا مُتهَّمة. وكل واحد منهم قد ضَربَ في جهة وانتحل مذهبا هو فيه إمام نفسه وشاهد دعواه. فجمعت احسن ما قاله كل واحد منهم في كتاب ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه... وعولت في اكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري خوف التكرار ورجاء الأختصار إلاَّ ما تعلق بالخبر وضبطه بالرواية فأنه لا سبيل الى تغيير شيء من لفظه ومعناه". ثم يقول ابن رشيق "والكلام نوعان: منظوم ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة ورديئة. فأن إتَّفق الطبقتان في القدرة وتساوتا في القيمة ولم يكن لأحداهما فضل على الأخرى كان الحُكم للشعر ظاهرا في التسمية لأن كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه في معارف العادة". (الموازنة بين جيد الشعر ورديئه بنظر ابن رشيق سيأتي الحديث عنها في الفصل الثالث).

قال الجاحظ سمعت شيخا من مزينة يقول: لولا الذي كان من زهير من الفحش في هجائه بني اسد لما كان في الأرض اتم في مروءة شعره ولا اقصر ولا اقل تزيدا من زهير لأنه وصف الملوك والسوقة والفرسان والسادة بالذي يكون فيهم. وقال ابو الفرج الأصبهاني في كتاب الأغاني: "الثلاثة المتقدمون على الشعراء: أمرؤ القيس وزهير والنابغة لا اختلاف في انهم مقدمَّون على الشعراء كلهم. وانما الأختلاف في تقديم بعض الثلاثة على بعض". وقال ابو عبيدة: سئل يونس بن حبيب عن جرير والفرزدق والأخطل: أيهم اشعر؟ فقال: اجمعت العلماء على الأخطل. قال ابو عبيدة فقلت الى رجل الى جنبه

سله: ومن هؤلاء العلماء؟ فسأله. فقال: من شئت: ابن ابي اسحق وابو عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي وعنبسة الفيل وميمون الأقرن. هؤلاء طرقوا الكلام ومآثره لاكما تحكون عنه لابدويين ولا نحويين. قال ابو عبيدة فقلت للرجل سله: فبأي شيء فَضَّلَ الأخطل عليهم؟ فسأله: فقال: لأنه كان اكثرهم عدد قصائد طوال ليس فيها فُحش ولا سقط، وقال الكسائي: حضرت مجلسا للخليل بن احمد وقد جمع بينه ويونس بن حبيب عند العباس بن محمد في اللغات ومجازها ونوادر الأعراب ومذاهب العرب واخبارها... الى ان تذاكروا الأشعار والشعراء. فأكثر يونس بن حبيب من ذكر زهير وتقديمه. وذكر الخليل بن احمد النابغة وقدَّمه وعظَّم امره. فقال العباس بن محمد للخليل: بم تذكر النابغة؟ قال الخليل: النابغة اعذب على افواه الملوك وابسط قوافي شعر: كأن الشعر ثمرات تدانين من خلده فهو يجنيهن اختيارا. وله سهولة السبق وبراعة اللسان ونقاء الفطن لا يتوعر عليه الكلام لعذوبة مخرجه وسهولة مطلبه.

تنازع امرؤ القيس وعَلْقمة بن عبدة في الشعر: ايهما اشعر؟ فقال كل واحد منهما انا اشعر منك. فقال علقمة: قد رضيتُ بأمرأتك ام جُندُب حكماً بيني وبينك. فحكماها. فقالت ام جندب لهما: قولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة وروى واحد. فأنشداها جميعا. فقالت لأمرئ القيس: علقمة اشعر منك. فقال: ما هو بأشعر مني ولكنك له عاشقة. وطلقَّها فخلف عليها علقمة: فسمي علقمة الفحل لذلك. وقيل لخلف الأحمر: زهير اشعر ام ابنه كعب؟ قال: لولا ابيات لزهير اكبرها الناس لقلت ان كعبا اشعر. وقال بلال بن جرير سمعت ابي جريرا يقول: دخلت على بعض خلفاء بني امية فقال لي: ألا تُحدثني عن الشعراء.. فقلت بلى. ثم قال فمن اشعر العرب؟ قلت ابن العشرين -يعني طَرفَة-. قال: فما تقول بابن ابي سُلمى؟ والنابغة؟ قلت: كانا ينيران الشعر ويسديناه قال: فما تقول في امرئ القيس؟ قلت: اتخذ الخبيث الشعر نعلين يطأهما كيف شاء. قال: فما تقول في الأخطل؟ قلت: ما باح بما في صدره حتى مات. قال: فما تقول في الفرزدق؟ قلت بيده نبعة الشعر قابضا عليها. قال: فما ابقيت لنفسك؟

قلت: بلى: انا مدينة الشعر التي يخرج منها ويعود اليها. نَسبتُ فأطرفتُ وهجوتُ فأرديتُ ومدحت فأسنيت ورملت فأفرزت ورجزت فأنجزت. فأنا قلت ضروبا من الشعر لم يقلها احد قبلي. وقال الشّعبي دخلت على عبد الملك بن مروان وبين يديه رجل ابيض الرأس واللحية. فسلمت فرد علي السلام. ثم أومأ الي بقضيبه فقعدت عن يساره. ثم اقبل على الذي بين يديه فقال له ويحك: من اشعر الناس؟ فقال الرجل: انا يا أمير المؤمنين – وكأنه يتم حديثا بدأ فيه–. قال الشعبي: فأظلم ما بيني وبين عبد الملك. ولم اصبر ان قلت: ومن هذا يا أمير المؤمنين الذي يزعم انه اشعر الناس؟ فعجب عبد الملك من عَجَلتي قبل ان يسألني عن حالي. فقال: هذا هو الأخطل.

قال العُتبي حضر مجلس هشام بن عبد الملك سُبَّة بن عقال وخالد بن صفوان والفرزدق وجرير والأخطل. فقال هشام –وكان يومئذ أميراً– ألا تخبروني عن هؤلاء الذين مزقوا اعراضهم وهتكوا استارهم وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولا بِرّ ولا نفع ايهم اشعر؟ فقال: سُبَّة: أما جرير فيغرف من بحر. وأما الفرزدق فينحت من صخر. وأما الأخطل فيجيد المدح والفخر. فقال له هشام: ما فسّرت لنا شيئا نحصله. فقال ابن عقال فما عندي غير ما قلت. فقال هشام لخالد بن صفوان: صفهم لنا يا ابن الأهتم. فقال: اما اعظمهم فخرا وابعدهم ذكرا واحسنهم عذرا واشدهم نيلا واقلهم غزلا واحلالهم عللا: الطامي اذا زخر والحامي اذا زأر والسامي اذا خطر: الذي اذا هدر قال وان خطر صال: الفصيح اللسان الطويل العنان: فالفرزدق. وأما احسنهم نعتا وامدحهم بيتا واقلهم خوفا الذي ان هجا وضع او مدح رفع فالأخطل. وأما أغزرهم بحرا وارقهم شعرا واهتكهم لعدو سترا: الأغر الأبلق الذي ان طلب لم يُسبق وان طلب لم يلحق فجرير. وكلهم ذكي الفؤاد رفيع العماد وارى الزنّاد.

قال ابو حاتم السِّجستاني: سألت الأصمعي عن الأعشى –اعشى بني قيس بن ثعلبة – أفحل هو؟ قال ليس بفحل. فقلت له: ما معنى الفَحْل؟ قال: الذي له مزية على غيره. وسأل عِكرمة أباه جريراً: من اشعر الناس؟ قال: أعن الجاهلية تسألني ام الأسلام؟ قال

ما اردت الا الأسلام. فاذا ذكرت الجاهلية فأخبرني عن اهلها. قال: زهير شاعرهم. فقلت: فالأسلام؟ قال الفرزدق: نبعة الشعر بيده. قلت: فالأخطل؟ قال: يجيد مدح الملوك ويعيب صفة الخمر. قلت: فما تركت لنفسك؟ قال: دعني فاني نحرتُ الشعر نَحرا. وقيل ان الصلتان العبدي انشد –وقد جعلوا اليه الحُكم بين الفرزدق وجرير– قصيدته العينية التي جاء فيها:

سأقضي قضاءً بينهم غيرَ جائر
فهل انتَ للحُكم المُبيّن سامعُ

قضاءَ امرئ لا يتقّي الشتم منهمُ
وليس له في المدح منهم مَنافِعِ

قضاءَ امرئٍ لا يرتشي في حكومة
اذا مال بالقاضي الرَّشا المطامِعُ

فان يك بحرُ الحنظليين واحداً
فما يستوي حيتانُه والضفادع

وما يستوي صَدر القناة وزَجلها
وما يستوي شمَّ الذّرى والأجادع

ألا انما تحظى كليبٌ بشعرها
وبالمجد تحظى دارمُ والأفارع

أرى الخَطفي قد بزّ الفرزدقَ شعرهُ
ولكنَّ خيرا من كليب مجاشع

وقد يجْحَدُ السيف الدوان بجفنه
وتلقاه رثا غِمدهُ وهو قاطع

يناشدني النصرَّ الفرزدقُ بعدما
ألحَّت عليه من جرير صوامع
وقالت كليبٌ قد شرفنا عليهم
فقلت لها شُدّت عليك المطالع

ولما بلغ الأخطل تهاجي الفرزدق وجرير قال لأبنه انحدر الى العراق حتى تسمع منهما وتأتيني بخبرهما. فانحدر ثم اتاه بعد ان سمع منهما فقال "جرير يَغرِف من بحر. والفرزدق يَنحت من صخر". فقال الأخطل: جرير اشعرهما. وقيل ان مجلسا عند بشر بن مروان -وكان يُغري بالشعراء- ضم جريرا والفرزدق والأخطل. فقال بشر للأخطل: احكم بين الفرزدق وجرير. فقال الأخطل: أعفني ايها الأمير. فقال بشر: احكم بينهما. فاستعفاه الأخطل بجهد. فأبى إلاَّ ان يقول الأخطل شيئا. فقال الأخطل: هذا حكم مشؤوم. "الفرزدق ينحت من صخر. والأخطل يغرف من بحر" فلم يَرض جرير بذلك. وبدأت المهاجاة بينهما. ومن طريف ما يروى في هذا الصدد ان رجلين في عسكر المهلَّب بن ابي صفرة (وهو يحارب الخوارج) تنازعا في جرير والفرزدق. فصارا الى المهلب وسألاه. فقال لا أقول فيهما شيئا -وكره ان يُعرّض نفسه لسُخط احدهما- ثم قال: ولكني ادلكما على من يهون عليه سُخطهما. فدلّهما على عبيدة بن هلال (وكان يومئذ في عسكر قَطري بن الفُجاءة). فأتياه فوقفا حيال عسكر الخوارج. فناداه. فخرج يجر رمحه وظن انه انما دُعي لمبارزة. فقالا له: ايهما اشعر؟ أجرير ام الفرزدق؟ فتبَّسم وقال عليكما لعنة الله وعليهما. قالا نُحب ان تخبرنا ثم نصير الى ما نريد. فقال الذي يقول في صفة الخيل:

وطوَى القيادُ مع الطِّراد بطونّها
طَيَّ التّجار بحضر موتَ بُرودا

قالا: جرير. قال هو اشعرهما. وذكر ابن سلاَّم الجُمحي انه سأل يوما مروان بن ابي حفصة عن جرير والفرزدق والأخطل. فقال مروان: أحكم في الثلاثة بشعر فان الكلام يرويه كل قوم بأهوائهم. ثم انشد:

ذَهبَ الفرزدقُ بالفخار وانما

حلوُ الكلام ومُرُّه لجرير

ولقد هَجا فأمض اخطلُ تَغلُب

وحوى النّهى بقريضه المشهور

كلُ الثلاثة قد اجاد فمَدحُه

وهجاؤه قد سار كلَّ مسير

قال ابو حاتم السجِّستاني: لمَّا قدم الأصمعي من بغداد دخلت اليه فسألته عمن بها من رواة الكوفة. قال: رواة غير منقحين. انشدوني اربعين قصيدة لأبي داود الأباري قالها خلف الأحمر. وهم قوم تعجبهم كثرة الرواية: اليها يرجعون وبها يفتخرون. وقد ختموا الشعراء بمروان بن ابي حفصة. ولو ختموهم ببشار بن برد كان اخلق. وانما مروان من اقران سلم الخاسر. وقد تزاحما بالشعر في مجالس الخلفاء وسوى بينهما في الصلة.

وسلم معترف لبشار. ولقد كان بشار يقدم شعر مروان. وقال ابو حاتم فقلت للأصمعي ان ابا زيد الأنصاري يرى ان مروان اجد وان بشارا اهزل. فقال: بشار يصلح للجد والهزل. ومروان لا يصلح الا لأحدهما.

وروى وهب بن مسلم عن اميه قال: دخلت مسجد النبي مع نوفل بن مساحق فمررنا بسعيد بن المسيب. فسلمنا عليه. فرد علينا السلام. ثم قال لي: يا أبا سعيد من اشعر؟ صاحبنا ام صاحبكم؟

-يريد عمر بن ابي ربيعة وعبيد الله بن قيس الرَّقيَّات-.

فقال ابو سعيد: حين يقولان ماذا؟ قال حين يقول صاحبنا:

خليليَّ ما بالُ المطايا كأنَّها
تراها على الأدبار بالقوم نُكَّصُ
وقد اتعب الحداي سُراهنَّ وانتحَى
بهن فما يألوعجولٌ مُقلَّص
يَزدُن بنا قرباً فيزدادُ شوقُها
اذا زاد قرب الدار والبعد ينقص

ويقول صاحبكم ما شاء.. فقال له نوفل: صاحبكم اشعر بالغزل. وصاحبنا اشعر بأكثر افانين الشعر. فلما انقضى ما بينهما: قال سعيد بن المسيب استغفر الله اكثر من مئة مرة. وسئل ذو الرمة عن اشعر الناس فقال لبيد. وقال الكميت: عمرو بن كلثوم اشعر الناس. وقال نصيب: اخو تميم اشعر الناس- يعني علقمة بن عبدة (علقمة الفحل). وسئل بعضهم عن ابي نواس ومسلم بن الوليد فقال ان ابا نواس اشعر تصرفه في اشياء من وجوه الشعر وكثرة مذاهبه فيه. اما مسلم فقد جاء شعره على وتيرة واحدة لا يحيد عنها.

حَكَى الصاحب بن عبد في صدر رسالته التي وضعها عن شعر ابي الطيب المتنبي قال: حدثني محمد بن يوسف الحجاوي قال: حضرت بمجلس عبيد الله بن عبد الله بن طاهر. وقد حضر البحتري. فقال له عبيد الله يا أبا عُبادة أمسلم اشعر ام ابو نواس؟ قال: ابو نواس. فقال عبيد الله: ان العباس احمد بن يحيى ثعلبا لا يوافقك على هذا. فقال البحتري: ايها الأمير. ليس هذا من علم ثعلب واضرابه من يضبط الشعر ولا يقوله. فأنما يَعرف الشعر من دفع الى مضايقه. فقال عبيد الله: وريَّتَ زندي يا ابا عبادة. ان حكمك في ابي نواس ومسلم وافق حكم ابي نواس في جرير والفرزدق. فأنه سئل عنهما ففضل جريرا. فقيل له ان ابا عبيدة لا يوافقك على هذا. فقال ليس هذا من علم ابي عبيدة وانما يعرفه من دفع في مضايقه. وروى الصاحب بن عبّاد في رسالته المشار اليها

عن الجاحظ انه قال: "طلبتُ علم الشعر عند الأصمعي فوجدتُه لا يعرف الا غريبه. فرجعتُ الى الأخفش فألفيتُه لا يتقن إلاّ اعرابه. فعطفتُ على ابي عبيدة فرأيته لا يتُقن الا ما اتصل بالأخبار وتعلّق بالأيام والأنساب. فلم اظفر بما اردتُ إلاّ عند ادباء الكتاب كالحسن بن وَهْب ومحمد بن عبد الملك الزيات". وذكر الأصمعي ان ابا عمرو بن العلاء – وقد سأله يوما رجل وانا اسمع – أ النابغة اشعر ام زهير؟ فقال: ما يصلح زهير ان يكون اجيرا للنابغة. وسئل احمد بن محمد الناشي عن المتنبي فقال: لقد اركبه سيف الدولة في غير سرجه. وقال ابو الحسن علي بن هرون المنجِّم: حضر احمد بن طاهر مجلس ابي –بعد ان أخل به اياما– فعاتبه. فقال احمد كنت متشاغلا باختيار شعر امرئ القيس. فأنكر ابي عليه هذا القول وقال له: أما تستحي من هذا القول.. وأيُّ مرذول في شعر امرئ القيس حتى تحتاج الى اختياره.. وقال نوح بن جرير: بينا أنا آكل مع ابي يوما وفي يده لُقمة وفي فيه اخرى قلت له: يا أبت أأنت اشعر ام الأخطل؟ فجرض اللقمة التي فيه ورمى التي في يده وقال: يا بني. لقد سررتني وسؤتني. فأما سرورك اياي فلتعاهدك مثل هذا وسؤالك عنه. واما ما سؤتني به فذكرك رجلا قد مات. يا بنّي – والله– لو ادركني الأخطل وله ناب آخر لأكلني. ولكن اعانتني عليه خصلتان: كِبَر سن وخُبث دين.

وذكر الصَّولي قال: حدَّثني الحسين بن اسحق قال قلت للبحتري: الناس يزعمون انك اشعر من ابي تمام. فقال: والله ما ينفعني هذا القول ولا يضر ابا تمام. والله ما اكلت الخبز إلا به ولو دريت ان الأمر كما قالوا. ولكني تابع له لائذ به آخذ منه. نسيمي يركد عند هوائه وارضي تنخفض عند سمائه. وذكر ابو الغوث بن البحتري: كان ابي يقول لا ارى ان أكلّم من يُفضل جريرا على الفرزدق ولا اعده من العلماء بالعشر. فقيل له: وكيف ذلك؟ وكلامك اشد انتسابا الى كلام جرير منه الى كلام الفرزدق.. فقال كذا يقول من لا يعرف الشعر. وقال احدهم رآني البحتري ومعي دفتر شعر. فقال لي: ما هذا؟ قلت شعر

الشَّنفري. فقال لي: والى اين تمضي؟ قلت الى ابي العباس ثعلب. فقال: قد رأيت ابا عباسكم هذا منذ ايام عند ابن ثوابة. فما رأيته ناقدا للشعر.

-٥-

كل الذي ذكرناه -وما يجري مجراه وهو كثير وطريف مختلف ومتناقض احيانا- يُردّ بشكل لا يقبل الجدل او الشك- كما ذكرنا في مطلع هذا الفصل -الى نزعات فردية ذات طابع ذاتي. وقد عرضنا تلك الآراء دون تعليق او مناقشة لتعذر ذلك بفعل طغيان المشاعر الفردية والنوازع الذاتية. ومن طريف ما يروى بصدد عمق اثر العوامل الذاتية في مثل هذه الأمور ما ذكره ابو بكر الصولي الذي قال: كان ابن الأعرابي يأمر بأن يُكتب جميع ما يجري في مجلسه. فأنشده رجل يوما أرجوزة ابي تمام في وصف السَّحاب على انها لبعض العرب. فاستحسنها ابن الأعرابي وامر بتدوينها. فلما كتبوها قيل له: انها لحبيب بن أوس (وكان ابن الأعرابي يمتعض منه) فقال مزقوها: مزقوها لا جرم ان اثر الصنعة فيها بيّن.

وفي اختتام هذا الفصل نود ان نشير الى فقرات وردت في كتاب الموازنة بين الطائيين ابي تمام والبحتري لأبي القاسم قس بن بشر بن يحيى الآمدي المتوفي سنة ٣٧١هـ.

"ولست احب ان اطلق القول بأيهما اشعر عندي لتباين الناس في العلم واختلاف مذاهبهم في الشعر. ولا ارى لأحد ان يفعل ذلك فيستهدف لذم احد الفريقين لأن الناس لم يتفقوا على اي الأربعة اشعر: في امرئ القيس والنابغة وزهير والأعشى. ولا في جرير والفرزدق والأخطل. ولا في بشار ومروان. وفي ابي نواس وابي العتاهية ومسلم. لاختلاف آراء الناس في الشعر وتباين مذاهبهم فيه".

الفصل الثالث

فـــن الشعـــر

وجهة النظر الفلسفية

أ- ارسطو طاليس

-١-

صنف اصحاب الأختصاص من المعنيين بدراسة ارسطو طاليس (٣٨٤- ٣٢٢ق. م.) آثاره الفكرية المدونة (باللغة اليونانية -بالطبع-) عند نضجه الفلسفي بصورة خاصة الى ثمان مجموعات (متلاحمة متكاملة ومتبادلة الأثر) تبدأ بالمنطق ثم فلسفة الطبيعة فعلم النفس فعلم الأحياء فعلم ما وراء الطبيعة ثم علم الأخلاق فالسياسة وتنتهي بفن الخطابة ثم فن الشعر.

-٢-

يذكر مؤرخو ارسطو طاليس -بأجماع الآراء- ان كتابه الموسوم "فن الشعر" -الذي جاء تسلسله الزمني بعد كتابه "فن الخطابة" يقع -في تصنيفهم مؤلفاته- ضمن مؤلفاته "المستورة": اي التي لم ينشرها على هيئة كتاب بل جمعت بعد وفاته بفترة زمنية من "مسودات" محاضرات القاها على طلابه (لا تخلو من الأقتضاب في بعض المواقع ومن الأستطراد في بعض آخر بعد خلل في التنظيم واضطراب او تفكك في التنسيق والتتابع). وقد حصل ذلك على ما يبدو لكون ارسطو طاليس لم يقصد في الأصل نشرها كما ذكر ولحيلولة وفاته دون اعدادها للنشر والأشراف على ترتيبها وتصحيحها. ولعل ذلك من ابرز العوامل التي اتبعت دارسي كتاب "فن الشعر". وكتاب "فن الشعر" هذا يعبّر عن اهتمام ارسطو طاليس من حيث هو ظاهرة اجتماعية مهمة. وهو -من هذه الناحية على ما يبدو محاولة لتلافي النقص.

في فلسفة استاذه افلاطون (٤٢٨ ق.م- ٣٤٨ق.م) الذي شجب الشعر بوصفه من عوامل إفساد المجتمع وتضليل الناشئة. ومن هذه الناحية فهو غير جدير بالدراسة.

كما ان الكتاب من وجوه كثيرة أُخَر -صدى لمنزلة الشعر في المجتمع اليوناني القديم بنظر المواطنين، وبنظر الدولة ايضاً التي أدلته عنايتها الى درجة لا تقل عن عنايتها بالسياسة او الحرب وعلى هذا الاساس فقد اعتبرت احاطة المواطن بالشعر، من اولى ضرورات تربيته.

يتضح إذنْ -كما بيّنا- ان "فن الشعر" لم يكن في الاصل النشوئي، إلاَّ مجموعة محاظرات لا تخلو من التسرع والارتجال، ألقاها ارسطو طاليس على طلابه في الاكاديمية: أي انه ليس كتاباً بالمعنى المتداول او المتعارف عليه. ويلوح انه في الأساس مذكرات عامة كان ارسطو طاليس ليس يستعين بها في اثناء القائه المحاضرة. ولهذا جاء -بعد النشر- مهلهلاً، ومفككاً، ومضطربة التنسيق والتسلسل من حيث محتواه ونضره، ومن ناحية التسلسل المنطقي لأجزائه. وقد يكون الكتاب المنشور منسوخان عن مذكرات أحد الطلاب أو مجموعة من الطلاب دوّنها في اثناء الدرس. وهذا هو الذي يفسر - جزئياً في الاقل- وجدد استطراءات في قضايا لا لزوم لها واقتضاب في امور جوهرية كانت بحاجة ماسة الى التوسع والتوضيح، ومع ذلك فان القاريء المتمعن للكتاب، يخرج منه بحصيلة فكرية متوازنة. والكتاب -بأُجماع آراء الباحثين- هو اول كتاب من نوعه في تاريخ الشعر عند الانسان. والكتاب -كما يبين ايضاً- ردٌّ ضمني على رأي افلاطون في الشعر. فقدْ ازدرى افلاطون الشعر والشعراء واعتبرهما من عوامل تخريب المجتمع، وتضليل الناشئة. ولهذا فقد دعا الى نبذ الشعر ن واعتباره يقع خارج اطار المجتمع المتحضر لما ينطوي عليه من مباديء اخلاقية فاسده ضاره بكيان المجتمع وسلامة تفكير ابنائه. والذي عندي في هذه المسألة ان رأيي الفيلسوفين مستمران -في الاصل- من مبادئهما الفلسفية المتضاربة التي نكتفي هنا بمجرد الاشارة اليها -رغم اهميتها- لان البحث فيها يقع خارج نطاق دراستنا هذه.

-٣-

لا شك في ان رأي ارسطو طاليس بالشعر ذو علاقة وثيقة بوجهة نظره السايكولوجية فيما يتعلق بحصول الفرد على المعرفة. فالطفل يولد - بنظر ارسطو طاليس -خلوًّا من كل فكر وان كان قادرا على الأتصال الحسي بالعالم المحيط به (فهو يسمع الأصوات -وان لم يفهم معانيها في اول الأمر في حد ذاته او من نفسه. ويشم الروائح ويتذوق ويلمس الأشياء ويراها. فتحصل عنده بالتدريج المعرفة الحسية (وهي بنظر ارسطو طاليس ادنى مراتب المعرفة). ثم ترتقي مداركه بفعل القوة المتخيلة فيتخيل ما يشاهده حسيا او يسمع صوته او يشم رائحته او يلمسه او يتذوقه. وقد يتسرب الوهم الى الذهن في هذه المرحلة -الوسطى من مراحل تطور المعرفة عند الأنسان- فتصبح معرفته "وهمية" ثم ترتقي مداركه بفعل العقل الى مستوى المعرفة اليقينية (المقلية).

وعلم النفس -بنظر ارسطو- وثيق الصلة- من ناحية نظرية المعرفة التي اوجزناها- بعلم المنطق الذي يشمل برأيه: التصديق (اليقين) والظن والوهم. كما يرتبط بما سماه ارسطو طاليس الصناعات الخمس: صناعة البرهان وصناعة الجدل وصناعة المغالطة (السفسطة) وصناعة الخطابة وصناعة الشعر.

وهذه جميعا ذات علاقة متينة واثر متبادل بعلم الأخلاق (بالفضيلة) والفضيلة عند ارسطو طاليس جميلة بطبيعتها. ويجب ان تكون كذلك لا محالة على ما يقول. وهي خير في حد ذاتها والفضيلة -على هذا الأساس- جديرة بالمدح. وهي سجية (مَلَكَة- بفتحتين): بمعنى ان الميل نحوها نزعة غريزية متأصلة بطبيعة الأنسان. وللفضيلة عدة جوانب متعددة تعبر فيها عن نفسها. وهذه الجوانب المتعددة (او الأجزاء التي تتألف منها الفضيلة) هي: العدل والشجاعة والسخاء والعفة وضبط النفس والمروءة والحلم. والجوانب المار ذكرها ليست متكافئة الأهمية او القيمة من ناحية اثرها في الناس. واكثرها اهمية اوسعها اثرا ايجابيا في الناس. ومن هذه الزاوية كان العدل -الذي اساسه

العقل والحكمة -والشجاعة تقعان في القمة وتأتيان في المقدمة. ثم يأتي السخاء فالعفة فضبط النفس فالمروءة والحلم. والفضيلة -بجوانبها المتعددة- حالة وسطى (معتدلة) بين رذيلتين: فالشجاعة مثلا تقع بين رذيلتين (هما التهور والجبن) والسخاء يقع بين رذيلتين (هما التبذير والتقتير). وهكذا. والفضيلة بطبيعتها تستحق المدح والأطراء كما ذكرنا. والرذيلة تستحق الشجب او الهجاء. (ووظيفة الشعر كما سنرى مدح الفضيلة وهجاء الرذيلة).

-٤-

لقد ذكرنا الصناعات الخمس بنظر ارسطو طاليس (صناعة البرهان، صناعة الجدل، صناعة المغالطة، صناعة الخطابة، صناعة الشعر). ونود ان نبين الان -بأقصى حد من الأيجاز والتركيز- ان صناعة البرهان تؤدي دائما وابدا بنظر ارسطو طاليس الى المعرفة اليقينية وذلك عن طريق مقدمات صادقة موثوق بصحتها فتؤدي حتما الى نتائج صادقة وموثوق بصحتها. أما صناعة الجدل فتؤدي- عند النقاش وتبادل الرأي -الى معرفة ظنية بنظر ارسطو طاليس لأنها لا تستند الى مقدمات صادقة وموثوق بصحتها. فالمعرفة الاتية عن طريقها تحصل عن طريق استخدام الحجج التي تقدم اثناء الجدل. واما صناعة المغالطة (السفسطة) فتؤدي الى معرفة وهمية مموهّة ومضللة عن طريق استخدام مقدمات: مضللة مموهة: مغلوطة. واما صناعة الخطابة فتؤدي الى حصول معرفة غير يقينية ولا ظنية بل عن طريق الأقناع الناجم عن براعة الخطيب. واما الشعر فلا يؤدي الى المعرفة بل الى معلومات تخيلية لا أساس لها من الواقع. ومن هذه الزاوية فان الصناعة الشعرية لا تؤدي الى معرفة وان كانت في المستوى الأدنى (الذي تؤدي اليه صناعة الخطابة). ومن هذه الزاوية فان صناعة الخطابة وصناعة الشعر مقصورتان على طبقة العامة (الأدنى في السلم الأجتماعي عند اليونان الأقدمين) اي التي تقع في قعر السلم الأجتماعي الذي يمثل الفلاسفة قمته. والشعر - من هذه الزاوية من ناحية

طبيعته اللاعقلية- يكون عميق الأثر في مشاعر العامة ويجعلها اكثر تقبلا لما يوحي لها به واكثر طيشا واندفاعا في تصرفاتها.

فالبرهان اذن يمثل القطب الأعلى في هذا السلم التصاعدي والشعر يمثل القطب الأدنى. ولغة البرهان تمثل المستوى الأعلى للدقة. وينعكس الأمر في لغة الشعر المفعمة بالغموض وبالمجاز.

وعلى الأساس المشار اليه يقسم ارسطو طاليس القول (الكلام) من حيث طبيعته واهميته ودقته من الناحية المنطقية - الى خمسة انواع (تطابق الأنواع الخمسة للصناعات التي مر بنا ذكرها).

القول البرهاني : الذي موضوعه الحق.

القول الجدلي : الذي موضوعه " الاحتمال".

القول السفسطائي: الذي غرضه التمويه او المغالطة.

القول الخطابي : الذي موضوعه الأقناع.

القول الشعري : الذي موضوعه ماهو خرافي : التمثيلي:

تخيلي : لا واقعي.

- ٥ -

وفي ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول - مرة اخرى لأغراض التوضيح والتبسيط - : ان نظرية ارسطو في الشعر جزء لايتجزأ من وجهة نظره الفلسفية العامة في تفسير طبيعة الكون والمجتمع والأنسان - في ضوء المعرفة السائدة في زمانه- في المجتمع اليوناني القديم في العصور الخمسة الأولى قبل الميلاد. وقد تطرق ارسطو طاليس في كتابه " فن الشعر" (او بالأحرى في الأقسام التي وصلتنا منه) الى مزايا خصائص الشعر (اليوناني الشائع آنذاك) - وبالتحديد عن نمطين من انماطه الثلاثة: المأساة والملهاة (المهزلة) . وربط ارسطو طاليس شعر المديح بالنمط الأول منهما ما ربط شعر الهجاء

بالنمط الثاني. واغفل اغفالا تاما النمط الثالث من الشعر اليوناني القديم (الشعر الغنائي) الذي يتناول اغراضا أخر غير المديح والهجاء).

يعتبر ارسطو طاليس الشعر ضربا من ضروب المحاكاة (محاكاة الطبيعة). والمحاكاة بنظره ذات ثلاثة جوانب مترابطة ومتبادلة الأثر ومتميزة عن بعضها.

هي: اداة المحاكاة والغرض من المحاكاة والأسلوب المتبع في المحاكاة (الأداة والغرض والأسلوب). وقد ربط ارسطو طاليس ربطا محكما بين الشعر والرقص والموسيقى. والمحاكاة عنده تختلف اختلافا نوعيا وجذريا عن المحاكاة بالمعنى المألوف الشائع في علم النفس (النسج على منوال الآخرين بتعقل او قصد).

والأنسان - بنظر ارسطو طاليس - يميل بفطرته الى الشعر. وان ميل الأنسان الغريزي نحو الشعر يرتبط بميله نحو المحاكاة الذي هو ايضا فطري في طبيعته من جهة كما يرتيط نحو ميله نحو الشعر - من جهة ثانية- بحب الأستطلاع والميل نحو التعرف على الأشياء وبالميل الفطري نحو الأيقاع والأنسجام كل ذلك مهد بنظره الى نشوء الشعر الذي هو ضرورة للنفس البشرية (بفعل نزعتيها الفطريتين: النزعة نحو المحاكاة والميل الى الأنسجام والأيقاع). والمحاكاة - من جهة نظره- هي التي تميز الأنسان- عن سائر الأحياء. وهي نزعة متأصلة قبل الولادة كما بينا. ولولاها لاستحال التعرف على البيئة. وفي عملية اكتساب المعرفة يشعر الأنسان بلذة نفسية ايضا كما يظن ارسطو طاليس . وما يصدق على المحاكاة -في هذا الصدد- يصدق ايضا على اللحن والأيقاع والأنسجام.

لقد انقسم الشعر منذ بداية نشوئه- على ما يقول ارسطو طاليس - الى قسمين متنافرين هما شعر المديح (الثناء الذي تطور فأفضى الى المأساة من ناحية وشعر الهجاء الذي تطور فأدى الى نشوء الكوميديا (الملهاة) من ناحية اخرى. وهما اعلى مراتب تطور الشعر. وانقسام الشعر الى مديح وهجاء ناجم في الأصل بنظره من طبائع الشعراء انفسهم. فالشعراء ذوو الطبائع الفاضلة او النفوس الخيرة او النبيلة

بدأوا بمحاكاة الأبطال والصفات النبيلة واعمال الفضلاء فأنشأوا المدائح والأناشيد وانعكس الأمر لدى الشعراء ذوي النفوس الشريرة الخسيسة الذين اخذوا بمحاكاة والأوغاد او الأدنياء فأنشأوا الأهاجي.

ولغة الشعر بنظره لابد ان تكون مجازية . وللشاعر الحق ان يبتدع تعابير لغوية خاصة به مهلهلة: غير دقيقة تستثير المشاعر ولاتخضع الى التفكير والمحاكمة المنطقية لأنها موجهة نحو العامة التي ينعدم عندها العقل بالمعنى الفلسفي الأرسطو طاليسي فتستسلم لمشاعرها وهذا هو جوهر فن الشعر بنظره واساس الأقاويل الشعرية.

-٦-

لقد كان كتاب " فن الشعر" بأجماع آراء مؤرخي حياة ارسطو وفلسفته وبأجماع آراء مؤرخي الفلسفة والشعر – أقدم وثيقة معروفة لدى النوع الأنساني عن الشعر عموما وعن الشعر اليوناني القديم بصورة خاصة. وقد ترجم الكتاب منذ بداية نشره باللغة اليونانية الى اللغات الأوربية الأكثر انتشارا في اول الأمر وفي مقدمتها اللغة الألمانية والفرنسية والانكليزية ثم انتشرت ترجمته الى سائر اللغات الأوربية منذ بداية القرون الوسطى وطبعت منه الاف النسخ واعيدت طباعته مئات المرات . ثم ترجم الى لغات كثيرة اخر وبضمنها اللغة العربية كما سنرى عند التحدث عن فن الشعر عند الفلاسفة المسلمين بعد قليل. ومازال كتاب ارسطو متداولا بين المعنيين بدراسة الشعر في كثير من الأقطار.

ب: الفلاسفة المسلمون

-١-

يبدو من دراسة الوثائق التاريخية المتوافرة لدينا باللغة العربية (وفي مقدمتها كتاب الفهرست لأبن النديم وكتاب طبقات الأطباء لأبن ابي اصيبعة) ان كتاب " فن الشعر" لأرسطو طاليس قد قام بترجمته الى اللغات العربية عدد من المعنيين بشؤون الترجمة في القرنين الثالث والرابع للهجرة. كما يبدو ايضا ان بعض هذه الترجمات قد تم من اليونانية الى العربية احيانا وان بعضا آخر جرى بمرحلتين من اليونانية الى السريانية ثم من السريانية الى العربية. كما يبدو ايضا- عن طريق الترجيح لا اليقين- ان الذي تولى الترجمة من اليونانية الى العربية مباشرة هو اسحق بن حنين المتوفي ٢٩٨هـ (و ربما ايضا ابنه من بعده حُنين بن اسحق). في حين ان الذي تولى الترجمة من اليونانية الى العربية عبر السريانية هو ابو بشر مَتّي بن يونس القَنّائي (المتوفَى ٣٢٨هـ) ولأبي بِشر هذا مناظرة طريفة في موضوع الموازنة بين الفلسفة والنحو جرت مع ابي سعيد السيرافي النحوي سنة ٣٢٠هـ في مجلس الوزير ابي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ذكر نصها ياقوت الحموي في معجم الأدباء- كما يبدو ايضا ان هناك ترجمة اخرى لكتاب ارسطو المار ذكره (ابوطيقا – يعني الشعر- كما ورد في الفهرست لابن النديم) قام بها ابو زكريا يحيى بن عدّي (الذي التمس – كما يقول ابن النديم في الفهرست)- من ابراهيم بن عبد الله نص كتاب سوفسطيقا ونص كتاب الخطابة ريتوريكا ونص كتاب ابوطيقا يعني الشعر بنقل اسحق بن حنين بخمسين درهما. فلم يبعها ابراهيم إبن عبد الله . وحرقها وقت وفاته).

ولابد من التأكيد مرة اخرى الى أنَّ الصعوبات الكبيرة والكثيرة التي يعانيها المختصون في عملية الترجمة من لغة الى اخرى في اية لغة وفي اي زمان او مكان وفي اي موضوع من الموضوعات وبخاصة في مجال الأدب والشعر حيث تكثر التعابير المجازية الخاصة بكل لغة على انفراد. وقد لاحظنا ان عملية الترجمة من اللغة اليونانية الى

العربية قد اخذت نمطين متباينين: احدهما النقل او التعريب المباشر من اليونانية الى العربية والآخر عن طريق لغة وسيطة هي السريانية. وقد تعذرت الدقة في النقل- بدرجات متفاوتة- في كلتا الحالتين. هذا بالأضافة - بالطبع- الى كون الذين تولوا الترجمة لم يكونوا - على مانعلم- من ذوي الاختصاص العالي في اللغة العربية ذاتها وربما ايضا في اللغة اليونانية وبطبيعة الموضوعات التي أخذوا على عاتقهم ترجمتها. وهناك قضية اخرى- لاتقل اهمية عما ذكرناه بصدد صعوبة الترجمة في الحالتين المشار اليهما - فطنَ اليها الصَّلاح الصفَدي تتعلق بقضية اسلوب الترجمة ذاته سواء أكان عن طريق النقل المباشر من اليونانية الى العربية او عَبرَ اللغة السريانية. قال الصِلاح الصفَدي واصفا الطريقتين المتبعتين آنذاك: " وللتراجمة في النقل طريقان: احدهما طريق يوحنا بن البطريق وابن الناعمة الحمصي وغيرهما. وهو ان ينظر الى كل مفردة من الكلمات اليونانية وما تدُلّ عليه من المعنى. فيأتي بلفظة مفردة من الكلمات العربية ترادفها في الدَّلالة على ذلك المعنى فيثبتها وينتقل الى الأخرى كذلك حتى يأتي على جملة ما يريد تعريبه. وهذه الطريقة رديئة لوجهين: احدهما: أنه لايوجد في الكلمات العربية كلمات تقابل جميع الألفاظ اليونانية على حالها. والثاني ان خواص التركيب والنسب الاسنادية لاتطابق نظيرها من لغة اخرى دائما. وايضا يقع الخلل من جهة استعمال المجازات وهي كثيرة في جميع اللغات . اما الطريق الثاني في التعريب- وهو طريق حنين إبن اسحق والجوهري وغيرهما- فهو ان يأتي بالجملة فيحصل معناها في ذهنه ويعبر عنها من اللغة الأخرى بجملة تطابقها سواء ساوت الألفاظ ام خالفتها. وهذا الطريق اجود. ولهذا لم تحتج كتب حنين بن اسحق الى تهذيب. الا في العلوم الرياضية لأنه لم يكن قيّما بها. بخلاف كتب الطب والمنطق الطبيعي والالهي فان الذي عربه منها لم يحتج الى اصلاح. فأما اقليدس فقد هذبه ثابت بن قرة الحراني. وكذلك المجسطي والمتوسطات بينهما.

وضع الفلاسفة المسلمون وبخاصة الفارابي(٢٥٧-٣٣٩هـ) وابن سينا (٣٧٠-٤٢٨هـ) وابن رشد تلخيصات متعددة ومختلفة احيانا في كثير من محتوياتها لكتاب ارسطو طاليس مزجوها بآرائهم الخاصة في الشعر العربي. وهي تلخيصات ذات قيمة تاريخية كبيرة وان لم تكن غير وافية بالمروم من بعض الوجوه (بمعنى انها مبتورة او ناقصة ولاتخلو من الغموض) تفتقر الى الدقة اذا ماقورنت بالنصوص المترجمة الى بعض اللغات الأوربية كالألمانية والفرنسية (والانكليزية وهي الترجمة التي استندنا اليها في الأصل للألمام بآراء ارسطو في الشعر).

-٣-

ذكر ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا في كتاب الشفاء العبارات التالية: "هذا هو تلخيص القدر الذي وجد في هذه البلاد من كتاب "الشعر" للمعلم الأول – يعني ارسطو طاليس – وقد بقي منه شطر صالح. ولايبعد ان نجتهد نحن فنبتدع في علم الشعر المطلق وفي علم الشعر بحسب عادة هذا الزمان كلاما شديد التحصيل والتفصيل. وأما ههنا فلنقتصر على هذا المبلغ فأن وكد غرضنا الأستقصاء فيما ينتفع به من علوم."وذكر ابو نصر الفارابي في ملاحظاته التي اندرجت تحت عنوان: "رسالة في قوانين صناعة الشعر" مايلي: " وقصدنا – في هذا القول- اثبات اقاويل وذكر معان تفضي بمن عرفها الى الوقوف على ما اثبته الحكيم – يعني ارسطو طاليس- في صناعة الشعر من غير ان نقصد الى استيفاء جميع مايحتاج اليه في هذه الصناعة وترتيبها اذ الحكيم – يعني ارسطو طاليس- لم يكمل القول في صناعة المغالطة فضلا عن القول في صناعة الشعر. ولو رمنا اتمام الصناعة التي لم يرم الحكيم اتمامها – مع فضله وبراعته – لكان ذلك مما لايليق بنا. فالأولى بنا ان ان نومىء الى ما يحضرنا في هذا الوقت من القوانين والأمثلة والاقاويل التي ينتفع بها في هذه الصناعة." وكتب ابن رشد في تلخيصه لكتاب ارسطو طاليس العبارات التالية: " الغرض- في هذا القول- تلخيص ما في كتاب ارسطو طاليس في الشعر من القوانين الكلية المشتركة لجميع الأمم او للأكثر اذ

كثير مما فيه هي قوانين خاصة بأشعارهم وعاداتهم فيها اما ان تكون نسبيا موجودة في كلام العرب او موجودة في غيره من الألسنة."

يتضح اذن ان ماوصل الى الفلاسفة المسلمين من كتاب " فن الشعر" لأرسطو طاليس لم يكن وافيا بالمروم من ناحية المحتوى على كل حال. كما انه لم يكن ايضا وافيا بالمروم - كما رأينا قبل قليل- من ناحية الدقة في النقل الى العربية سواء أكان ذلك عن اليونانية مباشرة أم عبر اللغة السريانية. (لأن الذين قاموا بالترجمة مع كفاءتهم وجهودهم التي نقدرها حق قدرها لم يكونوا من ذوي الأختصاص الدقيق بالفلسفة عموما وبفلسفة ارسطو طاليس على وجه التحديد. هذا بالأضافة الى تعذر وجود معاني واحدة او متقاربة للمصطلحات في اللغتين المترجم عنهما وفي اللغة العربية). ولهذا فان القارئ لايخرج (كما يقول الدكتور عبد الرحمن بدوي في ترجمته كتاب فن الشعر لأرسطو /دار الثقافة/ بيروت/ ١٩٧٣ ص٥٦) " من هذه التلخيصات التي وضعها الفارابي وابن سينا وابن رشد الا بشعور أليم لضياع الأمل في ان يكون العرب قد افادوا منه- يعني كتاب فن الشعر لأرسطو طاليس - كما افادت منه اوربا في عصر النهضة وكما افادوا هم انفسهم من سائر مؤلفات ارسطو في اخصاب الفكر العربي. ويخيل الينا انه لو قدر لهذا الكتاب- يعني كتاب فن الشعر لأرسطو- ان يفهم على حقيقته وان يستثمر ما فيه من موضوعات وآراء ومبادئ لغني الأدب العربي بادخال الفنون الشعرية العليا فيه وهي المأساة والملهاة منذ عهد ازدهاره في القرن الثالث الهجري ولتغير وجه الأدب العربي كله. ومن يدري فلعل وجه الحضارة العربية كله يتغير طابعه الأدبي كما تغيرت اوربا في عصر النهضة.."

ونحن- مع اعتزازنا برأي صديقنا واستاذنا الدكتور عبد الرحمن بدوي نظن ان فيه كثيرا من المغالاة وتبسيطا- ولانقول تشويها- لحقائق التاريخ. وآراء ارسطو في الشعر وفي الفلسفة عموما- مع اهميتها الكبرى في تاريخ الفكر في زمانها- قد فات اوانها منذ القرن السادس عشر الميلادي بالنظر للتبدل الجذري الهائل في الفكر الأنساني

من ناحية تفسير طبيعة الكون والمجتمع والأنسان (في ضوء آراء كوبرنكس وغاليلو ونيوتن ودارون وآنشتاين وفي اعقاب نشوء الهندسات اللااقليدسية والمنطق الرياضي- وهي امور نكتفي بمجرد الأشارة اليها رغم اهميتها لأنها تقع خارج اطار كتابنا هذا). معنى هذا- بعبارة اخرى- ان عوامل تغير الفكر الأوربي منذ عصر النهضة الأوربية لاتعود- بنظرنا - من قريب او بعيد الى كتاب فن الشعر لأرسطو طاليس ولا الى انتشار فلسفة ارسطو طاليس نفسها بل الى نشوء الفكر العلمي الجديد الذي اشرنا اليه. وانه لمن الغريب حقا ان يغيب عن بال استاذنا الفاضل الدكتور عبد الرحمن بدوي الأثر السلبي الذي تركه الفكر الأرسطو طاليسي في الفكر الأوربي في القرون الوسطى عندما اتخذته الكنيسة الكاثوليكية - ومن ورائها السلطة الزمنية السياسية -سلاحا حادا لقمع الفكر النيّر واضطهاد العلماء والمفكرين على اساس ان ارسطو طاليس كان اول المبشرين بالمبادئ المسيحية في نفسير طبيعة الكون والمجتمع والأنسان. فقد اصدر مثلا " مجلس ادارة شؤون باريس (برلمان باريس) في ١٦٢٤/٧/٢٤ (بتحريض من الكنيسة) امرا بأنزال عقوبة الأعدام بكل من يحمل آراء تخالف آراء ارسطو طاليس. واصدر البابا في الفاتيكان امرا بتحريم الكتب التي تتعارض مع آراء ارسطو طاليس. واوغلت محاكم التفتيش في اضطهاد المفكرين وفي ملاحقتهم وايذائهم.

-٤-

يجمع الفلاسفة المسلمون على القول ان الأنسان يولد مفطورا على النطق الذي آلته اللسان. ولكنه يحتاج منذ الولادة الى من يقوم نطقه ويصلحه ليكون كلامه منسجما مع سياق اللغة التي يتعلمها ممن حوله. ويولد الأنسان ايضا- بنظرهم- مفطورا على التفكير لاتصافه بامتلاك قوة عاقلة مفكرة منذ الولادة. ولكنه ايضا يحتاج منذ الولادة الى من يقوم فكره ويقيه من الزلل وارتكاب الأخطاء ولتفادي الظن ماليس بعلمة علة وماليس ببرهان برهانا وماليس بنتيجة نتيجة. وهكذا . كما ان الأنسان قد

يتوصل الى رأي فاسد من مقدمات فاسدة ولهذا فهو بحاجة ماسة الى من يصحح افكاره ويرشده الى طريق الأستنباط السليم ويدربه على تنظيم افكاره وتعديلها. وعلم المنطق هو الأداة التي يستعين بها الأنسان لتصحيح افكاره ولتجنب الوقوع في الخطأ. وهذا يعني - بنظرهم المستمد في الأصل من ارسطو طاليس ان المنطق لايعلم الأنسان التفكير - الذي هو سجية فيه منذ الولادة كما ذكرنا قبل قليل- بل هو يرشده الى التفكير السليم . وبعبارة اشمل: يعلم علم المنطق الأنسان القواعد العامة للتفكير الصحيح. فالمنطق عندهم هو " علم الميزان او المعيار" - من الوزن والعيار-.

ويجمع الفلاسفة المسلمون ايضا بشكل صريح او ضمني- في ضوء آراء ارسطو طاليس السايكولوجية - ان لكل عضو من اعضاء الجسد قوة من "قوى" النفس تختص به وتدير شؤونه وتفعل به افعالا خلاف ما تفعله اية "قوة" اخرى مختصة بعضو آخر ، و " القوة" هذه هي بمثابة " النفس" - الجريئة- لذلك العضو، مثال ذلك " القوة" الباصرة فأنها " نفس" العين. و "القوة" السامعة هي نفس الأذن. و" القوة" الذائقة هي نفس اللسان. و" القوة" الشامة هي نفس الأنف. وهكذا . وعلى هذا القياس سائر الأعضاء من ناحية " القوى" النفسانية التي تديرها. وهناك ايضا بنظرهم - بالأستناد الى فلسفة ارسطو طاليس او بعبارة ادق في ضوء علم النفس عنده- خمس قوى روحانية كامنة في طبيعة الأنسان هي : القوة المتخيلة والقوة المفكرة والقوة الحافظة والقوة الناطقة والقوة الصانعة. والقوى الخمس هذه كالمتعاونات في ادراكها رسوم المحسوسات. فالقوة المتخيلة (التي هي اساس الشعر من الناحية السايكولوجية بنظر ارسطو طاليس كما رأينا قبل قليل)اذا تناولت رسوم المحسوسات وقبلتها في ذاتها كما يقبل الشمع نقش الفص فأن من شأنها او تناولها الى القوة المفكرة من ساعتها. فاذا غابت المحسوسات عن مشاهدة الحواس لها بقيت تلك الرسوم مصورة صورة "روحانية" في ذاتها - يعني في ذات او نفس القوة المتخيلة- كما يبقى نقش الفص في الشمع المختوم مصورا ولكن بصورة روحانية مجردة عن هيولياتها. ثم ان من شأن

القوة المفكرة ان تنظر الى ذاتها وتراها معانية وتتروى فيها وتميزها وتبحث عن خواصها ومنافعها ومضارها ثم تؤديها الى القوة الحافظة لتحفظها الى وقت التذكار. ثم ان من شأن القوة الناطقة – التي مجراها اللسان- اذا ارادت الأخبار عنها والأنباء عن معانيها في الجواب للسائلين عن معلوماتها ألفّت لها الفاظا من حروف المعجم وجعلتها كالسمّات لتلك المعاني في ذاتها وعبّرت عنها للقوة السامعة من الحاضرين. ولما كانت الأصوات لاتمكث في الهواء الا ريثما تأخذ المسامع حظها منها ثم تضمحل فقد قيدت تلك الألفاظ بصناعة الكتابة. ثم ان من شأن القوة الصانعة ان تصوغ لها من الخطوط والأشكال بالأقلام وتودعها وجوه الألواح وبطون الطوامير ليبقى العلم مفيدا فائدة من الماضين الاولين للآخرين وخطابا من الحاضرين الى الغائبين. والقوة المفكرة هي من بين القوى الروحانية كالملك. وسائرها كالجنود والأعوان والخدم والرعية يتصرفون بأمرها ونهيها فيما يعملون في اعضاء الجسد من الحركات وما يظهرون من الصنائع والأعمال. وان اعمال القوى الروحانية اشرف واكرم من افعال سائر القوى.

-٥-

الشعر بنظر الفلاسفة المسلمين صناعة لفظية تتعاطاها جميع الأمم بدون استثناء. والشعر يستثير المشاعر الأيجابية (كالبهجة والسرور والتفاؤل والحماسة) ويستثير ايضا المشاعر السلبية (كالحزن والألم والحقد والخوف). والشعر عندهم يستند الى القوة المتخيلة.اما اركانه فهي الوزن المخصوص عند العروضيين والقافية المعروفة في علم القيافة. وللوزن بنظرهم اعظم الأثر في عملية التخيل واثارة الأنفعالات لأن فيه النغمة الموسيقية التي تلهب الشعور وتحفز النشاط. معنى هذا ان الكلام الموزون المقفى يفعل في النفس مالا يفعله الكلام المنثور. وعلى هذا الأساس فالوزن والقافية ينبغي دائما وابدا ان يعتبرا من مقومات الشعر لا من محسناته توابعه. غير ان جوهر الشعر يكمن في عملية التخيل. وكلما كان التخيل اقوى تأثيرا في النفوس كان اكثر

نجاحا في تحقيق غرضه. معنى هذا ان الكلام المنظوم المقفى لابد ان يحتوي على عنصر التخيل ليصبح شعراً. وفي حالة انتفاء عنصر التخيل في الكلام المقفى المنظوم فان هذا لايدخل في باب الشعر بنظرهم. وهذا يتّضح مثلا في حالة نظم حوادث تاريخية او قضايا علمية ثقافية ووزن ولكن بدون عملية تخيل. فالتخيل بنظرهم اذن هو قوام الشعر من ناحية اساسه السايكولوجي. ومن هذه الزاوية فان البون الشاسع بنظرهم بين مشاهدة الشيء في واقعه وبين تخيل صورته في الذهن. ومن الجهة الثانية فقد نظر الفلاسفة المسلمون الى الأوزان الشعرية في ضوء ارتباطها الدقيق بنمط المشاعر المراد اثارتها في هذه اللحظة او تلك وفي هذا الموقف او ذاك، فبعض الأوزان يستلزم الوقار والهدوء وبعض آخر يؤدي الى الحزن او الألم او الشَّجى. وبعض ثالث يدفع الى الطيش والمغامرة. وما يصدق على الوزن من هذه الناحية يصدق ايضا على الألفاظ المستخدمة في الشعر فهناك الفاظ غليظة غاضبة. وهناك حزينة او رقيقة منعشة، وهكذا. واذا تم اداء الوزن الشعري الملائم للحالة المعينة للحن يناسبه ونغمة تلائمه والفاظ تنسجم معه وغني به بصوت رقيق اثناء الأنشاد كان ذلك اكثر ايقاعا واعمق تأثيرا في النفوس وبخاصة اذا انسجمت النغمة مع الصوت. وفي الشعر دائما توجد انغام ملائمة تعبر مثلا عن الغضب او النقمة او الحزن او الفرح ومايجري مجراها. فاذا تطابقت النغمة والوزن بانسجام تضاعف اثر الشعر في التخيل.

والشعر – بنظرهم من حيث محتواه- لايخرج عن كونه اقاويل كاذبة (بمعنى متخيلة لا واقعية) ومادام القصد الأمثل من الشعر هو التأثير في النفوس – واثارة مشاعرها – فلا يشترط فيه ان يكون صادقا اذ ليس الغرض الأسمى منه الأعتقاد او التصديق بل اثارة المشاعر. واذا كان الأمر كذلك فان الشعر لايخضع لقاعدة عامة واحدة مشتركة معترف بها ويمكن الرجوع اليها عند اختلاف الرأي . وهو لايخضع ايضا لعلم البرهان او الأقناع بل للمخيلة. ومن اجل هذا زعم العرب (او شعراؤهم) بأن لكل شاعر شيطانا يلقي عليه الشعر. وتخيله بعضهم شخصا يمثل له ودعاه باسم معين.

- ٦ -

لقد حاول الفلاسفة المسلمون " تطويع" الفلسفة التي اقتبسوها في الأصل من الفكر اليوناني القديم وبخاصة من ارسطو طاليس الذي ترجمت آثاره الفلسفية البارزة الى اللغة العربية بشكل مباشر احيانا وعن طريق الترجمة من اليونانية الى السريانية ثم الى اللغة العربية. ومع ذلك فان الاختلاف بين الفلاسفة المسلمين والفقهاء كان حادا ومحتدما . كما ظهر ذلك الاختلاف ايضا في موقف كل منهما من الشعر. فقد تمسك الفقهاء بما ورد في التنزيل (سورة الشعراء مثلا)" والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل واد يهيمون. وأنهم يقولون مالايفعلون. "في حين ان الفلاسفة المسلمين اخذوا بنظرية ارسطو في الشعر والشعراء ذات الفحوى المغاير.

يبدو من النصوص التي سنذكرها بعد قليل انهم لم يشغلوا انفسهم الا عرضا ونادرا ربما باستثناء ابن رشد الى حد ما- بدراسة تفصيلية مستفيضة للشعر العربي كما فعل غيرهم ممن سيأتي ذكرهم في الفصل القابل من فصول هذا الكتاب.ولهذا فلم يستشهدوا بنصوصه ولم يحكموا عليها حكما دقيقا مستوعبا بل ركزوا جل اهتمامهم- في ضوء ماذكره ارسطو طاليس – في محاولة الكشف عما سموه قوانين الشعر المطلقة التي تشترك به جميع الأمم كما زعموا. وقد اتضح ذلك بأجلى اشكاله عند ابن سينا. يضاف الى ذلك انهم اعتبروا الشعر – دون وجه حق- فرعا من فروع المنطق (وهو ادنى مستوياته كما رأينا) . تماما كما فعل قبلهم ارسطو طاليس: (الذي وضع الشعر في المرتبة الخامسة من مراتب المنطق وهي ادناها: البرهان: الجدل: السفسطة: الخطابة: الشعر) كما ان الفلاسفة المسلمين نسجوا على منوال ارسطو طاليس – من الناحية السايكولوجية – في تفسير طبيعة ما اطلقوا عليه اسم " المتخيلة" باعتبارها – بنظرهم- "قوة" من " قوى النفس" قادرة على استعادة المحسوسات واعادة ترتيبها من جديد بالتفريق والجمع او التأليف على نحو يشابه محسوساتها او يختلف عنها وقد يناقضها في كثير من الأحيان. يضاف الى ذلك ان المخيلة عندهم -كما هي عند ارسطو

طاليس ليست قادرة على الأبتكار (اختراع صور جديدة قد لايستند الى الحس وربما تناقضه وان اعتمدت في الأصل عليه في نشوئها ولكنها ارقى منه). معنى هذا ان "القوة" المتخيلة عندهم وظيفتها السايكولوجية في الأساس – وفي الشعر بالطبع التي هي منطلقة – استعادة (تصور : تخيل) صور الأمور المادية المحسوسة الآتية من البيئة المحيطة بالأنسان (الشاعر في هذه الحالة)واعادة تأليفها او تركيبها باشكال متعددة مختلفة او متباينة بالموازنة بالأشياء المادية المحسوسة. وهي أرقى منها بالطبع كما ذكرنا ولكنها بطبيعتها دون المعرفة العقلية وذلك لأن المعرفة المتخيلة- الشعرية- وثيقة الأرتباط في الأصل النشوئي بالمحسوسات التي انبثقت عنها في حين ان المعرفة العقلية بنظرهم تستمد وجودها من المجردات والمطلقات اللاحسية. وهذا هو الذي يجعل المعرفة المتخيلة عرضة للوقوع في الخطأ بعكس المعرفة العقلية بنظرهم. يضاف الى ذلك ان المعرفة الحسية ترتبط بالأمور الجزئية المتفرقة وغير الموثوق بصحتها ولهذا نجد "القوة" المتخيلة لاتستطيع التمييز بين الخطأ والصواب ولا بين الجميل والقبيح. كما انها (بحكم ارتباطها بالانفعالات وبالغرائز) فأنها تعجز عن الوصول الى المعرفة اليقينية الموثوق بصحتها (البرهانية: التي هي من خصائص العقل وحده).

يتضح اذن ان الفلاسفة المسلمين يفترضون على وجه العموم من ناحية طبيعة المعرفة (كما فعل ارسطو طاليس قبلهم) وجود ثلاثة مستويات للادراك الانساني: اولها المستوى الحسي الذي لايميز بطبيعته بين الخطأ والصواب. واوسطها المستوى التخيلي المستند اليه الذي لايميز بين الخطأ والصواب بحكم ذلك الاستناد. وارقاها المعرفة العقلية: معرفة الكليات. وهذا يعني أن الأشياء تكون معلومة بالحس وبالتخيل وبالعقل وان المعرفة المتخيلة هي حلقة وسطى بين المعرفة الحسية والمعرفة العقلية. ولكنها ليست جسرا يربط بينهما ابدا. فالشيء قد يكون محسوسا عندما نحسه بأحد اعضاء الحس. ثم متخيلا عند غيابه بتصور او تخيل صورته. وقد يكون معقولا لا علاقة له بأي منهما. والفرق الرئيس بينها وبين هذه المستويات عندهم راجع في الأصل الى تفاوت

القدرة على التجريد بين الحس والتخيل والعقل. فالمعرفة الحسية اذن هي ادنى مراتب التعرف على البيئة لأنها تعتمد على آلة جسمانية (هي اعضاء الحس) وتتفاعل ايضا مع مواد محسوسة موجودة في البيئة المحيطة بالأنسان. أما المعرفة المتخيلة (الشعرية في هذه الحالة بالدرجة الأولى والأهم) فهي مهما ارتفعت عن الحس وعن المعرفة الحسية فانها مازالت متعلقة بهما معتمدة عليهما في ما يصلها عن طريق الآلة الجسمية من معلومات جزئية متناثرة حسية معرضة للخطأ لاستحالة قدرة اعضاء الحس على التمييز بين الخطأ والصواب. أما المعرفة العقلية فهي ارقاها لكونها معرفة يقينية وكلية وبرهانية لا حسية ولا متخيلية . وهذا يعني – بعبارة اخرى- ان "القوة" المتخيلة عند الأنسان هي "قوة" نفسانية تقع موقعا وسطا يفصل بشكل جذري وحاسم بين "القوة" الحسية وبين العقل الذي ينفرد ايضا بوجود معارف فكرية مجردة في صميم طبيعته لا علاقة لها من قريب او من بعيد بالمعرفة الحسية او المعرفة المتخيلة . والعقل وحده – كما ذكرنا- بمستطاعه تحقيق المعرفة اليقينية: الحقة: المطلقة.

ولابد من التنبيه- قبل الأنتقال الى ذكر تفاصيل آراء الفارابي وابن سينا وابن رشد في الشعر بالذات- الى أن هؤلاء الفلاسفة بالذات اهتموا بما سموه " القوة" المتخيلة عند الأنسان باعتبارها موجودة لدى كل الناس وحاولوا تفسير طبيعتها ووظيفتها دون ان يهتموا – الا عرضا- بهذه " القوة" النفسانية في ميدان الشعر وهو الموضوع الذي اخذوا على عاتقهم التحدث عنه. ويلوح ان اهتمامهم العرضي هذا في "القوة" المتخيلة في ميدان الشعر قد تركز – بالدرجة الأولى والأهم- بالأثر الذي تحدثه تلك " القوة" في نفس المتلقي لا في ذهن الشاعر. ولعل ذلك ناجم – بنظرنا- الى كون الذي كان يعنيهم في العملية الشعرية هو عملية التخييل لصلتها المباشرة بالدور الذي حددوه للشعر ان يقوم به وهو بنظرهم دور مهم في توجيه الأفعال الانسانية لكونه المحرك للسلوك الانساني في الأتجاه الذي يريدونه نحو الخير والفضيلة والتكامل في المجتمع الانساني الفاضل الذي تصوره الفلاسفة عموما.

-٧-

كتب ابو علي الحسين بن عبد الله بن سينا البخاري في كتاب الشفاء (الفن التاسع) في الشعر مطلقا واصناف الصيغ الشعرية واصناف الأشعار اليونانية مايلي:-

الشعر كلام مخيل يتألف من اقوال موزونة متساوية (وعند العرب: مقفاة). ومعنى كونها موزونة اي يكون منها عدد ايقاعي . ومعنى كونها متساوية هو ان يكون كل قول منها مؤلفا من اقوال ايقاعية : فأن عدد زمانه مساو لعدد زمان الآخر. ومعنى كونها مقفاة هو ان يكون الحرف الذي يختم به كل قول واحدا. ولانظر لعالم المنطق في شيء من ذلك بنظر -ابن سينا- اي ان الوزن والقافية لا شأن لهما بعلم المنطق. وانما يهم عالم المنطق من ناحية الشعر هو كونه كلاما متخيلا: اي في محتوى الشعر لا في تركيبه اللغوي: المادي. وذلك لأن الوزن مثلا- على مايظن ابن سينا- ننظر فيه - اما بالتحقيق والكلية- تصاحب الموسيقى. واما بالتجزئة وبحسب المستعمل عند امة تصاحب علم العروض. واما التقفية فينظر فيها صاحب علم القوافي. وهذا يعني ان صاحب علم المنطق ينظر في الشعر من حيث هو كلام مخيل. والمخيل هو الكلام الذي تذعن له النفس فتنبسط عن امور وتنقبض عن امور من غير روية وفكر واختيار. وبالجملة: تنفعل به انفعالا نفسانيا غير فكري: سواء اكان القول مصدقا به او غير مصدق. واذا كانت محاكاة الشيء بغيره تحرك النفس (وهو كاذب) فلا عجب ان تكون صفة (الشيء على ماهو عليه) تحرك النفس (وهو صادق). بل ذلك اوجب. غير ان الناس اطوع للتخيل منهم للتصديق. (وكثير من الناس اذا سمع التصديقات استكرهها وهرب منها). وذلك - بنظره- لأن للمحاكاة صفة او ميزة من التعجب يفتقر اليها الصدق: لأن الصدق المشهور المتداول المعروف كالمفروغ منه ولاطراوة له. كما ان الصدق المجهول - غير الشائع: الخفي- غير ملتفت اليه. ومع ذلك فان القول الصادق اذا حرف عن العادة المتبعة والحق به شيء تستأنس به النفس فربما افاد التصديق والتخيل معا احيانا وقد يشغل التخيل وحده عن الالتفات الى التصديق والشعور به احيانا أخر. والفرق بين

التخيل والتصديق هو ان التخيل اذعان للتعجب والألتزام بالقول ذاته في حين ان التصديق اذعان بقبول ان الشيء على ماقيل فيه. فالتخيل يفعله القول لما هـو عليـه. والتـصديق يفعله القول بما المقول فيه عليه (اي يلتفت فيه الى جانب وحال المقول فيه). معنى هذا - بعبارة اشمل- ان كلا من التخيل والتصديق هو في جـوهره اذعـان (خـضوع: قبـول: تسليم) ولكن الشيء مختلف ولهاجس نفسي مختلف ايضا عند ابن سينا. اما الشعر فقد يقال للتعجب وحده. وقد يقال لتحقيق اغراض اجتماعية ونفسية أخر. وعلى ذلك كانـت الأشعار اليونانية والأغراض الاجتماعية (المدنية) هي في احـد اجنـاس الأمـور الثلاثـة : التي هي- بتعبير ابن سينا- " الـشورية والمـشاجرية والمنافريـة" (وتـشترك الخطابـة والـشعر في ذلـك بنظـرة: ولكـن الخطابـة تـستعمل التـصديق. والـشعر يـستعمل التخيل.والتصديقات المظنونة محصورة متناهية ويمكن ان توضع انواعا ومواضع. امـا التخيلات والمحاكيات فلا تقع تحـصر ولا تحـد. والمحـصور هـو المشهور او القريـب. والقريب والمشهور غير كل ذلك المستحسن في الشعر. بل المستحسن فيه: المخترع: المبدع: المتخيل).

والعامل الأول المؤدي لحدوث الشعر او توليـده الكـامن في طبيعـة الانـسان او "قوته"النفسانية شيء يستند في الأصل - بنظر ابن سينا- الى عمليـة التلـذذ او الالتـذاذ بالمحاكاة واستخدامها منذ الصبا عند الانسان. وهذا هو مايميزه في الأصل عن الحيوانات الحجم من جهة وكون الأنسان اقدر على ممارسة المحاكاة من سائر الحيوانات. (وبعض الحيوانات لا محاكاة له بنظر ابن سينا. وبعـضها ذو محاكـاة يـسيرة: امـا بـالنغم او الصوت كالببغاء واما بالشمائل او الحركات كالقرد). أما العامل الثـاني المـؤدي لتوليـد الشعر فهو عند ابن سينا حب الانسان للتأليف المتقن والألحـان طبعـا (ثـم ان الـنفس البشرية وجدت الأوزان مناسبة للألحان فمالت اليها الأنفس بطبيعتها واوجـدتها علـى مايقول الرئيس ابن سينا). وهذا يعني بعبارة اخرى- ان هاتين العلتين قد ادتا الى نـشوء النزعة الشعرية التي اخذت بالنمو تدريجيا بحسب الطبائع البشرية المختلفـة المتباينـة

القوة. والطبيعة الشعرية هذه هي اكثر تولدا وقوة لدى المطبوعين من الشعراء الذين يرتجلون الشعر بالطبيعة او السليقة بنظره. و" الشعرية هذه تنبعث منهم بحسب غريزة كل واحد منهم وقريحته في خاصته وبحسب خلقه وعادته. فمن كان منهم اعف مال الى المحاكاة بالأفعال الجميلة ومما يشاكلها . ومن كان منهم أخشن نفساً مال الى الهجاء."

والشاعر - بنظر ابن سينا- يجري مجرى المصور: فكل واحد منهما محاك. والمصور يحاكي الشيء الواحد- اي يرسمه كما هو او يرسم ما يشابهه او يحاكيه - بالاستناد اما الى الاحساس المباشر به- كرؤيته مثلا- في حالة كونه موجودا امامه او في الحقيقة. واما عن طريق مايخبره عنه غيره ممن شاهده في مكان وجوده الحقيقي. واما عن طريق التخيل او الظن انه كذلك. أما المحاكاة عند الشاعر فتكون " بمقالة تشتمل على اللغات والمنقولات من غير التفات الى مطابقة من الشعر للأقاويل السياسية التعقلية فان ذلك من شأن صناعة اخرى. والشاعر يغلط من وجهين: فتارة بالذات وبالحقيقة (اذا حاكى بما ليس له وجود ولا امكانه. وتارة بالفرض الذي يحاكي به موجودا لكنه قد حرف عن هيئة وجوده. كالمصور اذا صور فرسا فجعل الرجلين - وحقهما ان يكونا مؤخرين- اما يمينين او مقدمين. وقد علمت ان كل غلط - اما بالصناعة وما ينسب لها واما خارج عنها وغير مناسب لها وكذلك في الشعر- وكل صناعة يخصها نوع من الغلط ويقابله نوع من الحل يلزم صاحب تلك الصناعة. واما الغلط غير المناسب فليس حله على صاحب الصناعة. فمن غلط الشاعر محاكاته بما ليس بممكن ومحاكاته على التحريف وكذبه في المحاكاة."

-٨-

وكتب ابو الوليد ابن رشد " الشرح الوسيط" : تلخيص كتاب ارسطو طاليس في الشعر:

الأقاويل الشعرية هي الأقاويل المخيلة. وانماط او اصناف او انواع التخييل والتشبيه بنظره ثلاثة: الأول والثاني بسيطان. اما الثالث فهو مركب منهما. وأحد البسيطين تشبيه شيء بشيء: او تمثيله به. اما باستخدام احد ادوات التشبيه - عند العرب- مثل كأن واما بأخذ التشبيه بعينه بدل التشبيه. وهو الذي يسمى الأبدال - في هذه الصناعة- على حد قول ابي الوليد. وذلك مثل قوله تعالى " وازواجه امهاتهم" ومثل قول الشاعر: " هو البحر من أيِّ النواحي اتيتَه". "وينبغي ان تعلم في هذا القسم تدخل الأنواع التي يسميها اهل زماننا استعارة وكناية."

والمحاكاة - في الأقاويل الشعرية بنظر ابي الوليد بن رشد - تعبر عن نفسها في احد جوانب ثلاثة هي النغم والوزن والتشبيه (مجتمعة او كل على انفراد). "واذا كان هكذا فالصناعة المخيَّلة - او التي تفعل فعل التخييل ثلاثة: صناعة اللحن وصناعة الوزن وصناعة عمل الأقاويل المحاكية. وهذه الصناعة المنطقية التي ننظر فيها في هذا الكتاب."

ثم يتحدث ابو الوليد بن رشد عن المديح والهجاء وعن اصحاب المدائح واصحاب الأهاجي حديثا مماثلا لحديث ابن سينا فقال : " وقد يجب- مع هذا - ضرورة ان يكون المحاكون للفضائل - اعني المائلين بالطبع الى محاكاتها- افاضلَ. والمحاكون للرذائل أنقّص طبعا من هؤلاء واقرب الى الرذيلة. وعن هذين الصنفين من الناس وجد المديح والهجو: اعني مدح الفضائل وهجو الرذائل. ولهذا كان بعض الشعراء يجيد المدح ولايجيد الهجو. وبعضهم بالعكس : اعني يجيد الهجو ولايجيد المدح. "ثم يستطرد فيقول " وان كانت اكثر اشعار العرب انما هي -كما يقول ابو نصر الفارابي - في النهم

والكريه وذلك ان النوع الذي يسمونه " النسيب انما هو حث على الفسوق. ولذلك ينبغي ان يتجنبه الولدان ويؤدبون من اشعارهم بما يحث فيه على الشجاعة والكرم."

وبصدد العوامل السايكولوجية والاجتماعية المؤدية الى نشوء الشعر فان ابا الوليد ابن رشد يسير ضمن الاطار العام الذي سار فيه قبله ابن سينا. فهناك عنده العامل الأول المؤدي او المؤكد للشعر الكائن في طبيعة الأنسان: الميل نحو المحاكاة او التشبيه. وهذا غريزي يوجد عند الناس وهم اطفال. وهو شيء يختص به الانسان من دون سائر الحيوانات. والعلّة في ذلك ان الانسان من بين سائر الحيوانات - بنظره- هو الذي يلتذ بالتشبيه للأشياء التي قد احسَّها بالمحاكاة. واما العامل الآخر فهو التذاذ الانسان ايضا- بغريزته او بطبيعته كما يقول ابو الوليد بن رشد- بالوزن والألحان. "فان الألحان يظهر من امرها انها مناسبة للوزن عند الذين في طباعهم ان يدركوا الأوزان والألحان. فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والألحان والأوزان هو السبب في وجود الصناعات الشعرية وبخاصة عند الفطر الفائقة في ذلك فاذا نشأت الأمة تولدت فيهم صناعة الشعر من حيث ان الأول يأتي منها اولا بجزء يسير ثم يأتي من بعده بجزء آخر. وهكذا الى ان تكمل الصناعات الشعرية وتكمل ايضا اصنافها بحسب استعداد صنف صنف من الناس للألتذاذ اكثر بصنف صنف من اصناف الشعر: مثال ذلك ان النفوس التي هي فاضلة وشريفة بالطبع هي التي تنشيء اولا صناعة المديح - اعني مديح الأفعال الجميلة. والنفوس التي هي أخسّ من هذه هي التي تنشيء صناعة الهجاء: اعني هجاء الأفعال القبيحة. وان كان قد يضطر الذي مقصده الهجاء للشرار والشرور ان يمدح الأخيار والأفعال الفاضلة ليكون قبح الشرور اكثر: اعني اذا ذكرها ثم يذكر بأزائها الأفعال القبيحة."

-٩-

وكتب ابو نصر الفارابي (محمد بن محمد بن طرخان) المعلم الثاني - باعتبار ارسطو طاليس عند الفلاسفة العرب هو المعلم الأول- في رسالته الموسومة " رسالة في قوانين صناعة الشعراء" مايلي:

" ان الألفاظ لاتخلو من ان تكون إمَّا دالَّة وامَّا غير دالَّة. والألفاظ الدالة : منها ماهي مفردة ومنها ماهي مركبة. والمركبة: منها ماهي اقاويل ومنها ماهي غير اقاويل. والأقاويل: منها ماهي جازمة ومنها ماهي غير جازمة. والجازمة: منها ماهي صادقة ومنها ماهي كاذبة. والكاذبة: منها مايوقع في ذهن السامعين الشيء المعبَّر عنه بدل القول. ومنها مايوقع فيه المحاكي للشيء - وهذه هي الأقاويل الشعرية. " وكتب ابو نصر الفارابي ماذكره اعلاه من تصنيف الألفاظ بشكل آخر من حيث التعبير عما قصده بالذات فقال: " وقد يمكن ان تقسم الأقاويل بقسمة اخرى وهي ان نقول: القول لايخلو من ان يكون اما جازما واما غير جازم. والجازم منه مايكون قياسا ومنه مايكون غير قياس. والقياس: منه ماهو بالقوة ومنه ماهو بالفعل. وماهو بالقوة: اما ان يكون استقرارا واما ان يكون تمثيلا. والتمثيل اكثر ما يستعمل انما يستعمل في صناعة الشعر.

فقد تبين ان القول الشعري هو التمثيل . " وحاول ابو نصر ايضا ان يعبر عن رأيه في تقسيم الكلام (الألفاظ او الأقاويل على حد تعبيره) بشكل آخر فكتب في رسالته المشار اليها مايلي : " وقد يمكن ان نقسم القياسات - وبالجملة الأقاويل - بقسمة اخرى فيقال: ان الأقاويل اما ان تكون صادقة لا محالة بالكل. واما ان تكون كاذبة لا محالة بالكل. واما ان تكون صادقة بالأكثر كاذبة بالأقل. واما عكس ذلك. واما ان تكون متساوية بالصدق والكذب. فالصادقة بالكل لا محالة هي البرهانية. والصادقة بالبعض على الأكثر هي الجدلية . والصادقة بالمساواة فهي الخطبية. والصادقة بالبعض على الأقل فهي السفسطائية. والكاذبة فهي الشعرية . وقد تبين من هذه القسمة ان القول الشعري هو الذي ليس بالبرهانية ولا الجدلية ولا الخطابية ولا المغالطية."

ثم ينتقل ابو نصر في ثنايا رسالته المشار اليها الى الحديث عن الأقاويل الشعرية بالذات- وهي موضوع الرسالة - فيقول:

" ان الأقاويل الشعرية إما ان تتنوع بأوزانها واما ان تتنوع بمعانيها. فأما تنوعها من جهة الأوزان فالقول المستقصى فيه انما هو لصاحب الموسيقى والعروضي- في اية لغة كانت تلك الأقاويل وفي اي طائفة كانت الموسيقى. واما تنوعها من جهة معانيها على جهة الاستقصاء فهو للعالم بالرموز والمعبر بالأشعار. والناظر في معانيها والمستنبط لها في أمة أمة. وعند طائفة طائفة. مثلما في اهل زماننا من العلماء بأشعار العرب والفرس الذين صنفوا الكتب في ذلك المعنى وقسموا الأشعار الى الأهاجي والمدائح والمفاخرات والألغاز والمضحكات والغزليات والوصفيات وسائر مادونوه في الكتب التي لايعسر وجودها مما يستغني عن الأطناب في ذكرها."

-١٠-

وخلاصة تعقيبنا على موقف ارسطو طاليس والفلاسفة المسلمين الضالعين معه انهم اعتبروا الشعر - دون وجه حق- جزءاً من اجزاء المنطق الخمسة التي ذكرناها (البرهان : الجدل: السفسطة - او المغالطة- : الخطابة: الشعر). اي ان الشعر يقع بنظرهم في ادنى مراتب علم المنطق (الذي وصفه ارسطو طاليس والذي فات اوانه كما بينا). وذلك لأن الشعر في ظنهم يعتمد من الناحية السايكولوجية الى المخيلة (التي هي بنظرهم - دون سند علمي - غير صادقة من ناحية ما تقدمه من معرفة غير موثوق بصحتها ولاتؤدي في آخر المطاف الى نتائج يقينية. فهي - من هذه الزاوية- على طرفي نقيض بالموازنة بالمعرفة اليقينية الصادقة التي يؤدي اليها البرهان. والبرهان - عندهم- ذو ثلاثة حدود - من الناحية المنطقية- هي : المقدمات والحدود الوسطى والنتائج الاستنباطات : الاستنتاجات). وجميعها بنظرهم حتمية الحدوث. من ذلك - مثلا وهو كثير بنظرهم - قولنا: كل انسان فان (المقدمات) ازيدٌ انسانٌ (الحدود الوسطى) اذن:

زيدٌ فان (الاستنباط). - وهذه معرفة يقينية : صادقة: موثوق بها- ويلي البرهان (في الوصول الى المعرفة الدقيقة القريبة من المعرفة اليقينية)الجدل الذي يرمي الى التوصل ايضا الى المعرفة الحقيقية. وابعدها عن تلك الحالتين السفسطة او المغالطة فالخطابة. وادناها الشعر.

لقد انهار منطق ارسطو طاليس هذا (المنطق الصوري او الشكلي) بفعل تقدم علم المنطق ذاته (المنطق العلمي التجريبي الذي تبلور منذ القرن الخامس عشر الميلادي من ناحية الوصول الى المعرفة الحقيقية الموثوق بصحتها).

وقد اجهز على منطق ارسطو طاليس المنطق الرياضي المشهور الذي نشأ في حقل الرياضيات منذ القرن الماضي. كما اجهزت عليه الهندسة اللااقليديسية والمنطق النسبي الذي اثبتته نسبية آنشتاين في علم الفيزياء منذ مطلع هذا القرن. كما انهار ايضا بفعل تبلور نظرية الكم في الفيزياء وجهود نيل بور وآخرين كثيرين من ابرز علماء الفيزياء المعاصرين. كل ذلك جعل منطق ارسطو طاليس مقصورا على قضايا بسيطة سائجة مألوفة بعيدة جدا عن طبيعة المعرفة العلمية الحديثة وعن الأسلوب المتبع للتوصل اليها والبرهنة على صحتها. ومايصدق على البرهان- في هذا الباب – وهو اقواها (بنظر ارسطو طاليس) يصدق ايضا على اجزاء المنطق الأرسطو طاليس الآخر. (وجميعها لا علاقة لها بالمنطق المعاصر من قريب او بعيد).

كل ذلك يعني – بعبارة اشمل- ان منطق ارسطو طاليس ينظر الى الحقيقة بوصفها شيئا مطلقا ثابتا ذا كيان واحد لايتطور ولايتبدل بتطور وتبدل معرفة الانسان. كما يعدّ الحقيقة والخطأ على طرفي نقيض في كل مسألة من مسائل الفكر والمعرفة لأن الفرق بين الخطأ والصواب يكمن في الاجابة عن المسألة المطروحة بكلمة واحدة: نعم او لا. هل الظاهرة الفلانية موجودة او غير موجودة؟ هل الشمس طالعة أم غائبة؟ هل توجد دائرة مرَّبعة؟ او مربع دائري؟هل زيد قصير او غير قصير؟ ومايجري هذا المجرى. مما لاشك فيه ان الاجابة الصحيحة عن هذه القضايا وماهو على شاكلتها مسألة في

غاية البساطة بالنسبة للخبرة والمشاهدة الحسية وفي مجرى الحياة اليومية المعتادة. ولكي يتوصل اليها الشخص فأنه على مانظن لايحتاج الى الالمام بمطق ارسطو. ومن الجهة الثانية فان منطق ارسطو طاليس كان من الناحية التاريخية وثيق الصلة بهندسة اقليدس المستعرية وبنظرية بطليموس في تفسير طبيعة الكون واليقين بسطحية الأرض وثبوتها.

غير ان التقدم العلمي الذي حصل منذ عهد كويرنكس وغاليلو ونيوتن في القرون الوسطى ثم التقدم العلمي اللاحق في الهندسة الأقليديسية ونظرية أنيشتاين ونظرية الكوانتم وفي الرياضيات العالية جعل التسليم بآراء ارسطو متعذرا إلا في مجالات نادرة جدا ومحدودة المدى. فالخط المستقيم مثلا اقصر بعد بين نقطتين اذا رسم على السبورة او الخارطة والخط المنحني اقصر بعد بين نقطتين اذا رسم على الارض (لاستحالة رسم خط مستقيم على سطح الأرض لأن سطح الأرض كروي) . ومصطلح "السفسطة" المنسوب الى السفسطائيين - لايعدو- بنظرنا- ان يكون " كلمة حق اريد بها باطل" لأن الفلاسفة اليونانيين السفسطائيين ليسوا مغالطين بل وصمهم بذلك افلاطون لأنهم افحموه بالحجج الدالة على تفنيد نظريته في " عالم المثل والأفكار" و " اسطورة الكهف" المعروفة في فلسفته. ولولا الأستطراد لتوسعنا في ذلك ولكونه ايضا يقع خارج اطار دراستنا هذه.

اما الشعر فقد جعله ارسطو طاليس في المرتبة الأدنى من مراتب علم المنطق . واقتفى الفلاسفة المسلمون اثره كما بينا. والمعرفة الشعرية معرفة متخيلة (كاذبة : غير موثوق بصحتها وليست معرفة يقينية). والشعر عندهم محاكاة واداة لأثارة المشاعر او الأنفعالات عند المتلقي لأحداث تبدل ملحوظ في سلوكه في هذا الاتجاه او ذاك. ومن هذه الزاوية كانت لغة الشعر فضفاضة مجازية تستثير العواطف. وهذا واضح لدى الفارابي في رسالته الموسومة "آراء في اهل المدينة الفاضلة" (المؤلفة - كالمنطق الذي استقاه من المعلم ارسطو طاليس او الحكيم بنظره مع تبديل في المراتب) من خمسة

انماط من البشر. الفضلاء (الحكماء: الفلاسفة) ذوو الآراء السديدة في عظائم الأمور. يليهم ذوو الألسنة (الوعاظ: والبلغاء : والخطباء والشعراء والملحنون والكتاب). ثم الحساب المقدرون والمهندسون والأطباء والمنجمون ثم المجاهدون (المقاتلون: حراس الوطن الشجعان وحفظته ضد العدوان). ثم الكسبة واصحاب الحرف مثل الفلاحين والرعاة . ومع ان الفارابي وضع الشعراء في المرتبة الثانية من مراتب المواطنين في مدينته الفاضلة (وان كانوا في منزلة ادنى من الوعاظ والبلغاء والخطباء). وعلى هذا الأساس اصبحت الأقاويل الشعرية اداة لمخاطبة العامة لاستنهاض همها واستدراجها عند الملمات للقيام بنشاط معين وتجنب نقيضه: (الحث على تعاطي الأفعال الحسنة والأبتعاد عن الرذائل وعن ممارسة الافعال الخسيسة) ومن هذا المنطلق يسهل علينا الكشف عن العوامل التي جعلت ابا نصر يقف موقفا سلبيا صارما من الشعر العربي الشائع في زمانه المفعم بالتكسب والمدح الزائف والهجاء غير اللائق والذي يحث على الفحش ويشجع على الفجور والخروج على الأخلاق الرفيعة كما يتضح ذلك في الغزل. ولهذا نجد الفارابي يدعو الى الأبتعاد عن تعليم الصبيان هذا النمط من الشعر. ويدعو - بدل ذلك- ان يتعلم الصبيان الشعر الذي يحث على الشجاعة والكرم وغيرهما من الفضائل المعروفة.

الفصل الرابع

فن الشعر

وجهات النظر غير الفلسفية

-١-

تصدت فئة كبيرة من المعنيين بدراسة فن الشعر عند العرب- من غير الفلاسفة الذين تحدثنا عنهم في الفصل السابق -وقد توصل هؤلاء بحكم انصرافهم لدراسة فن الشعر - كل بطريقته الخاصة وفي ضوء سليقته الأدبية وغزارة ثقافته الأدبية والشعرية- الى وضع قواعد عامة تفي - بنظره- للتمييز بين جيد الشعر ورديئه. واختلفت آراؤهم في هذا الباب (الى درجة التناقض احيانا وبخاصة فيما يتصل بتحديد الجيد من الشعر) رغم وجود جوانب عامة مشتركة ورغم كون المتأخرون منهم نسجوا في الأساس على منوال الذين تقدموا عليهم في الزمن وكون آراء المتأخرين منهم اكثر نضجا وتبلورا وتكاملا . وهم كثيرون ابرزهم - بنظرنا- : محمد بن سلام الحجمي: وابن قتيبة:وابن طباطبا: وقدامة بن جعفر: والحاتمي: والمرزباني: وابو هلال العسكري: والمرزوقي: وابن رشيق. وسوف نعرض موجز آرائهم في هذا الفصل وندلي برأينا في هذا الباب في الفصل الخامس. وقد اخذنا على عاتقنا التوصل الى وضع قواعد عامة للتمييز بين الجيد والأجود من الشعر لا بين الجيد والرديء كما فعل الذين ذكرنا اسمائهم قبل قليل. وسوف تختم دراستنا هذه بنماذج من الشعر الأجود بنظرنا في شتى ابواب الشعر.

-٢-

كتب محمد بن سلام الحجمي (١٣٩-٢٣١هـ) في كتابه الموسوم : طبقات فحول الشعراء: " ان للشعر صناعة وثقافة خاصة يعرفها اهل العالم كسائر اصناف العلم والصناعات : منها تثقفة العين ومنها تثقفة الأذن ومنها تثقفة اليد ومنها يثقفه اللسان. من ذلك اللؤلؤ والياقوت لاتعرفه بصفة ولا وزن دون المعاينة ممن يبصره. ومن ذلك الجهبذة بالدينار والدرهم لاتعرف جودتهما بلون ولا مس ولا طراز وسم ولاصفة. ويعرفه الناقد عند المعاينة: فيعرف بهَرْجَها وزائفها وستسوقها ومفرغها ومنه البصر

بغريب النخل والبصر بأنواع المتاع وضروبه واختلاف بلاده مع تشابه لونه ومسه وذرعه حتى يضاف كل صنف الى بلده الذي خرج منه.وكذلك بصر الرقيق: فتوصف الجارية فيقال: ناصعة اللون: جيدة الشطّب. نقية الثغر: حسنة العين والأنف: جيدة النهود: ظريفة اللسان . فتكون هذه الصفة بمئة دينار وبمئتي دينار. وتكون اخرى بألف دينار واكثر . ولايجد واصفها مزيداً على هذه الصفة..ويقال للرجل والمرأة في القراءة والغناء: انه لنديّ الحَلْق: طَلّ الصوت: طويل النَفَس: مصيب اللحن. ويوصف الآخر بغير هذه الصفة . وبينهما بون بعيد. يعرف ذلك العلماء عند المعاينة والاستماع له بلا صفة ينتهي اليها ولاعلم يوقف عليه. وكذلك الشعر يعلمه اهل العالم به."ثم يستطرد ابن سَّلام فيذكر وجهة نظره في جيد الشعر فيقول: " ففضلنا الشعراء من اهل الجاهلية والأسلام والمخضرمين اللذين كانوا في الجاهلية وادركوا الاسلام. فنّزلناهم منازلهم . واحتججنا لكل شاعر بما وجدنا له من حُجّة. وماقال فيه العلماء . وقد اختلف الناس والرواة فيهم... فاقتصرنا من الفحول المشهورين على اربعين شاعراً. فألفنا من تشابه شعرهم منهم الى نظرائه. فوجدناهم عشر طبقات: اربعة رَهْط في كل طبقة: متكافئين معتدلين. " ثم يذكر اسماء شعراء كل طبقة وينتقل بعد ذلك عن اصحاب المراثي.

-٣-

وكتب ابو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣-٢٧٦هـ) في كتابه الشعر والشعراء: " هذا كتاب الفتهُ في الشعراء اخبرت فيه عن الشعراء وازمانهم واقدارهم واحوالهم في اشعارهم وقبائلهم واسماء آبائهم ومن كان يعرف باللقب او بالكنية منهم وعما يستحسن من اخبار الرجل ويستجاد من شعره وما اخذه العلماء عليهم من الغلط والخطأ في الفاظهم او معانيهم وما سبق اليه المتقدمون فأخذه عنه المتأخرون. واخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها الى غير ذلك... وكان اكثر قصدي للمشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل اهل الأدب

والذين يقطع الأحتجاج باشعارهم في الغريب وفي النحو وفي كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأما من خفي اسمه وقلَّ ذكره وكسَدَّ شعره وكان لايعرفه الا بعض الخواص فما أقلَ من ذكرت من هذه الطبقة اذ كنت لا اعرف منهم إلا القليل ولا اعرف لذلك القليل ايضا اخبارا واذ كنت اعلم انه لا حاجة بك الى ان اسمي لك اسماء لا أدل عليها بخبر او زمان او نسب أو نادرة او بيت يستجاد او يستغرب. ولعلك تظن - رحمك الله- انه يجب على من ألف مثل كتابنا هذا الاّ يدع شاعرا قديما ولاحديثا إلا ذكره ودلك عليه وتقدر ان يكون الشعراء بمنزلة رواة الحديث والأخبار والملوك والأشراف الذين يبلغهم الأحصاء ويجمعهم العدد.. والشعراء المعروفون بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم- في الجاهلية والأسلام- اكثر من ان يحيط بهم محيط او يقف من ورائهم واقف."

ثم يستطرد ابن قتيبة فيقول: " تدبرت الشعر فوجدته اربعة أضراب: ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه... وضرب منه حسن لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى، وضرب منه جاد معناه وقصرَتْ الفاظه عنه... وضرب تأخَّر لفظه وتأخر معناه." ويستشهد ابن قتيبة بطائفة كبيرة من الأمثلة لتعزيز وجهة نظره في ضروب الشعر الأربعة المشار اليها. وينتقل ابن قتيبة- بعد ذلك وعلى اساسه- الى ماسماه: عيوب الشعر كالأقواء الأكفاء والسناد والاجازة والعيوب التي تحصل في الاعراب. وهذه جميعا تميّز بنظره الشعر الجيد عن الشعر الرديء.

-٤-

وكتب ابو الحسن محمد بن احمد المعروف بابن طباطبا العلوي المتوفى سنة ٣٢٢هـ- في كتابه عيار الشعر:

"وفقك الله الصوابَ وأعانَكَ عليه وَجنبك الخطأ وباعدك عنه وادام أنْسّ الآداب باصطفائك لها وحياة الحكمة باقتنائك اياها. فهمت- أحاطك الله-ماسألت ان اصفه لك

من علم الشعر والسبب الذي يتوصل به نظمه وتقريب ذلك الى فهمك والتأني لتيسير ماعسر منه عليك...وأنا مبين ماسألت عنه وفاتح ما يستغلق عليه منه. "ثم يقول ابن طباطبا: " الشعر كلام منظوم بائن عن المنثور الذي يستعمله الناس في مخاطباتهم بما خصَّ به المنظم الذي ان عدل من جهته مَجَّبتهُ الأسماع وفسد على الذوق. ونظمه معلوم محدود. فمن صَحَّ طبعه وذوقه لم يحتج الى الاستعانة على نظم الشعر بالعَروض التي هي ميزانه. ومن اضطراب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقديمه بمعرفة العروض والحِذّق به حتى تعتبر معرفته المستفادة كالطبع لاتكلُّف معه." يضاف الى ذلك- بنظر ابن طباطبا- ان تَوخِّي الجَودة في نظم الشعر يستلزم ايضا "الوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر والتصرف في معانيه في كل فَنَ قالته العرب فيه وسلوكَ مناهجها... وايفاءَ كل معنى حظه من العبارة والباسَه ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في احسن زِيّ وأبهى صورة واجتناب مايشينه... حتى لايكون متفاوتا مرفوعا. بل يكون كالسبيكة المفرغة والثوب والمُنمْنَم والعِقد المنظم واللباس الرائق."

ثم ينتقل ابن طباطبا في كتابه الصغير الحجم - عيار الشعر- فيقول بصدد العلاقة بين الألفاظ المستخدمة في الشعر وبين المعاني الشعرية التي تنطوي عليها تلك الألفاظ:" للمعاني الفاظ تشاكلها فتحسن فيها وتقبح في غيرها. فهي كالمعرض للجارية الحسناء التي تزداد حسنا في بعض المعارض دون بعض.. وكم معنى حَسَن قد شِيْنَ بمعرضه الذي أبرزَ فيه.وكم معرض حسن قد ابتُذِل على معنى قبيح ألبِسه." ثم يَشدد ابن طباطبا على التلازم بين اللفظ والمعنى فيقول " الكلام الذي لا معنى له كالجسد الذي لا روح فيه. وكما قال بعض الحكماء : للكلام جسد وروح. فجسده المنطق وروحه المعنى " وهذا التلازم برأيه هو مقياس الشعر الجيد بنظره فيقول: "فاذا كان الكلام الوارد على الفهم منظوما مصفّى من كدر العي مقوّما من أود الخطأ واللحن سالما من ضعف التأليف موزونا بميزان الصواب لفظا ومعنى وتركيبا اتسعتْ طرقه ولَطُعَتْ موالجه فَقَبِلَه الفهم وارتاح له وأَنِسَ به.

واذا ورد على ضد هذه الصفة وكان باطلا محالا مجهولا انسدت طرقه ونفاه الفهم واستوحش عند حسه به وصدى له وتأذى به كتأذي سائر الحواس".

وكتب ابن طباطبا - بعد عباراته التي استشهدنا بها: " والشعراء في عصرنا انما يثابون على مايستحسن من لطيف مايوردونه من معانيهم وبليغ ماينظمونه من الفاظهم وممتع مايوردونه من نوادرهم وانيق مانيسجونه من وشي قولهم دون حقائق مايشتمل عليه من المدح والهجاء وسائر الفنون التي يصرفّون القول فيها. فاذا كان المديح ناقصا عن الصفة التي ذكرناها كان سببا لحرمان قائله والمتوسل به. واذا كان الهجاء كذلك ايضا كان سببا لاستهانة المهجو به. "وكتب ايضا بصدد الابتعاد عن الغموض والابهام: " ينبغي للشاعر ان يتجنب الاشارات البعيدة والحكايات المغلقة والايماء المشكل ويعتمد ما خالف ذلك ويستعمل من المجاز ما يقارب الحقيقة ولايبعد عنها ومن الاستعارات مايليق بالمعاني التي يأتي بها.

-٥-

وكتب قدامة بن جعفر (٢٦٥-٣٣٥هـ) في كتابه المسمى نقد الشعر - الذي طور فيه محاولة ابن طباطبا التي مر بنا الحديث عن اسسها العامة: -

" العلم بالشعر ينقسم انقساما : فقسم ينسب الى علم عروضه ووزنه.وقسم ينسب الى علم قوافيه ومقاطعه. وقسم ينسب الى علم غريبه ونعته. وقسم ينسب الى علم معانيه والمقصد به. وقسم ينسب الى علم جيده ورديئة." ثم ذكر قدامة بن جعفر ان المختصين بدراسة الشعر من الذين سبقوه ركزوا اهتمامهم في الأعم الأغلب على الأقسام الأولى الأربعة من الشعر (القوافي: المعاني: الغريب اللغوي فيه: العروض والوزن) واهملوا الكتابة في موضوع التمييز بين جيده ورديئه . ثم قال "وكان الكلام عندي في هذا القسم أولى بالشعر من سائر الأقسام المعدودة لأن علم فلنذكر صفات الشعر التي اذا اجتمعت

فيه كان في غاية الجودة وهو الغرض الذي تنتحيه الشعراء بحسب ماقدمناه من شريطة الصناعات. والغاية الأخرى المضادة لهذه الغاية التي هي نهاية الرداءة."

ثم يذكر قدامة بن جعفر اركان او اسس او عوامل الجودة - بنظره- فيقول : "واذكر اسباب الجودة واعداد اجناسها ليكون مايوجد من الشعر قد اجتمعت فيه الأوصاف المحمودة كلها وخلا من الخلال المذمومة بأسرها يسمى شعرا فيه غاية الجودة ومما يوجد بضد هذه الحال يسمى شعرا في غاية الرداءة وما يجمع فيه من الحالين اسباب ينزل له اسم بحسب قربهُ من الجيد أو الرديء او وقوفه في الوسط الذي يقال فيه : صالح او متوسط او لاجيد ولا رديء . فأن سبيل الأوساط في كل ماله ذلك ان تحد بسلّب الطرفين. "ثم يتصدى قدامة بن جعفر الى مسألة المعنى او المعاني في الشعر فيقول" ومما يجب تقدمته وتوطيده قبل ما اريد ان اتكلم فيه ان المعاني كلها مُعرَّضة للشاعر. وله ان يتكلم منها فيما احب وآثر من غير ان يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه: اذا كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعة. والشعر فيها كالصورة. كما يوجد في كل صناعة من أن لابد فيها من شيء موضوع يقبل تأثير الصورة منها: مثل الخشب للنجارة والفضة للصياغة... وعلى الشاعر اذا شرع في اي معنى كان من الرفعة والصنْعة... وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة ان يتوخى البلوغ في التجويد وذلك الى النهاية المطلوبة. ربما يجب تقديمه ايضا ان مناهضة الشاعر نفسه في قصيدتين او كلمتين بأن يصف شيئا وصفا حسنا ثم يذمه بعد ذلك ذما حسنا ايضا غير منْكَر عليه ولا معُيب من فعله اذا احسن المدح والذم بل ذلك عندي يدل على قوة الشاعر في صناعته واقتداره عليها."

وبعد ذلك وعلى اساسه يتحدث عما سماه فضائل الناس (وهو هنا يعيد على مايبدو آراء ارسطو طاليس التي تحدثنا عنه في الفصل السابق) فيقول :"انه لما كانت فضائل الناس – من حيث هم ناس لا من طريق ماهم مشتركون فيه مع سائر الحيوان- على ما عليه اهل الألباب الغريب والنحو واغراض المعاني محتاج اليها في اصل الكلام العام-

للشعر والنثر- وليس هو بأحدهما اولى منه بالآخر. وعلما الوزن والقوافي وان خصا بالشعر وحده فليست الضرورة داعية اليهما لسهولة وجودهما في طباع اكثر الناس من غير تعلم. ومما يدل على ذلك ان جميع الشعر الجيد المستشهد به انما هو لمن كان قبل واضعي الكتب في العروض والقوافي. ولو كانت الضرورة الى ذلك داعية لكان جميع هذا الشعر فاسدا او اكثره. ثم مانرى ايضا من استغناء الناس عن هذا العلم فيما بعد واضعيه الى هذا الوقت. فأن من يعلمه ومن لا يعلمه ليس يقول في شعره او قوله الا على ذوقه دون الرجوع اليه. واما علم تمييز جيد الشعر من رديئه فأن الناس يخبطون في ذلك منذ ان تفقهوا في العلم. فقليلا مايصيبون.

ثم يتنقل قدامة بن جعفر الى الحديث عن حد الشعر فيقول: " ان اول ما يحتاج اليه في العبارة عن هذا الفن معرفة حد الشعر المميز له عما ليس بشعر. وليس يوجد في العبارة عن ذلك ابلغ ولااوجز – مع تمام الدلالة- من ان يقال فيه: انه قول موزون مُقفًّى يدل على معنى ... فإن قد تبين ان ذلك كذلك وان الشعر هو ماقدمناه فليس من الأضطرار اذن ان يكون ماهذا سبيله جيدا ابدا ولا رديئا ابدا. بل يحتمل ان يتعاقبه الأمران: مرة هذه وأخرى هذه على حسب مايتفق . فحينئذ يحتاج الى معرفة الجيد وتمييزه عن الرديء. ولما كانت للشعر صناعة وكان الغرض في كل صناعة اجراء مايصنع ويعمل بها على غاية التجويد والكمال اذ كان جميع مايؤلف ويصنع على سبيل الصناعات والمهن فله طريقان: احدهما غاية الجودة والآخر غاية الرداءة وحدود بينهما تسمى الوسائط وكان كل قاصد لشيء من ذلك فأنما يقصد الطرف الأجود فأن كان معه من القوة في الصناعة مايبلغه اياها سمِّي حاذقا تام الحِذْق. وان قصر عن ذلك وقد نزل له اسم بحسب الموضع الذي يبلغه في القرب من تلك الغاية والبعد عنها كان الشعر ايضا اذ كان جاريا على سبيل سائر الصناعات مقصودا فيه وفي ما يحاك ويؤلف منه الى غاية التجديد فكان العاجز عن هذه الغاية من الشعراء انما هو من ضعف صناعته. فأذ قد صح ان هذا على ماقلناه من الأتفاق في ذلك: انما هي العقل والشجاعة والعدل والعِفة

كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيبا. والمادح بغيرها مخطئا. ثـم يجـوز مع ذلك ان يصف الشاعر انسانا بالجود- الذي هو احد اقسام العدل- وحده. فيغرق فيه ويفتَن في معانيه. او بالنجدة فقط فيعمل فيها مثل ذلك. او بهمـا ويقتـصر بهمـا دون غيرهما فلا يسمى مخطئا لأصابته في مدح الانسان ببعض فضائله. لكن يسمى مقّصرا عن استكمال جميع المدح. فوجب ان يكون على هذا القياس المصيب من الشعر قد مـدح الرجال بهذه الخلال لابغيرها. والبالغ في التجويد الى اقـصى حـدوده قـد اسـتوعبها ولـم يقتصر على بعضها. ثم يُسهب في تفصيل مواطن المدح واقـسامه ومناسـباته ويتحـدث عن مدح الملوك وعن مدح ذوي الصناعات ومدح القادة ومدح السوقة – كل بمـا ينـاسـب مقامه وخصائصه . ويورد امثلة كثيرة لتعزيز وجهة نظره هذه. ثـم ينتقـل- بعـد ذلـك وعلى اساسه- الى الحديث عن الهجاء – الذي هو نقيض المدح- ويستشهد ايضا بالأمثلة الملائمة.ويتحدث بعد ذلك عن الرثاء – الذي هو عنده نمط مـن انمـاط المـدح الموجـه الى الغائب بدل الحاضر المخاطب ويورد من الأمثلة ما يظن انه كـاف لتأييـد رأيـه. ويفعـل هكذا في باب الغزل والنسيب والتنشبيب ويبدي رأيا طريفا في التمييز بين الغزل والنسيب فيقول " ان النسيب ذكر الشاعر خلق النـسـاء واخلاقهـن وتـصرف احـوال الهـوى بـه معهن. وقد يذهب على القوم ايضا موضع الفرق مابين النسيب والغزل. والفرق بينهمـا ان الغزل هو المعنى الذي اذا اعتقده الانسان في الصبوة الى النساء تشيب بهن مـن اجلـه. فكأن النسيب ذكر الغزل. والغزل المعنى نفسه. والغـزل اي هـو التـصابي والأسـتهتار بمودة النساء....واذ قد بان أن الذي قلناه على ماقلناه فيجب ان يكون السبب الـذي يـتم به الغرض هو ماكثرت فيه الأدلة على التهالك في الصَّبابة وتظاهرت فيـه الـشواهد عـلى افراط الوجد واللوعة. وماكان فيه من التصابي والرقة اكثر مما يكون فيه مـن الخـشن والجلادة. ومن الخشوع والذلّة اكثر مما يكون فيه من الأباء والعِـز. " ويـضرب الأمثلـة المثيرة للتدليل على وجاهة ماذهب اليه.

-٦-

أود (قبل ان اعرض رأي ابي علي محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (٣٢٠-٣٨٨هـ) في الشعر كما ورد ذلك في كتابه حلية المحاضرة في صناعة الشعر) ان اتحدث بايجاز عن هذا الأديب اللغوي الشاعر الذي تربطني به صلة ادبية منذ ان بدأت بتأليف كتابي الأصالة في شعر ابي الطيب المتنبي قبل زهاء عشرين عاما اثناء وجودي في الرباط استاذاً لعلم النفس في جامعة محمد الخامس حيث اطلعت على نسخة مخطوطة من حلية المحاضرة ونسخة من " الرسالة الموضحة في ذكر سرقات ابي الطيب المتنبي وساقط شعره " للحاتمي نفسه في احدى مكتبات مدينة الرباط. وقد إتَّضَحَ لي ان الحاتمي وفد وهو في مقتبل العمر على سيف الدولة في حلب سنة ٣٤١هـ والتقى بالمتنبي الذي لازم سيف الدولة واستأثر به منذ عام ٣٣٧هـ وقد صَدَّ سيف الدولة عن الحاتمي على مايبدو فاضطر هذا على ترك حلب في العام الذي قدمها فيه. وبقي شيء في نفسه على المتنبي الذي بقي ملازما لسيف الدولة حتى عام ٣٤٥هـ وعندما غادر المتنبي مصر ناقما على كافور في اواخر عام ٣٥٠هـ بلغ الكوفة في منتصف عام ٣٥١ هـ ثم غادرها الى بغداد في منتصف سنة ٣٥٢هـ واقام في دار الأديب اللغوي علي بن حمزة البصري في ربض حميد الكائن في الجانب الغربي من بغداد وترفع عن مدح الوزير المهلبي رغم ان هذا الأخير زاره مع جماعة فيهم ابو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الأغاني. فأغرى المهلَّبي - على مايبدو- الحاتمي للنيل من المتنبي كما اغرى فئه من شعراء بغداد. وفَدَ الحاتمي للمتنبي في ربض حميد حيث كانت جماعة من مريدي ابي الطيب تقرأ عليه شعره. فآل الأمر الى تأليف الرسالة المُّوضحَة.

اما الآن فلنعد الى رأي الحاتمي في الشعر كما اوضحه في حلية المحاضرة : كتب الحاتمي في ديباجتها:

"أما بعد حمد الله عز وجل والصلاة على رسوله فأن اشرف الكلام ماسَهُلَ سبيله وقَرُبَ مأخذه وبَعُدَ مرامه واعتدلت اقسامه ورقَّت حواشيه وأرهفَت هواديه وفتق

الشكل... واصاب الغرض... واكتفى بالوحي والاشارة... فاذا كان اللفظ فصيحا والمعنى صريحا... فتلك هي البلاغة وهناك انتظام شمل الأبانة... وقد تصفحتُ صحف البلاغة واستقريتُ اساليب البيان والفصاحة فوجدت العرب ارباب الكلام ومُلاَّك رِقّ المعاني والألفاظ ايجازا في حالة الحاجة الى ايجاز واطالةً وتوسعاً عند الحاجة الى الأطالة والأسهاب واتساعا لما انفردت لغتهم دون اللغات من اصناف البديع كالتجنيس والتطبيق والأستعارة والأشارة وكالوحي والتشبيه... والمبالغة... والأغراق... وغير ذلك من افانين البديع... وقد وجدتُ البلاغة منقسمة قسمين: منظوما ومنثورا واولى هذين القسمين بالمزية... والقدم للمتقدم -المنظوم فانه ابدعُ مطالع وانصعُ مقاطع واطولُ عِنانا وافصح لسانا... والمنظوم ارشق في الاسماع وأعلق في الطباع وابقى مياسم واذكى مناسم واخلد عمرا وأجمع لأفانين البديع... والمنظوم أهر لعطف الكريم واجمع لشتات محاسنه... هذا كله اذا كان لفظه حرَّ الطينة ومعناه سليما من اللَبس والشركة... فاذا كان غير معتدل النظم ولا متناسب القسمة ولا مقبول العبارة وكانت معانيه بعيدة والفاظه شريدة فسليم المنثور- وان عَطُل من حِليِّ البيان وتعَرَّى من حُلل للأحسان اعذب شربا واكرم عرفا..."

ثم يقول الحاتمي بعد ان اوجز مواصفات الكلام الجيد بنظره نثرا ونظما -"وقد رأيت ان اقترع كتابا أشرع فيه لمحاسن الشعر شريعة ترد القرائح ماءها وترود أنداءها وتشيم بروق انوائها وتستهدي بنجوم سمائها وأقصره على فقره النادر وغرر معانيه المتنافرة ولُمعه البارعة وكواكبه الصادعة واقسامه المختارة وهي ثلاثة: مثل شرود وتشبيه رائع واستعارة واقعة، واودعه من ذلك من مادفع إجماع نُقَّاد الكلام والعلماء بسرائر الشعر على انه اشعر ما قيل في معناه من كل نوع تتناوله المحاضرة وتتهادى جواهره المذاكرة وتتعاطى بلاغته الألسنة... وافتتح القول فيه بنبذ من فنون البديع ولمع من الاستعارات اللطيفة والمجازات التي توشت العرب فيها اذ كان من عادتها الاختصار

والحذف والايجاز والايماء والاكتفاء باللمحة الدالة والاشارة الى القصد والاستغناء بالقليل عن الكثير".

ثم يستطرد الحاتمي فيذكر عشرات الأبيات الشعرية المختارة -وفق مقاييسه الأدبية في جيد الشعر وانسجاما مع حسه الفني المرهف- وينقد بعضها ويستجيد بعضا آخر. من ذلك مثلا ٠وهو كثير- ما ذكره المبرِّد عن التوزي انه قال: قلت للأصمعي من اشعر الناس؟ قال: من يأتي الى المعنى الخسيس فيجعله بلفظه حسنا ويأتي الى المعنى الكبير فيجعله بلفظه خسيسا او ينقضي كلامه قبل القافية. فاذا احتاج اليها افاد بها معنى. قال التوَّزي: قلت نحو مَن؟ قال نحو الأعشى اذ يقول:

كناطحِ صخرة يوما ليوهنهَا

فلم يَضرها واوهى قرنه الوَعَلُ

فقد تم المعنى بقوله "واوهى قرنه". فلما احتاج الى القافية قال "الوعل". قال التوزي فقلت له: وكيف صار الوعل مفضلاً على كل ما ينطح؟ قال: لأنه يُنحطُّ من قِمة الجبل على قرنه فلا يضيره.

وقال ابو علي الحاتمي: اخبرني ابو جعفر محمد بن عبد الله بن حمدون عن علي بن يحيى المنِّجم عن اسحق الموصلي عن ابي عمرو بن العلاء قال: كانت يدي في يد الفرزدق وانشدته قوله ذي الرمَّة:

أقامت حتى ذَوى العودُ والثَّرى

وساق الثريَّا في مَلاءته الفَجْرُ

فقال لي الفرزدق: أأرشدُك ام أدعك؟ قلت: بل ارشدني. فقال: انه لا يوذي او يجف الثَّرى وانما الشعر "حتى ذوى العود في الثرى". قال ابو عمرو بن العلاء: ولا اعلم احسن من قوله "وساق الثريا في ملاءته الفجر". فصير للفجر ملاءة. ولا ملاءة له. وانما

استعار هذه اللفظة. وهو من عجيب الاستعارات. وذكر الحاتمي ايضا عن محمد بن يحيى الصولي انه قال اجتمعت انا وجماعة من فرسان الشعر عند ابن المعتز وكان يتحقق بعلم البديع. فلم يبق مسلك من مسالك الشعر إلاَّ وسلكناه واوردنا احسن ما قيل في معناه الى ان قال احدنا ما احسنَ استعارة للعرب اشتمل عليها بيت من الشعر ؟ قيل قول السيد الحميري:

وغـداةُ ريـح قـد درحـت وقـرة

اذا اصـبحتْ بيـد الـشَّمال زِمامُهـا

فجعل للشَّمال يدا وزماما. فقيل وقول ذي الرمِّة اعجب منه وان تـأخر زمانـه. وذو الرمة ابدعُ الناس استعارة الا ان الصواب "حتى ذوى العود والثرى" بـواد التنسيق لأن العود لا يذوى ما دام في الثرى. فقيل كأن بيت ذي الرمة اثار بيتا آخر له:

ولما رأيـتُ الليـل والـشمَسُ حيـةٌ

حياة الـذي يقـضي حُـشاشة نـازعِ

وقال ابو علي الحاتمي -في مكان آخر من حلية المحاضرة -ومن الأغراق قول النابغة الذبياني يصف حَرم الطير حول العسكر توقعا للقتل:

جوانِــحُ قــد أيقــن أنَّ قبيلــه

اذا مــا التقــى الجمعــان اولُّ غالــبِ

فجعل الطيرَ توقن بأنه غالب. وقد تقدمه الأفوه الأودي الى هذا المعنى بقوله:

وتــرى الطــير علــى آثارنــا

رأي عــين انفــه ان ســتمار

قال ابو علي الحاتمي: ولكن من اين للأفوه الأودي ابتداء النابغة:

اذا ما غزوا بالجيش حلقَّ فوقهم

عصائبُ طير تهتدي بعصائب

تراهُنَّ خلفَ القومِ خزرا عيونها

جلوس الشيوخِ في فسوكِ الأرانب

لَهُنَّ عليهم عادةٌ قد عَرَفْنَها

اذا وضعوا الخُطِيَّ فوق الكوائبِ

فتبعه حُمَيد بن ثَور الهلالي فقال:

اذا ما غزا يوما رأيت غبابةَ

من الطير يرقُبْنَ الذي هو صانِعُ

فتلاهم ابو نواس فقال واحسن:

تتأيّا الطيرُ غدوته

ثِقةً بالشبَّح من جَزرِهْ

قال ابو علي الحاتمي واحمد من هذا مذهبا واسلم تركيبا قول ابي تمام على تأخر زمانه:

تَسَربلَ سِربالا من الصَّبر وارتدى

عليه بعصب في الكريهةِ فاصلِ

وقد ضلّلَتْ اعقابْ راياته ضُحى

لعقبان طيرٍ في السماءِ نواهلِ

اقامت مع الرايات حتى كأنها

مع الجيش إلا انها لم تقاتلِ

وقال ابو علي الحاتمي -وهو مثير وطريف- والناس يَرون ان احسن ما قيل في وصف الشيب قول الفرزدق:

وتقول كيفَ يمَيل مثُلك للصبّا

وعليك من سمة الحليم وقارُ

والشَّيبُ ينَهض في الشباب كأنَّه

ليلٌ يصبح بجانبيه نهار

وهذا خطأ لأن البيت الثاني مركب تركيبا معكوسا. ولا تصحُّ المقابلة في التشبيه إلاَّ أن يقول الفرزدق " والشيَّبُ ينهض في الشباب كأنه نهارٌ يصبح بجانبي ليل". ومثْلُ هذا في الخطأ والعكس قول ابي نواس في صفة الخمر:

كأن بقايا ما عفا من حُبابها

تفاريقُ شيب في سوادٍ عِذارِ

تَردَّتْ به ثم انفري عن أَديمها

تَفَرِّى ليلِ عن بياض نهار

فجميع التشبيهات هذين البيتين مركب على غير تركيب صحيح: ان أبا نواس شبه الحُباب -في البيت الأول- وهو تشبيه صحيح. ثم شبهه -في البيت الثاني- عند تعريه بالليل. فوجب ان يكون الحُباب اسود وقد جعله في البيت الأول ابيض. ثم شبَّه الخَمر بالعذار الأسود في البيت الأول. فوجب ان يكون وصف نبيذا اسود. وجعله في البيت الأخير يُشبه النهار. فوجب ان يكون وصف خمرا. وليس في التناقض والاستحالة شيء اقبح من

هذا. وقد كان سبيله -ان كان وصف نبيذا اسود -ان يكون ترتيب الكلام: "تردَّت بـه ثـم انفرى عن اديمها تفري ليل عن بياض نهار عن سواد ليل حتى يكون تشبيه النهار بالحباب غير بالشيب. وتشبيه النبيذ بالليل غير مناقض تشبيهه اياه بالعذار الأسود. وفي الجملة: فلم يرد إلاَّ وصف الخمر. والأبيات المتقدمة تدل على انه ما وصف إلاّ خمرا لا يجوز تشبيهها بما ينافي ما ذكرنا.

ويستطرد الحاتمي -في هذا الباب- فيقول حدثَني ابو عبيد الله بن احمد النحوي قال اخبرني محمد الحسن قال ابو حاتم السجستاني: ما عزى شيخٌ عن كِبَر سنّ ببيت احسن من هذا. وانشد:

فأن أكْبر فأني في لداتي

وعاقبةُ الأصاغر أن يشيبوا

فعقَّب الحاتمي قائلا: وانما استحسن قول علي بن جبلة:

وأرى الليالي ما طوت من شِرتي

رَدَّته في عِظتي وفي إفهامي

وعلمت أنَّ المرءَ من سَنن الردى

حيثُ الرمَّية من سهام الرامي

ومن عجيب الكلام قول ابراهيم بن المهدي:

يقولون هل بعد الثلاثين ملعبُ

فقلت وهل قبل الثلاثين ملعبْ

لقد جل قَدْرُ الشَّيب إنْ كان كلمّا

بدت شيبةُ يعرى من اللهو مركبُ

-٧-

وكتب ابو عبد الله محمد بن عمران المرزُباني (٢٩٦- ٣٨٤هـ) في كتابه الموسوم: الموشح في ما أخذه العلماء على الشعراء:

"سألت حرس الله النعمة عليك واسبغ الموهبة لديك ان اذكر لك طرفا فيما أُنْكِرَ على الشعراء في اشعارهم من العيوب التي سبيل اهل عصرنا هذا ومن بعدهم ان يجتنبوها ويعدلوا عنها. فأجبتك الى ما سألت اليه وعملت فيه بما احببت. واودعت هذا الكتاب مما سهل وجوده وامكن جمعه وقَرُبَ متناولهُ من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها اهل العلم واوضحوا الغلط فيها: من اللحن والسنَّاد والايطاء والاقواء والاكفاء والتضمين والكسر والاحالة والتناقض واختلاف اللفظ وهلهلة النسج وغير ذلك من سائر ما عيب على الشعراء -قديمهم ومحدثهم- في اشعارهم خاصةً: سوى عيوبهم في انفسهم واجسامهم واخلاقهم وطبائعهم وانسابهم ودياناتهم وغير هذه الخصال من معايبهم. فأنا قد استقصينا في كتابنا الذي سميناه المفيد. وفي غيره من كتبنا التي ضمنَّاها اخبار الشعراء وشرحنا فيها احوالهم. وسوى سرقات معاني الشعر فأنها احد عيوبه وخاصةً اذا قَصَّرَ السارق عن مدى المسروق فانا قد أتينا فيه بكثير من ذلك في كتاب الشعر الذي نبهنا فيه على فضائله ووصف نعوته وعيوبه". ثم يستطرد المرزباني في الأستشهاد بكثير من الأمثلة لشعراء متعددين يشير فيها الى عيوب الشعر التي ذكروها ويوازن بعضها ببعض فكأنه في كتابه هذا قد اقتصر على شرح رديء الشعر واعتبر جيد الشعر ما خلا من تلك العيوب تمشيا مع القول المأثور "وبضدها تتميز الأشياء". فالشعر الجيد اذن -بنظر المرزباني- هو الشعر الذي يخلو من العيوب الشعرية التي اعتمدها في كتابه هذا والتي مرت الاشارة اليها. ونقيضه الشعر الرديء الذي يحتوي على عيب او اكثر من عيب مما ذكره المرزباني.

-٨-

وكتب ابو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى (٣١٨- ٣٩٥هـ) في كتابه الموسوم: كتاب الصناعتين في الكتابة والشعر: "اعلمْ علمَّك الله الخيرَ ودلك عليه وقيضّه لك وجعلك من اهله أن احقَّ العلوم بالتعلم واولاها بالتحفظ -بعد المعرفة بالله جل ثناؤه -علم البلاغة ومعرفة الفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحقّ الهادي الى سبيل الرشد المدلول به على صدق الرسالة وصحة النبوة التي رَفعَت اعلام الحق واقامت منارَ الدين وازالت شبه الكفر ببراهينها وهتكت حجُب الشك بيقينها... وقد عَلِمنا ان الانسان اذا اغفل علم البلاغة واخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يبلغ علمه باعجاز القرآن من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه به من الأيجاز البديع والاختصار اللطيف وضمنه من الحلاوة وجعله من رونق الطِّلاوة مع سهولة كلمة وجزالتها وعذوبتها وسلاستها... وفبيح لعمري بالفقيه المؤتمّ به والقارئ المهتدي به والمتكلم المشار اليه في حسن المناظرة وتمام آلته في مجادلته وشدة شكيمته في حجاجه وبالعربي الصُّلب والقُرشي الصريح ألاَّ يعرف اعجاز كتاب الله تعالى إلاّ من الجهة التي يعرفه منها الزَّنجي والنبطي او أن يَستدلَّ عليه بما استدل به الجاهل الغبي... فينبغي -من هذه الجهة ان يقدّم اقتباس هذا العلم على سائر العلوم -بعد توحيد الله ومعرفة عدله والتصديق بوعده ووعيده... ولهذا العلم -بعد ذلك- فضائل مشهورة ومناقب معرفة.... فلّما وقفتُ على موقع هذا العلم من الفضل ومكانه من الشرف والنبل ووجدت الحاجة اليه ماسة والكتب المصنفة فيه قليلة... فرأيت ان اعمل كتابي هذا مشتملا على جميع ما يُحتاج اليه في صفة الكلام: نثره ونظمه".

ثم ينتقل العسكري الى شرح وجهة نظره في الكلام الذي يستسيغه وفق المبادئ اللغوية التي اقرّها فيقول: "الكلام -أيدك الله- يَحسُنُ بسلاسته وسهولته ونصاعته وتخيّر لفظه واصابة معناه وتشبُّه اعجازه بهواديه وموافقة مآخره لمباديه مع قلة ضروراته. فتجد المنظوم مثل المنثور في سهولة مطلعه وجودة مقطعه وحسن رصفه

وتأليفه وكمال صوغه وتركيبه. فاذا كان كلام كذلك كان بالقبول حقيقا وبالتحفظ خليقا. كقول الأول:

هم الأُلى وَهبوا للمجد انفسهم
فما يبالون ما نالوا ذا حمدوا

وكقول معن بن أوس:

لَعمْركَ ما أهويت كفي لريبةٍ
ولا حملتني نحو فاحشة رجلي

ولا قادني سمعي ولا بصري لها
ولا دلني رأي عليها ولا عقلي

واعلم اني لم تُصبني مصيبةٌ
من الدهر الا قد اصابت فتى قبلي

ولستُ بماش ما حييتُ لمُنكرٍ
من الأمر لا يمشي الى مثله مثلي

ولا مؤثرٌ نفسي على ذي قرابة
وأوثر ضيفي -ما اقامَ- على اهلي

... وقول النابغة:

ولستَ بمستبق أخا لا تلمَه
على شَعث أي الرجال المهذب

وليس لهذا البيت -بنظر ابي هلال العسكري- نظير في كلام العرب. ثم يقول ابو هلال العسكري:

"واذا كان الكلام قد جمع العذوبة والجزالة والسهولة والرصانة مع السلامة والنصاعة واشتمل على الرونق والطلاوة وسلم من حيف التأليف وبعُدَ عن سماجة التركيب وورد على الفهم الثاقب قبلهُ ولم يرُدَّه وعلى السمع المصيب استوعبه ولم يمجَّه. والنفس تقبل اللطيف وتنبو عن الغليظ وتتعلق من الجاسي البشع. وجميع جوارح البدن وحواسه تسكن الى ما يوافقها وتنفر عما يضادها ويخالفها. والعين تألف الحسن وتقْذَى بالقبيح والأنف يرتاح للطيب وينفر للمنتن والفم يلتذ بالحلو ويَمَجّ المر والسمع يتشوق للصواب الرائع وينزوي عن الجهير الهائل واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن والفهم يأنس من الكلام بالمعروف ويسكن الى المألوف ويُصغي الى الصواب ويهُرب من المحال ولا يقبل الكلام المضطرب ولا الفهم المضطرب والرؤيَّة الفاسدة".

ثم يتّحدث عن اهمية انتقاء الألفاظ عند النظم او النثر وكأنه يبالغ في ذلك بحيث ان ليس للمعاني كبير شأن ويقول: وليس الشأن في ايراد المعاني لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي. وانما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود النظم والتأليف... ولهذا تأنق الكاتب في الرسالة والخطيب في الخطبة والشاعر في القصيدة. ولو كان الأمر في المعاني لطرحوا اكثر من ذلك فربحوا كدًّا كثيرا واسقطوا عن انفسهم تعبا طويلا. والكلام اذا كان لفظه حلواً عذبا وسلسا سهلا ومعناه وسطا دخل في جملة الجيد وجرى مع الرائع النادر كقول الشاعر:

ولمَّا قضينا من مِنًى كُلَّ حاجةٍ
وَمَسَّحَ بالأركان مَن هو ماسحُ

وشُدَّتْ على حُدب المهارى رحالُنا
ولم ينظر الغادي الذي هو رائح

أخــــذنا بــــاطراف الأحاديــــث بيننــــا

وســـالتْ باعنـــاقِ المَطِّـــي الأبـــاطح

وليس تحت الألفاظ كبير معنى وهي رائقة معجبة. وانما هـي: ولمَّـا فـضينا الحج ومَسحَّنا الأركان وشُدتْ رِحالنُا على مهازل الأبل ولم ينظر بعضنا بعضا جَعَلْنـا نتحـدَث وتسير الأبل في بطون الأودية. والغريب -بنظرنا- ان العسكري الأديب المرهف الحس قد فاته ان جمال هذه الأبيات ليس بالفاظها وهـي الفـاظ مألوفـة وكثـيرة الأسـتعمال في النظم والنثر وفي مجرى الحياة اليومية المعتادة ربما من قبل جميع الناس عـلى اخـتلاف مستوياتهم الثقافية وحسِّهم الأدبي بل هو يكمن في كلمتين وردتا في البيت الثالـث عـلى سبيل الاستعارة هما "اطراف" "وسالت". واغرب من هذا ان اديبا لامعا آخر مـن طـراز العسكري هو ابن قُتيبة الذي مَرَّ بنا الحديث عنه ذهب الى ابعد ما ذهب اليـه العـسكري بشأن الأبيات السالفة الذكر فقال في كتابه الشعر والشعراء مانصه:

"وضرب من كلام حَسُنَ لفظه وحلا فاذا انت فتشته لم تجد هنـاك فـائـدة في المعنـى كقول القائل" وذكر الأبيات الآنفة الذكر. ثم علق على ذلك بقوله "هـذه الألفـاظ -كمـا ترى- احسن شيء مخارج ومطالع ومقاطع. وان نظرت الى ما تحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا ايام منى واستلمنا الأركان وعالينا ابلنـا الأنـضاء ومـضى النـاس لا ينتظـر الغادي الرائح ابتدأنا في الحديث وسارت المطي بالأبطح".

لقد فات العسكري كما فات ابن قتيبة قبله الفرق بين التعبيرين "وسـارت المطـي في الأبطح" وبين "وسالت باعناق المطي الأباطح". ولم يفطن الى رشاقة التعبـير الثـاني إلا عبد القاهر الجرجاني بعد ذلك بأكثر من نصف قـرن. فقـد كتـب الجرجـاني- في اسرار البلاغة- وفي دلائل الأعجاز ايضا بعد ان ذكر الأبيات: "ان اول ما يتلقاك من محاسن هـذا الشعر انه قال: "ولما قضينا من مِنَى كـلَّ حاجـة فعَّـبر عـن قـضاء المناسـك اجمعهـا والخروج من فروضها وسننها من طريق امكنه ان يقـصر معـه اللفـظ وهـو طريقـة العموم. ثم نبه بقوله "ومسح بالأركان مَن هو ماسح "على طواف الوَّداع الذي هو آخـر

الأمر ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر. ثم قال: "أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا" فوصل بذكر مسح الأركان ما وليه من زم الرَّكاب وركوب الركبان. ثم دلَّ بلفظه "الأطراف" على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفر من التصرف في فنون القول وشجون الحديث او ماهو عادة المتطرفين من الاشارة والتلويح والرمز والايحاء. وانبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط وفضل الأغتباط كما توحيه ألفةُ الأصحاب وأنسةُ الأحباب. وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الأياب وتنسم روائح الأحبة والأوطان واستماع التهاني والتحايا من الخلان والأخوان. ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة طبق فيها مفصل التشبيه وافاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه. فصرح اولا بما أومأ اليه في الأخذ باطراف الأحاديث من انهم تنازعوا احاديثهم على ظهور الرواحل وفي حال التوجيه الى المنازل. واخبر بعد سرعة السير ووطأة الظهر اذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح. وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله لأن الظهور اذا كانت واطئة وكان سيرها السير السهل السريع زاد ذلك في نشاط الركبان. ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيبا. ثم قال "أعناق المطي" ولم يقل "بالمطي" لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في اعناقها ويبين امرهما من هواديها وصدورها. وسائر اجزائها تستند اليها في الحركة وتتبعها في التنقل والخفة وتعبر عن المرح والنشاط اذا كانا في انفسها بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس وتدل عليهما بشمائل مخصوصة في المقاديم".

والذي عندي في هذه المسألة الخطيرة الشأن (التي سأتحدث عنها باسهاب في الفصل المقبل عندما أعرض رأيي الخاص في التمييز ليس بين جيد الشعر ورديئه -وهو امر مفروغ منه كفانا مؤونته من أن نتحدث عن آرائهم في هذا الفصل- وانما في التمييز بين الجيد والأجود- اقول: ان "سالت بأعناق المطي الأباطح" يعني -كما هو واضح- انها سارت سيرا حثيثا في غاية السرعة الممتزجة بالسلاسة واللين كالسيول المتدفقة برفق في تلك الأباطح: أي ان سيرها كان كالماء في سرعته وسهولته عندما يجري في الأباطح.

وشيء آخر- خفي على ابي هلال العسكري وعلى ابن قتيبة قبله- ان الشاعر جعل "الأباطح" فاعلا للفعل "سالت" ثم عدَّاه بالباء. ثم ادخل عليه "الاعناق" عندما قال "وسالت بأعناق المطي الأباطح" ولم يقل "بالمطي". وهذا هو مكمن الأناقة في البيت الذي لم يفطن اليه من استهانوا بهذا الشعر الرشيق. وهذا الضرب من المعاني كالجوهر في الصدف لا يبرر للمرء الا ان يشُقَّه عنه وكالعزيز المحتجب لا يرى المرء وجهه الجميل حتى يستأذن عليه. ثم ما كل فكر يهتدى الى وجه الكشف عمَّا اشتمل عليه ولا كل خاطر يؤذن له بالوصول اليه ثم ان مما هو اصل –في هذه المسأله ومما هو على شاكلتها وهو كثير كما سنرى –في ان يّدقّ النظر ويفحص المسلك في توخِّي المعاني الخفية التي يتداخل بعضها ويشتد ارتباط كل منها بما يليه ويكون المرء –في هذه الحالة – كالغائص في البحر يحتمل المشقة العظيمة للعثور على الدرر الكائنة في احشائه. وهذا لا يحصل- في الابيات وما شاكلها- حتى يتجاوز المرء حد العلم بها مجملا الى العلم بها مفصلا- كما فعل الجرجاني- وحتى لا يقنعه إلا النظر في زواياها المتعددة والتغلغل عميقا في مكامنها كمن يتتبع مجرى الماء حتى يعرف منبعه. وهذه طائفة من الأمثلة لتأييد وجاهة ما ذهبنا اليه (سنذكر مزيدا منها في الفصل المقبل).

قال كُثير:

وإنـــي وتّهيـــامي بعـــزة بعـــدما
تَخلّيـــتُ ممَّـــا بيننـــا وتخلَّـــتِ

لكـــالمرتجي ظـــلَّ الغمامـــة كُلمـــا
تبـــوَّأ منهـــا للمقيـــلِ اضـــمحلّت

وفي معنى مغاير قال بشار: لقد كان ما بيني –زمانا- وبينها.

وقال آخر في معنى آخر:

فأصبحتُ من ليلىَ الغداةَ كقابض
على الماء خانَتْه فروجُ الأصابعِ

وقال يزيد بن الطثرية في معنى آخر:

ولما رأيتُ الِبْشَر قد حال دونهم
ووافتْ بناتُ الصَّدْرِ يهربن نزعا

تلفّتُ نحو الحي حتى رأيتني
وجَعْتُ مِنَ الأصغاء ليتنا وأخْدَعَا

وقال آخر يصف قراه الضيف:

وما يك في من عيبٍ فأني
جبان الكلب مهزولُ الفصيلِ

وقال آخر في صفة مصلوب:

كأنه عاشقٌ قد مَدَّ صَفحته
يومَ الوداع الى توديع مُرتحلِ

وقال آخر يصف الهزيع الأخير من الليل:

وكأن النجوم بين دُجاه
سُنن لاح بينهنّ ابتداع

وقال آخر في المعنى نفسه:

والفجُر قد جردت صوارمه
والليل قد هم منه بالهرب

وقال ابن طباطبا يصف زنجيا قد أنفذه المخاطب معه حين انصرف عنه الى منزله:

بعثت معي قِطْعا من الليلُ مظلما

وقال آخر يصف سرعة فرسه:

ويمنعها من ان تطير زمامها

وقال المتنبي في صفة كلب:

يقعي جلوس البدوي المصطلي

ولنعد الآن لاستكمال رأي ابي هلال العسكري في جيد الشعر.

كتب ابو هلال العسكري في كتاب الصناعتين: "الشعر كلام منسوج ولفظ منظوم. واحسنه ما تلائم نسجه ولم يسخف وحسن لفظه ولم يهجن. ولم يستعمل فيه الغليظ من الكلام فيكون جلفا بغيضا ولا السوقي من الألفاظ فيكون مهلهلا دونا. ولا خير في المعاني اذا استكرُهت قهرا والألفاظ اذا اجبرت قسرا. ولا خير فيما أجيد لفظه اذا سَخُفَ معناه ولا في غرابة المعنى إلا اذا شُرف لفظه مع وضوح المغزى وظهور المقصد. والسهل امنع جانبا واعزَّ مطلبا. وهو احسنُ موقعا واعذبُ مستمعا. ولهذا قيل اجود الكلام السهل الممتنع". قال العباس بن الأحنف:

اليك اشكو ربّ ما حلَّ بي

من صدّ هذا التائه المُعْجَبِ

إن قال لم يَفْعَل وإنْ سيلَ لم

يبذُل وان عوتب لم يعتب

صبٌّ يُعصّاني ولو قال لي

لا تشرب الباردَ لم اشربِ

هذا والله الشعر الحسن المعنى السهل اللفظ العذب المستمع القليل النظير الغزير التشبيه المطمع الممتنع البعيد مع قربه الصعب في سهولة. وقيل للسيد الحميري: ألا تستعمل الغريب في شعرك.. فقال: ذاك عِيٌّي في زماني وتكلُّف مني لو قلتُه. وقد رزقتُ طبعا واتساعا في الكلام. فأنا اقول ما يعرفه الصغير والكبير ولا يحتاج الى تفسير وانشد:

أيا ربِّ أني لم ارد بالذي به

مدحتُ عليا غير وِجهكَ فارحم

فهذا كلام عاقل يضع الشيء في موضعه ويستعمله في ابانه. ومن الكلام المطبوع السهل ما وقع به علي بن عيسى: "قد بلغتك أقصى طلبتك وانلتك غاية بُغيتك. وانت -مع ذلك- تستقل كثيري وتستقبح حسني فيك فانت كما قال رؤبة:

كالحوت لا يكفيه شيءٌ يلهمه

يصيح ظمآن وفي البحر فمه

ومن المنظوم الممتنع قول البحتري:

أيها العاتِبُ الذي ليس يَرضى

نمْ هنيئا فلستُ أطعمُ غَمضا

أنَّ لي من هواك وجدا

قد استهلك نومي ومضجعا قد اقضا

فجفوني في عَبرةٍ ليس تَرْقا

وفؤادي في لوعةِ ما تقضَّى

يا قليل الأنصاف كم اقتضى

عندك وعدا انجازه ليس يقضى

أحْيني بالوصال ان كان جودا

واثبني بالحبِّ إن ّكان فرضْا

بأبي شادنٌ تعلق قلبي

بجفونٍ فواتر الحظ مَرضَى

لستُ انساه اذ بدا من قريب

ينثّني تثني الغُصن غضًّا

... ومما اجزل قول ابن وَهْب:

ما زال يلثمني مراشفهُ

ويعلنّي الأبريقُ والقدحُ

حتى استردَّ الليل خِلْعَتَهُ

ومشى خلال سواده وضحُ

وقول الاخر:

كم من فؤادٍ كأنه جبلُ

أزاله من مَقزّة النَّظَرُ

ويستشهد ابو هلال العسكري في كتاب ديوان المعاني بأبيات لأبي تمام يصف فيها الشعر الجيد:

واللهِ لا انفُّك أهدي شواردا

اليك يَحملَن الثناء المُنخّلا

تُخالُ به بُردا عليك مُحبَّراً

وتَحسبُها عقدا عليكَ مُفصَّلا

ألـذُّ مـن الـسّلوى واطيـب نفحـةً
مـن المِسك مفتوتـا وأيـسرُ محمـلا
أخـفُّ علـى روحٍ وأثقـلُ قيمـةً
وأُقـصرُ في سمـعِ الجلـيس واطـولا
ويُزهـي بـه قـوم ولم يُمـدحوا بهـا
اذا مثَّـلَ الـراوي بهـا او تمـثَّلا

-٩-

وكتب ابو احمد بن محمد بن الحسن المرزوقي (المتوفى سنة ٤٢١هـ) في مقدمته لشرح ديوان الحماسة: "وبعد فأنك جاريتني -اطال الله بقاءك في أكمل عادة واشمل سعادة- لمَّا رأيتني أقصِّرُ ما استفضله من وقتي واستخلصه من وَكْدِي على عمل شرح للأختيار المنسوب الى ابي تمام حبيب بن اوس الطائي المعروف بكتاب الحماسة... ثم سألتني عن شرائط الأختيار فيه وعما يتميز به النظم عن النثر وما يحُمد ويُذم من الغلو فيه اوْ القصد وعن قواعد الشعر التي يجب الكلام فيها وعليها حتى تصير جوانبها محفوظة من الوَهْن واركانها محروسة من الوَهْي اذ كان لا يُحكم للشاعر او عليه بالإساءة او الأحسان الا بالفحص عنها وتأمل مأخذه منها ومدى شأوه فيها وتمييز المصنوع مما يحوكه من المطبوع والآتي المستسهل من الأبي المستكره... وزعمتُ -بعد ذلك اجمع- أنك مع طول مجالستك لجهابذة الشعر والعلماء بمعانيه والمبرَّزين في انتقاده لم تقف من جهتهم على حَدّ يؤدّيك الى المعرفة بجيده ومتوسطه ورديئه حتى تجرَّد الشهادة في شيء منه وثبتَّ الحكم عليه او له آمنا من المجاذبين والمدافعين. بل تعتقد ان كثيرا مما يستجيده زيد يجوز ان لا يطابقه عمرو او انه قد يَستحسن البيت ويثني عليه ثم يَستهجن نظيره في الشبه لفظا ومعنى... وقلتُ ايضا اني أتمنى أن أعرف السبب في تأخر الشعراء عن رتبة الكتاب البلغاء والعذر في قلة المترّسلين وكثرة المفلقيّن

والعلَّة في نباهة اولئك وخمول هؤلاء ولماذا كان اكثر المترّسلين لا يفلقون في قرض الشعر واكثر الشعراء لا يبرعون في انشاء الكتب... واعلم ان مذاهب نُقَّاد الكلام في شرائط الأختيار مختلفة... فمن البلغاء من يقول فِقَرُ الألفاظ وغُررها كجواهر العقود ودررها. فأذا وسمَ اعقالها وبتحسين نظومها وحُلىَّ أعطافها بتركيب شذورها وراق مسموعها... قبلهُ الفهم والتذَّ به السمع... ومنهم من لم يرض بالوقوف على هذا الحد فتجاوزه والتزم من الزيادة عليه تنميم المقطع وتكليف المطلع... ومنهم ترقَّى الى ما هو أشق واصعب... فلم تقنعه هذه التكاليف في البلاغة حتى طلب البديع والترصيع والتسجيع والتطبيق والتجنيس... وتوشيح العبارة بألفاظ مستعارة... ومن البلغاء من قصد فيما جاش به خاطره الى ان استفادة المتأمل له والباحث عن مكنونه من آثار عقله اكثر من استفادته من آثار قوله. وهم اصحاب المعاني. فطلبوا المعاني المعجبة من خواص اماكنها وانتزعوها جَزْلةً عذبة حكيمة طريفة أو رائعة بارعة... وجعلوا رسومها ان تكون قريبة التشبيه لائقة الأستعارة صادقة الأوصاف... مبتسمة من مثاني الألفاظ عند الأستشفاف... تعطيك مرادك ان رفقت بها وتمنعك جانبها ان عنقت معها... فهذه مناسب المعاني لطلابها وتلك مناصب الألفاظ لأربابها... ومن اعترف اللفظ والمعنى فيما تصَّوب به العقول فتعانقا وتلابسا متظاهرين في الأشتراك وتوافقا فهناك يكتفي ثريا البلاغة فيمُطر روضها وينشر وشيها... فاذا كان الأمر على هذا فالواجب ان يتبين ما هو عمود الشعر المعروف عند العرب ليتميز تليد الصنعة من الطريف وقديم نظام القريض من الحديث ويتعرف مواطن أقدام المختارين فيما اختاروه ومراسم إقدام المزلِّفين على ما زيفوه. ويُعْلَمَ ايضا فرق ما بين المطبوع والمصنوع وفضيلة الاتيِّ السمج على الأبيِّ الصَّعْب". وبعد هذه العبارات التمهيدية يدخل المرزوقي في صميم الموضوع الذي اخذ على عاتقه بيان وجهة نظره فيه. فيقول: "انهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته وجزالة اللفظ واستقامته والاصابة في الوصف. ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال وشوارد الأبيات والمقاربة في التشبيه والتحام اجزاء المنظم والتئامها على تخير من

لذيذ الوزن ومناسبة المستعار منه للمستعار له ومشاركة اللفظ والمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة ابواب هي عمود الشعر. ولكل باب منها معيار. فعيار المعنى ان يُعرض على العقل الصحيح والفهم الثاقب فاذا انعطف عليه جنبتا القبول والأصطفاء مستأنسا لبرائتهِ خرج وافيا وإلا انتقص بمقدار شوبه ووحشته. وعيار اللفظ الطيع والرواية والاستعمال. فما سلم مما يُهّجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم. وهذا في مفرداته وجملته مراعى لأن اللفظة تُستلزمَ بانفرادها. فأذا ضامَّها ما لا يوافقها عادت الجملة هجينا... وعيار الاصابة في الوصف الذكاء وحسن التمييز. فما وجداه صادقا في المعلوق ممازجا في اللصوق يتعسر الخروج عنه والتبرؤ منه فذلك سيماء الاصابة فيه... وعيار المقاربة في التشبيه الفطنة وحسن التقدير. فأصدقه ما لا ينقص عند العكس. واحسنهُ ما أوقع بين شيئين اشتراكهما في الصفات اكثر من انفرادهما يبين وجه الشبه بلا كلفة. إلاّ ان يكون المطلوب من التشبيه اشهر صفات الشبه به واملكها لأنه حينئذ يدل على نفسه ويحميه من الغموض والألتباس... وعيار الأستعارة الذهن والفطنة. وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به... ثم يكتفي فيه بالأسم المستعار لأنه المنقول عما كان له في الوضع الى المستعار له. وعيار مشاكلة اللفظ المعنى وشدة اقتضائهما للقافية طولُ الدربة ودوام المدارسة..." ثم يخلص المرزوقي الى القول بأن تلك الخصال التي ذكرها تؤلف ما سماه عمود الشعر (لا الشعر العمودي كما يتوهم الكثيرون من المتطفلين على فن الشعر عند العرب في زماننا هذا). فمن التزم بتلك الخصال من الشعراء وبنى شعره عليها "فهو عندهم المفلق المعظَّم والمحسن المقدَّم. ومن لم يجمعها كلها فبقدر سهمته منها يكون نصيبه من التقدم والأحسان".

-١٠-

وكتب ابو علي الحسن بن رَشيق (٣٩٠- ٤٥٦هـ) في كتاب "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده".

"وكلام العرب نوعان: منظوم ومنثور. ولكل منهما ثلاث طبقات: جيدة ومتوسطة رديئة. فأذا اتفقت الطبقتان في القدرة وتساوتا في القيمة ولم يكن لأحداهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهرا في التسمية. لأن كل منظوم احسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة. ألا ترى ان الدَّر - وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه -اذا كان منثورا لم يؤمن عليه ولم ينتفع به في الباب الذي كسب من اجله انتخُب. وان كان اعلى قدرا واغلى ثمنا فاذا نظم كان اهون له من الابتذال واظهر لحسنه من كثرة الاستعمال... وكذلك اللفظ اذا كان منثورا تبدَّد في الأسماع وتدحرج عن الطباع ولم تستقر منه إلاَّ المفرطة في اللفظ وان كانت اجمله والواحدة من الألف وعسى أنْ لا تكون افضله. فأن كانت فهي اليتيمة المعروفة والفريدة الموصوفة. فكم في سقط الشعر من امثالها ونظرائها لا يعبأ به ولا ينظر اليه. فاذا اخذه سلك الوزن وعقد القافية تألفت اشتاته وازدوجت فرائده وبناته واتخذ اللباس جمالا والمدخر ما لا فصار قرطة الآذان وقلائد الأعناق واماني النفوس وأكاليل الرؤوس. يُقلَّب بالألسن ويخبأ في القلوب مصونا باللُب ممنوعا من السرقة والغصْب". -ثم ينتقل ابن رشيق الى توضيح كون المنثور في كلام العرب اكثر من المنظوم ولكنه اقل من ناحية حفظ جيده. وان الشعر اقل من النثر ولكن جيده اكثر حفظا. ويتحدث ابن رشيق بعد ذلك وعلى اساسه عن العلاقة بين الشعر والتغني او الأشادة بمكارم العرب واخلاقها وايامها واوطانها وفرسانها واجوادها. فأن ما تكلمَّت به العرب من جيد المنثور يفوق بكثير الكمية مقدار ما تكَّلمت به من جيد الموزون "فلم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عُشره".

ثم ينتقل ابن رشيق للموازنة قديم الشعر ومحدثه فيقول "كل قديم من الشعر فهو محدث في زمانه بالاضافة الى ما كان قبله. ويستشهد بقول ابي عمرو بن العلاء "لقد

احسن هذا المؤلد حتى هممتُ ان ألزم صبياننا بروايته. (يعني بذلك شعر جرير والفرزدق: فجعله مولدا بالاضافة الى شعر الجاهلية والمخضرمين). وكان لا يعُدّ الشعر الا ما كان للمتقدمين. ومن طريف ما يروى عن الأصمعي انه قال جلستُ الى ابي عمرو ابن العلاء ثماني حجج فما سمعته يحتج ببيت اسلامي. وعندما سئل عن المولدين قال: "ما كان من حسن فقد سبقوا اليه. وما كان من قبيح فهو من عندهم". ويقول ابن رشيق وقد يُميز الشعر من لا يقوله -كالبزاز يميز من الثياب ما لم ينسجه. والصيرفي يُخبر عن الدينار ما لم يسبكه ولا ضربه... ثم يذكرونه". قيل للمفضَّل الضبِّيّ: لِمَ لا تقول الشعر وانت أعلم الناس به؟ قال: علمي به هو الذي يمنعني من قوله. وأنشد:

وقد يقرِضُ الشعرَ البكِيُّ لسانهُ

وتعْيي القوافي المرءَ وهو لبيبُ

ثم يذكر عبارة الجُمحي التي مر بنا ذكرها حول صناعة الشعر. ويختتم هذه العبارة بقوله "وسمعت من بعض الحُذاق: ليس للجودة في الشعر صفة. وانما هو شيء يقع في النفس عند المميز: كالفِرَنْد في السيف والملاحة في الوجه". ويستطرد بعد ذلك وعلى اساسه الى الحديث عن المجاز والاستعارة. ويستشهد بأمثلة كثيرة لتوضيح حدود كل منهما واوجه استعماله.

-١١-

يتحدث الامام ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجُرجاني(المتوفى سنة ٤٧٤ هـ) حديثا مشهيا طريا واصيلا عن مواطن الأناقة والجمال في منثور اللغة العربية وفي منظومها وذلك في كتابيه أسرار البلاغة ودلائل الاعجاز. وحديثه هذا طريف ومهم من الناحيتين النظرية والعملية التطبيقية. فقد كتب في ديباجة كتاب "أسرار البلاغة": "اعلم ان الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها ويبين مراتبها ويحيي صنوف ثمرها ويدل على سرائرها ويبرز مكنون ضمائرها وبه ابان الله تعالى الانسان من سائر

الحيوان... فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه ولا صح من العاقل ان يفتق عن ازاهير العقل كمائه ولتعطلّت قوى الخواطر والأفكار من معانيها واستوت القضية في موجودها وفانيها. نعم ولوقع القلوب الحيّ الحساس في مرتبة الجماد ولكان الادراك كالذي ينافيه في الأضرار ولبقيت القلوب مقفلة على أوائعها والمعاني مسجونة في موضعها". ثم ينتقل الجرجاني الى مسألة التمييز بين كلام وكلام فيقول "واذا كان هذا الوصف مقوّم ذاته واخص صفاته كان اشرف انواعه ما كان فيه اجلى واظهر وبه اجدى واظهر. ومن ههنا يتبين للمحصّل ويتقرر في نفس المتأكل كيف ينبغي ان يحكم في تفاصيل الأقوال اذا اراد ان يقسم بينها حظوظها من الاستحسان ويعدل القسمة بصائب الفسطاس والميزان. ومن التبين الجلي ان التباين في هذه الفضيلة والتباعد عنها الى ما ينافيها من الرذيلة ليس بمجرد اللفظ. كيف والألفاظ لا تفيد حتى تؤلف ضربا خاصا من التأليف ويعمد بها الى وجه دون وجه من التركيب والترتيب.. فلو أنك عمدت الى بيت شعر او فصل نثر فعددت كلماته عدّا كيف جاء واتفق وأبطلتُ نضده ونظامه الذي عليه بني وفيه أفرغ المعنى وأجرى وغيرّت الذي بخصوصيته افاد ما افاد وبنسقه المخصوص أبان المراد... أخرجْته من كمال البيان الى عال الهذيان. ثم يسترسل الجرجاني في توضيح هذا النضد والترتيب والنظام فيقول: "وهذا الحكم اعني الاختصاص في الترتيب يقع في الألفاظ مرّتبا على المعاني المرتبة في النفس المنتظمة فيها على قضية العقل. ولن يتصّور في الألفاظ وجوب تقديم وتأخير وتخصص في ترتيب وتنزيل. وعلى ذلك وضعت المراتب والمنازل في الجمل المركبة واقسام الكلام المدونة. فقيل: من حق هذا ان يسبق ذلك ومن حكم ما ههنا ان يقع هنالك. كما قيل: في المبتدأ والخبر والمفعول والفاعل حتى حُظر في جنس من الكلم بعينه ان يقع إلا سابقا وفي آخر ان يوجد الا مبنيا على غيره وبه لاحقا. كقولنا ان الاستفهام له صدر الكلام وان الصفة لا تتقدم على الموصوف إلاّ ان تُزال الوصفية. الى غير ذلك من الأحكام". وبعد هذا وعلى اساسه يقول الجرجاني في ديباجة كتاب "دلائل الاعجاز": معلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكلم

بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض... ومختصر كل الأمر: انه لا يكون كلام من جزء واحد... فهذه الطرق والوجوه في تعلق الكلم بعضها ببعض وهي -كما تراها- معاني النحو واحكامه. وكذلك السبيل في كل شيء له مدخل في صحة تعلُّق الكلم بعضها ببعض لا ترى شيئا من ذلك يعدو ان يكون حكما من احكام النحو ومعنى من معانيه. ثم انا نرى هذه كلها موجودة في كلام العرب ونرى العلم بها مشتركا بينهم.

ثم يتحدث الجرجاني عن علم البيان فيقول: "ثم انك لا ترى علما هو ارسخ اصلا واسبق فرعا واحلى جنى واعذب وردا واكرم نتاجا وانور سراجا من علم البيان الذي لولاه لم ترَ لسانا يحوك الوشي وصوغ الحلي ويلفظ الدر وينفُث السّحر... إلاَّ انك لن ترى على ذلك نوعا من العلم قد لقي من الضيم ما لقيه ومني من الحيف بما مني به ودخل على الناس من الغلط في معناه ما دخل عليهم فيه. فقد سبقت الى نفوسهم اعتقادات فاسدة وظنون ردية وركبهم فيه جهل عظيم وخطأ فاحش". ثم ينتقل الجرجاني من اللفظ المفرد -الكلمة في حد ذاتها قبل انتظامها في الكلام وبين تأليفها مع غيرها في النظم والنثر في لغة العرب فيقول: "فينبغي ان ينظر الى الكلمة قبل دخولها في التأليف وقبل ان تصير الى الصورة التي يكون الكلم بها اخبارا وامرا ونهيا واستخبارا وتعجبا وتؤدي في الجملة معنى من المعاني التي لا سبيل الى افادتها الا بضّم كلمة الى كلمة وبناء لفظة على لفظة -هل يتصور ان يكون بين اللفظتين تفاضل في الدلالة حتى تكون هذه ادل على معناها الذي وضعت له من صاحبتها على ماهي موسومة وحتى يقال ان "رجلا" ادل على معناها من "فرس" على سُمِّي به؟ وحتى يتصّور في الأسمين الموضوعين لشيء واحد ان يكون هذا احسن نبأ عنه وأبين كشفا عن صورته من الآخر؟ فيكون "الليث" مثلا ادل على السبع المعلوم من "الأسد"؟... وهل يقع في وهم -وان اجتهد ان تتفاضل الكلمتان المفردتان من غير ان ينظر الى مكان تقعان فيه من التأليف والنظم بأكثر من ان تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية؟ او ان تكون حروف هذه اخف وامتزاجها احسن؟... وهل تجد احدا يقول: هذه اللفظة فصيحة إلاَّ وهو يعتبر مكانها

من النَّظْم.. وحسن ملائمة معناها لمعاني جاراتها.. وفضل مؤانستها لأخواتها.. وهل قالوا: لفظة متمكنة ومقبولة -وفي خلافه- قلقة ونابية ومستكرهة إلاَّ وغرضُهم ان يعبِّروا بالتمكّن من حسن الاتفاق بين هذه وتلك من جهة معناهما؟ وبالقلق والنبُّو عن سوء التلاؤم؟ وان الأولى لم تَلِقْ بالثانية في معناها؟ وأن السابقة لم تصلح لِفقْا للتالية في مُؤدَّاها؟" ويستطرد الجرجاني في توضيح هذه المسألة اللغوية الخطيرة ويستشهد بأمثلة كثيرة لاثبات وجاهة ما ذهب اليه فيقول: "فقد اتضح اذن اتضاحا لا يدع للشك مجالا ان الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلم مفردة وان الألفاظ تثبت لها الفضيلة -وخلافها- في ملائمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها او ما اشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع. ثم تراها -بعينها- تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر. كلفظ "الأخدع" في بيت الحماسة:

تَلفْتُ نَحوَ الحيِّ حتى وجدتني

وَجِعْتُ من الأصغاء ليتا وأخدعا

وبيت البحتري:

واني وأن بلغتَّني شرفَ الغِنى

وأعتقت من رق المطامع اخدعي

فأن لها -في هذين المكانين- مالا يخفى من الحسن. ثم انك تتأملها في بيت ابي تمام:

يا دهر قوّمْ من أخدعيك فقد

أضجَجْتُ هذا الأنام من خرقِكْ

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما وجدت هناك من الروح والخفة والايناس والبهجة. ومن اعجب ذلك لفظة "الشيء" فأنك تراها مقبولة حسنة في موضوع وضعيفة مستكرهة في موضع. وان اردت ان تعرف ذلك فانظر الى قول عمر بن ابي ربيعة المخزومي:

وفي مِالئ عينيه من شيءٍ غيره

اذا راحَ نحو الجَمرة البيض كالرمى

والى بيت ابي حية:

اذا ما تقاضى المرءَ يومٌ وليلةٌ

تقاضاه شيء لا يُمَل التقاضيا

فأنك تعرف حسنها ومكانها من القول. ثم انظر اليها في بيت ابي الطيب المتنبي:

لوِ الفلكَ الدوّار ابغضتُ سعيه

لعوقه شيءٌ عن الدوران

فأنك تراها تقل وتضؤل بحسب نبلها وحسنها في ما تقدم. وهذا باب واسع فانك تجد متى تأملتَ من الرجلّين استعملا كلمات بأعيانها ثم نرى هذا قد فرع السماك ونرى ذاك قد لصق بالحضيض. فلو كانت الكلمة اذا حسنت من حيث هي لفظ واذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها دون ان يكون السبب في ذلك حالاً لها مع اخواتها المجاورة لها في النظم لما اختلف بها الحال ولكانت اما ان تحسن ابدا او لا تحسن ابدا".

ويختتم الجرجاني ملاحظاته الدقيقة الصائبة المار ذكرها -التي اقتبسناها من اماكن متعددة من كتابي اسرار البلاغة ودلائل الأعجاز وتعمدنا ألاّ نُشير الى ارقام صفحاتها لنحث القارئ على الرجوع الى الأصل وقراءة الكتابين معا لأهميتهما بنظرنا وبخاصة منهم المعنيون باللغة العربية): "واعلم ان سبيلك ان تعتمد هذا الفصل حَّداً وتجعل النكت التي ذكرتها فيه على ذكر منك ابدا، فأنها عُمُدُ واصول هذا الكتاب. اذا أنت مكنتَّها من نفسك وجدتَ الشُّبَه تنزاح عنك والشكوك تنتفي عن قلبك ولا سيما ما ذكرتُ من انه لا يتُصور ان تعرف اللفظ موضعا من غير ان تعرف معناه.

ولا ان تتوخى في الألفاظ -من حيث هي الفاظ- ترتيبا ونظما. وأنك تتوخى الترتيب في المعاني وتعمل الفكر هناك. فاذا تمَّ لك ذلك أَتبعْتَها الألفاظ وقفوتَ بها آثارها. وانك اذا فرغت من ترتيب المعاني في نفسك لم تحتج الى ان تستأنف فكرا في ترتيب الألفاظ بل تجدها تترتب لك بحكم انها خدم للمعاني وتابعة لها ولاحقة بها. وان العلم بمواقع المعاني في النفس علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق".

-١٢-

والذي عندي في هذه المسألة ان وصف هؤلاء امر متعذر وباب من الكلفة شاق. وليس مثلي من حسر عليه وبلغ الصواب فيه. وانما يصفهم من نال درجة كل واحد منهم واشرف بعد ذلك عليهم. وانما اردت ان اذكر من كل واحد منهم مالاح منه لعيني وتُجلىَّ لبصيرتي وصار له به صورة في نفسي. فأكثرُ وصف الواصفين للأشياء والأشخاص على هذا يجري وإلى هذا القدر ينتهي. وقد قنعتُ بهذا.. فأني أعطي ما عندي وابلغ فيه اقصى جُهدي. أما شيخنا عبد القاهر الجرجاني فأنه ادقهم نظرا واقعرهم غوصا وارهفهم حسا واصفاهم فكرا واظفرهم بالدر واوقفهم على الغرر. واما قُدامة بن جعفر ففصيح مبسط الكلام مديدُ النفس طويل العنان مرضي النقل كثير التدقيق. وهو -بعد ذلك- احبُّ الناس للطريقة المستقيمة ومعانيه فلسفية. وأما ابو هلال العسكري فهو رجلٌ

حسن البلاغة حلو الكتابة كثير الفقر العجيبة. وأما ابن قُتيبة فلا ينزل لفنائهم ولا يُسقى من انائهم. لأنه دونهم في النظر والجدل وفي الحس المرهف. وهو بالمتبع اشبه والى طريقة المتزمت اقرب. والذي يحطه عن مراتبهم شيئان احدهما بلاده سليقته الشعرية والأخرى حرضه على كسبه. واما الآخرون فيقعون بمراتب متفاوتة بين هذين القطبين المتنافرين وهم يحرثون ارض الشعر.

الفصل الخامس

فن الشعر

وجهة نظر المؤلف

-١-

يجمل بنا قبل ان نتحدث عن "فن الشعر عند العرب من وجهة نظرنا ان نتحدث - بأقصى حد من الأيجاز والتركيز عن اللغة العربية بصورة عامة من حيث خصائصها المجازية ومن ناحية نحوها ومنزلته بنظر المعنيين بدراستها واهميته في بنائها وعلاقته بمجاز اللغة وحقيقة تركيبها من جهة وبما يسميه الجرجاني "النَّظْم". والحديث عن الخصائص المشار اليها يكشف لنا -دون شك- مواطن الأناقة والجمال في هذه اللغة الكريمة ويمهد لعملية التمييز بين الجيد والأجود في الشعر العربي الذي اخذنا على عاتقنا التصدي له لأن عملية التمييز بين جيد الشعر ورديئه قد كفانا مؤونتها الذين ذكرنا اسماؤهم في الفصل الثالث ولخصنا آراءهم ايضا".

-٢-

لا شك في ان اللغة -اية لغة- بمعنى لغة الكلام المتحدَّث به والمدوَّن اهم منجزات الأنسان من الناحية الثقافية والحضارية. وهي أداة نشوء الفكر وتطوره وتداوله بين الناس في المجتمع الواحد وبين المجتمعات وعبر الأجيال. وللغة -اية لغة- نمطان من التعبير: احدهما بالرموز المدوَّنة وبالأصوات المتحدَّث والآخر بالاشارات... النمط الثاني هذا اوسع مدى وادق تعبيرا من لغة الكلام على سعتها ودقتها. قال شوقي:

وتعطَّلت لغةُ الكلام وخاطبت

عيني ّ في لغة الهوى عيناك

وقال ابو نواس قبله:

ومُنتظرٍ رجْع الحديث بطرفه

اذا ما انثنى من لينه فَضَحَ الغصْنا

اذا جعـل اللحـظُ الخفُّـي كلامَـه

جعلـتُ لـه عـيني لتفهمـه أذنـا

وقال ابو علي البصير:

ألمـتْ بنـا يـوم الرحيـل اختلاسَـةٌ

فأضَـرَم نـيران الهـوى النَّظـر الخَلّـس

تأبَّـتْ قلـيلا وهـي ترعـد خيفـةً

كمـا تتـأبّى حـينَ تعتـدل الـشَّمس

فخطابهـا صـمتي بمـا انـا مُـضمرٌ

وأنبـستُ حتـى لـيس يُـسمع لـي حـسّ

وولّـتْ كمـا ولّـى الـشبابُ بطيبـه

طَـوتْ دونهـا كـشْحاً علـى يئسها الـنفس

وقال آخر -وهو كثير وطريف:-

كلمّتـه بجفـونٍ غـير ناطقـةٍ

فكـان مـن ردهِ مـا قـال حاجبـه

اسـتودع الله مَـن بـالطرف ودَّعـني

يـومَ الفـراق ودمـعُ العـين سـاكبه

ثـم انـصرفت وداعي الشوق يهتف بي

أرفـق بقلبـك قـد عـزت مطالبـه

ان بُوعـد الوعـد يومـا فهـو مخلفُـه

أو ينطـق القـول طـورا فهـو كاذبـه

ولغة الاشارات قد تكون في غير موضع الغزل. قال أحمد بن يوسف -وقد شتمه رجل بين يدي المأمون- "قد والله يا أمير المؤمنين رأيتُه يستلمي من عينيك ما يلقاني به". وقيل ايضا ان الشَّعبي -وهو على مائدة قتيبة بن مسلم الباهلي -مدَّ يده يلتمس الشراب. فلم يدر صاحب الشراب: اللبن او العسل ام بعض الأشربة. فقال للشعبي "أيّ الأشربة أحبُّ اليك؟ "قال: "أعزها مفقودا وأهونها موجودا". فقال قتيبة "اسقه الماء".

وفي القرآن الكريم امثلة من هذا القبيل تتعذر الأحاطة بها سنذكر بعضها بعد قليل. قيل ان امرأة وقفت على قيس بن عبادة فقالت "أشكو اليك قلة الفأر في بيتي". فقال "أملأوا بيتها خبزا وسمنا ولحما". وقيل ايضا إن عبد الله بن سلام رأى يوما على رجل ثوبا معصفرا فقال للرجل: "لو ان ثوبك في تنُّور اهلك او تحت قدرهم كان خيرا". فمضى الرجل واحرق ثوبه. وعندما عوتب ابن سلام قال لم ارد هذا. وانما قصدت "لو صرفت ثمنه الى دقيق تخبره او حطب تطبخ به كان خيرا".

وسأل عبد الملك بن مروان الشَّعبي يوما: "مالي اراك ضئيلا؟" وكان الشَّعبي في منتهى النحافة. فأجابه الشعبي: "لقد زوحمْتُ في الرحَّم: يا أمير المؤمنين". يعني ولدتُ توأم اخي. وسأل جبلة بن الأيهم حسان بن ثابت مرة: "أين انا من النعمان بن المنذر؟" فقال حسان: "والله -يا جبلة- لشمالك اندى من يمينه". واغتاب رجل رجلا عند سلم بن قتيبة فقال سلم: "اسكت. فوالله لقد تلمضت مضغة طالما لفظها الكرام". وقال الله في محكم كتابه: "واشربوا في قلوبهم العجل". وقوله: "اشربوا" اصله من أشرب: يقال شرب. وأشرب غيره اذا حمله على الشرب. وأشرب الزرع: اذا سقي. واشرب قلبه حب كذا. "والعجل" أي حُب العجل. و"أشربوا في قلوبهم" معناه دخل في قلوبهم حب العجل. وانما عبر تعالى عن "حب العجل" بالشرب دون الأكل لأن شرب الماء يتغلغل في الأعضاء حتى يصل الى بواطنها. وليس المعنى في قوله "اشربوا" أن غيرهم فعل ذلك بل هم الفاعلون لذلك. كما يقال: "أنسيت ذلك" من النسيان. و "أوتي فلان علما جما" وان كان هو الذي اكتسب العلم.

قال الجاحظ "ليس في الأرض كلام هو امتع ولا انفع ولا انق ولا الذّ في الأسماع ولا اشد اتصالا بالعقول السليمة ولا افتق للسان ولا اجود تقوى للبيان من طول استماع حديث الأعراب العقلاء العظماء".

قيل لاعرابي: كيف تصنع في البادية اذا اشتد القيظ وانتعل كل شيء ظلمّه؟ فقال: "وهل العيشُ إلا ذاك.. يمشي احدنا فيرفض عرقا ثم ينصب عصاه ويلقي عليها كساءه ويجلس في فيئة يكتال الريح". وقيل لآخر: ما اصبركم على العيش.. فقال كيف لا يصبر.. مَنْ وطاؤه الأرض وغطاؤه السماء.. وطعامه الشمس وشرابه الريح.. والله لقد خرجنا في اثر قوم قد تقدمونا بمراحل ونحن حفاة والشمس في قلة السماء حيث انتعل كل شيء ظلهَّ. انهم لأسوأ حالا منا. ان مهادهم للعفر وان وسادهم للحجر وان شعارهم للهواء وان دثارهم للخواء..

وذكر الرواة ان ابا جعفر المنصور لما خرج لقتال ابي زيد الخارجي في جماعة من الأولياء وواجه الحصن سقط الرمح من يده. فأخذه بعض الأولياء فمسحه وقال:

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النّوى

كما قرَّ عينا بالأياب المِسافر

فضحك المنصور وقال له الا قلت "فألقى موسى عصاه... فقال "يا أمير المؤمنين.. العبد تكلم بما عنده من اشارات المتأدبين وتكلم امير المؤمنين بما أنزل على النبي من كلام رب العالمين".

وقال رجل يوما لمعن بن زائدة الشيباني "احملني ايها الأمير". فأمر مَعن له بناقة وفرس وبغل وحمار وجارية. ثم قال له: لو علمتُ ان الله سبحانه وتعالى خلق مركوبا غير هذا لحملتك عليه.

حُكي ان السَّراج الوَّراق جهَّز غلامه يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به لِفتا. فأحضره الغلام. وقلبه الزيّات على اللفت. ووجده زيتا حارا فأنكر على الغلام ذلك. فأخذه الزيات

بيده وجاء الى البياع وعاتبه على ذلك وقال له لم تَفعل مثل هذا؟ فقال له البياع: والله يا سيدي مالي ذنب لأن الغلام قال لي اعطني زيتا للسَّراج.

لاشك في ان من عادة العرب الأيجاز والاختصار والحذف طلبا لتقصير الكلام واطراح فضوله والأستغناء بقليله عن كثيره. والحذف باب دقيق المسلك لطيف المأخذ عجيب الأمر. فأن المرء يرى به ترك ذِكر الشيء افصحَ من ذكره ويرى الصَمتَ عن الافادة ازيد للافادة. ويجد نفسه انطق ما يكون اذا لم ينطق وأتمَّ ما يكون بيانا اذا لم يُبنْ. من ذلك حذف المفعول -كما يقول الجرجاني-. فاذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدي كغير المتعدي في أنك لا ترى له مفعولا لالفاظا ولا تقديرا. مثال ذلك قول الناس "فلان يَحِلُّ ويَعْقد" و"يأمر وينهَى" و "يَضُّر وينفع" وكقولهم "هو يُعطي ويُجزل" و"يُقري ويضيف". والمعنى في جميع ذلك على اثبات المعنى في نفسه للشيء على الأطلاق وعلى الجملة من غير ان يتطرق لحديث المفعول. ولكن في بعض الأحيان يكون اظهار المفعول هو الحسن. مثل قول الشاعر:

ولو شِئت ان ابكي دما لبكيتُه

عليه ولكنْ ساحة الصبر اوسعُ

وسبب حسنه -على ما يقول الجُرجاني- أنه كأنه بدع عجيب أن يشاء الأنسان ان يبكي دما. فلما كان ذلك كذلك فأن الأولى ان يصِّرح بذكره ويقرره في نفس السامع ويؤنسه به.

وكلام العرب وحيٌ وإشارات ومجازات. ولهذه الحال كان كلامهم في المرتبة العليا من الفصاحة فأن الكلام متى ما خلا من المجاز ومتى ما كان كلُّه على الحقيقة كان بعيدا الفصاحة خلوا من البلاغة. ومن هذه الزاوية تصبح الأستعارات والكنايات والتورية اوضح منابع الأناقة في نثر اللغة العربية وفي نظمها.

لا شك في ان العرب الذين هم اصل هذه اللغة قد عدلوا حتى عن تكرير الحروف في كثير من كلامهم وذاك انه اذا تكرر الحرف عندهم ادغموه استحسانا. فقالوا مثلا في جعل لك" جعلك وفي "تضربونني" تضربوني... وكذلك قالوا " "امستعد فلان للأمر" اذا تأهب له. والأصل فيه "استعدد"، وقالوا استتب الأمر اذا تهيأ. والأصل فيه "استبب". واشباه ذلك كثير في كلامهم. حتى اذا انهم لشدة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا أحد الحرفين المكررين حرفا آخر غيره فقالوا -مثلا- " "امليتُ الكتاب". والأصل فيه "امللتُ" فأبدلوا اللام ياءً طلبا للخفة وفرارا من الثقل. واذا كانوا قد فعلوا في اللفظة الواحدة فما ظنك بالألفاظ الكثيرة التي يتبع بعضها بعضا..

واللغة العربية الفُصحى تنفرد بخصائص عجيبة بالاضافة الى ما ذكرناه. من ذلك مثلا ايقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما كقوله تعالى "فأجمعوا امركم وشركاءكم". وانما اراد تعالى "اجمعوا امركم" وادعوا شركائكم لأن معنى "اجمعوا" من "اجمع الأمر" اذا نواه وعزم عليه. وقوله تعالى أيضا "فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب". بمعنى "فأضربوا الرقّاب ضربا. فحذف الفعل وأقيم المصدر مقامه. وذلك باب عريض طويل شائع في كلام العرب وان كان ابو الحسن الأخفش (الأوسط: سعيد بن مسعدة وهو احد الأخافش الثلاثة المشهورين) لا يرى القياس عليه.

اما حذف المضاف فهو كثير: كقوله تعالى " واسأل القرية" اي اهل القرية وقوله تعالى ايضا "ولكن البِرَّ من اتقى " اي خصلة من اتقَّى.

وقد ورد ايضا حذف الموصوف واقامة الصفة مقامه في غير موضع من القرآن الكريم. كقوله تعالى: "وآتينا ثمود الناقة مبُصرة" فانه تعالى لم يرد ان الناقة كانت مبصرة (ولم تكن عمياء) وانما يريد "آية مبصرة" فحذف الموصوف واقام الصفة مقامه. وكقوله تعالى -وهو كثير- "أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت ان أعيبها وكان وراءهم ملكٌ يأخذ كل سفينة غصبا" فحذف الصفة اي كان يأخذ كل سفينة صحيحة غصبا.

ومن هنا غلط مفسرو الأشعار في اقتصارهم على شرح المعنى وما فيها من الكلمات اللغوية وتبيين مواضع الاعراب منها دون شرح ما تضمنته من اسرار الفصاحة والبلاغة.

ولهذه اللغة الكريمة جوانب كثيرة أخر تحدث عنها بأسهاب اللغويون القدامى. من ذلك مثلا ما يتصل بغزارة مفرداتها. قال ابن خالويه يوما -في مجلس سيف الدولة- "اعرف للسيف خمسين اسما". فتبسم ابو علي الفارسي -وكان حاضرا في المجلس- وقال "لا اعرف له الا اسما واحدا هو السيف". فقال ابن خالويه "فأين الصارم والحسام وكذا وكذا؟ "قال ابو علي: "هذه صفات". وروى ابو هلال العسكري في كتابه "الفروق اللغوية" امثلة تتعذر الاحاطة بها على وجاهة ما ذهب اليه ابو علي الفارسي فقال: (ص٧ و١١و ١٢): "ثم اني ما رأيت نوعا من العلوم وفنا من الآداب الا وقد صنف فيه كتب تجمع اطرافه وتنظم اصنافه الا الكلام في الفرق بين معان تقاربت حتى اشكل الفرق بينها نحو: العلم والمعرفة. والفطنة والذكاء. والارادة والمشيئة. والغضب والسخط. والخطأ والغلط. والكمال والتمام. والحسن والجمال. والفصل والفرق... والعام والسنة والزمان والمدة... والدليل والدلالة. والاستدلال والنظر والتأمل. والقديم والعتيق. والباقي والدائم.. والفرد والواحد... والجنس والنوع والضرب... والسخاء والجود... والفقر والاملاق... والرياسة والسؤدد... والصبر والاحتمال... والحفظ والرعاية والحماية والحراسة... والهداية والرشد والصلاح والشداد... والوجل والحياء والخجل... والكبر والتيه والجبروت... والعبث واللعب... والهزل والمزاح... والأستهزاء والسخرية...." ثم يقول: "الشاهد على ان اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني ان الأسم كلمة تدل على معنى دلالة الاشارة. واذا أشير الى الشيء مرة واحدة فعرف فالاشارة اليه مرة ثانية وثالثة غير مفيدة. وواضع اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد. فأن اشير منه في الثاني والثالث إلى خلاف ما أشير اليه في الأول كان ذلك صوابا فهذا يدل على ان كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من الاعيان في لغة واحدة فأن كل واحد منهما

يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر والا لكان الثاني فضلا لا يحتاج اليه. والى هذا ذهب المحققون من العلماء. واليه اشار المبرد في قوله تعالى "لقد جعلنا منكم شرعة ومنهاجا" قال فعطف "شرعة" على "منهاج" لأن الشرعة لأول الشيء. والمنهاج لمعظمه ومتسعه. واستشهد على ذلك بقولهم "شرع فلان في كذا" اذا ابتدأه. و"أنهج البلى في الثوب" اذا اتسع فيه. قال ويعطف الشيء على الشيء- وان كانا يرجعان الى شيء واحد -اذا كان في احدهما خلاف للآخر. فأما اذا اريد بالثاني ما أريد بالأول فعطف احدهما على الآخر خطأ. فلا تقول "جاءني زيد وابو عبد الله" اذا كان زيد هو ابو عبد الله... فلم يجز عطف زيد على ابي عبد الله اذ كان هو هو.. ومعلوم ان من حق المعطوف ان يتناول غير المعطوف عليه ليصبح ما عطف به عليه الا اذا علم ان الثاني ذكر تفخيما وأفرد عما قبله تعظما نحو عطف جبريل وميكائيل على الملائكة في قوله تعالى "من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال" ثم يقول ابو هلال العسكري" وكما لا يجوز ان يدل اللفظ الواحد على معنيين فكذلك لا يجوز ان يكون اللفظان يدلان على معنى واحد لأن في ذلك تكثيرا للغة بما لا فائدة فيه".

ومن طريف ما يروى عن الالتباس الذي تحدثه سعة مفردات اللغة العربية ان رجلا سأل عمرو بن عبيد: ما البلاغة؟ فقال عمرو: "ما بلغ بك الى الجنة وعدل بك الى النار. وبصرك مواقع رشدك وعواقب غيك". قال الرجل: "ليس هذا أريد يا ابن عبيد". فقال عمرو "من لم يحسن ان يسكت لم يحسن ان يسمع ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن القول". قال السائل: "ليس هذا أريد". فقال عمرو "قال رسول الله: انا معشر الأنبياء نكره اللسن: وكانوا يكرهون ان يزيد منطق الأنسان على عقله". قال السائل: "ليس هذا أريد". فقال عمرو: "كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقاطة الكلام ما لا يخافون من فتنة السكوت والصمت". قال السائل: "ليس هذا أريد. "فقال عمرو: "فكأنك انما تريد تحبير الكلام في حسن الافهام" قال الرجل: نعم هذا ما اريد. ثم مضى لسبيله. (قال الجاحظ: فقلت لعبد الكريم بن تروح: من هذا الذي صبر له عمرو هذا الصبر؟ قال

سألت عن ذلك ابا حفص فقال: "من يجترئ هذه الجرأة الا حفص بن سالم.." وكان عمرو بن عبيد لا يكاد يتكلم. فان تكلم لم يطل.

ويدخل في هذا الباب الطريف ان الامام الشافعي عندما جيء مكبلا في الحديد في قضية "خلق القرآن" سأله بشر المريسي "ما تقول يا قريشي في خلق القرآن؟ "فقال الشافعي "اياي تعني يا بشر؟" قال: نعم. فقال الشافعي "مخلوق" -وهو يعني نفسه. فخلى سبيله. وقيل ايضا -وهو كثير ومثير- ان القاضي شريك بن عبد الله دخل يوما على المهدي. فأراد المهدي ان ينجده -اكراما لمنزلته عنده-. فقال المهدي للخادم " احضر للقاضي عودا". فذهب الخادم وجاء بالعود الذي يتلهى به فوضعه في حجر شريك. فاضطرب شريك من ذلك وقال مستغربا وفزعا: "ما هذا يا امير المؤمنين؟" قال: عود اخذه صاحب العسس البارحة فأحببنا ان يكون كسره على يد القاضي. فقال شريك: جزاك الله خيرا يا أمير المؤمنين. ثم افاضوا في الحديث حتى نسي الأمر. فقال المهدي لشريك: "ما تقول في رجل أمر وكيلا له ان يأتيه بشيء بعينه فجاء بغيره فتلف ذلك الشيء؟ قال شريك: يضمن يا أمير المؤمنين. فالتفت المهدي الى الخادم وقال: اضمن ما اتلفت".

وذكروا ان اعرابيا اقبل نحو الغضبان بن القبعر وقد اشتد الحر وصحيت الغزالة وقت الظهيرة وقد ظمىء ظمأ شديدا. فقال للغضبان: السلام عليك ورحمة الله وبركاته. قال الغضبان: هذه سنة وردها فريضة فاز قائلها وخسر تاركها: ما حاجتك يا اعرابي؟ قال: اصابتني الرمضاء وشدة الحر والظمأ فتيممت بشك ارجو بركتها... فقال الغضبان: فهلا تيممت قبة اكبر من هذا واغظم.. قال الاعرابي: أيتهن تعني؟ فقال الغضبان: قبة الأمير بن الأشعث. فقال الاعرابي: تلك لا يوصل اليها. قال الغضبان: هذه القبة امنع منها: فقَال الاعرابي: ما اسمك يا عبد الله؟ قال الغضبان: آخذ. فقال الاعرابي: وما تعطي؟ قال الغضبان: اكره ان يكون لي اسمان. فقال الاعرابي: بالله من اين انت؟ قال: من الأرض.قال: فأين تريد؟ قال: امشي في مناكبها. فقال للاعرابي -وهو

يرفع رجلا ويضع اخرى من شدة الحر -اتقرض الشعر؟ قال: انما يقرض الشعر الفأر. فقال: أتسجع؟ فقال: انما تسجع الحمامة. فقال: يا هذا ائذن لي ان ادخل قبتك فقد احرقتني الشمس واحرقت الرمضاء قدمي. قال: خلفك اوسع لك ومالي على الشمس والرمضاء سلطان. فقال الاعرابي: اني لا اريد طعامك ولا شرابك. قال: لا تتعرض لما لا تصل اليه ولو طلعت روحك. فقال الاعرابي: سبحان الله.. قال: نعم من قبل ان تطلع اضراسك. فقال الأعرابي: ما رأيت رجلا اقسى منك.. اتيتك مستغيثا فجبتني وطردتني: هلا ادخلتني قبتك وطارحتني القريض. قال الغضبان: مالي بمحادثتك من حاجة. فقال الأعرابي: بالله ما اسمك؟ ومن انت؟ قال: انا الغضبان القبعثري. فقال الأعرابي: اسمان منكران خلقا من غضب. قال الغضبان: قف متوكئا على باب قبتي برجلك هذه العوجاء. فقال الاعرابي: قطعها الله ان لم تكن خيرا من رجلك هذه الشنعاء. قال الغضبان: لو كنت حاكما بحرت في حومتك لأن رجلي في الظل قاعدة ورجلك في الرمضاء قائمة. فقال الاعرابي: اني لأظنك حروريا. قال الغضبان: اللهم اجعلني ممن يتحرى الخير ويريده. فقال الاعرابي: اني لأظن عنصرك فاسدا. قال الغضبان: ما اقدرني على اصلاحك.. فقال الاعرابي: لا ارضاك الله ولا حياك. ثم ولى وهو يقول:

لا بارك الله في قوم تسودهم
اني أظنك والرحمن -شيطانا
اتيت قبته ارجو ضيافته
فأظهر الشيخ ذو القرنين حرمانا

وذكر الرواة ان رجلا قال لهشام القرطبي: كم تعد؟ فقال هشام: من واحد الى الف واكثر. قال الرجل: لم ارد هذا. وانما اردت كم تعد من السن؟ فقال هشام: اثنين وثلاثين سنا. قال الرجل: لم ارد هذا وانما اردت: كم لك من السنين؟ فقال هشام: ليس لي فيها شيء. والسنون كلها لله. قال الرجل: يا هذا؟ ما سنك؟ فقال هشام: سني عظم. قال

الرجل: أين لي ابن كم انت؟ فقال: ابن اثنين: رجل وامرأة. فقال الرجل كم اتى عليك؟ قال هشام: لو اتى علي شيء لقتلني. فقال الرجل: كيف اقول؟ قال هشام: قل: كم مضى من عمرك؟

ومن الجدير بالذكر هنا ما يحكى عن عبد المسيح بن بقيلة لما نزل بهم خالد بن الوليد على الحيرة. وذلك انه خرج اليه عبد المسيح بن بقيلة -وهو من المعمرِّين- . فلما مثل بين يديه قال: انعم صباحا ايها الملك. فقال له خالد "من اين اتقصى اثرك؟ قال: من ظهر ابي. فقال خالد "فمن اين خرجت؟ قال: من بطن امي. فقال خالد: فعلام انت؟ قال: على الأرض قال: ففيم انت؟ قال: في ثيابي. قال: ابن كم انت؟ قال: ابن رجل واحد. فقال خالد: ما رأيت كاليوم قط. انا اسأله عن الشيء وهو ينحو غيره.

يضاف الى ذلك ولا يقل طرافة عنه انه قد خفي "الوحشي" على الجماعة من المنتمين الى صناعة النظم والنثر وظنوه المستقبح من الألفاظ. وليس كذلك. بل الوحشي: ينقسم قسمين: احدهما غريب حسن. والآخر: غريب قبيح. وذلك انه منسوب الى اسم "الوحش" الذي يسكن القفار وليس بأنيس. وكذلك الألفاظ التي لم تكن مأنوسة الاستعمال. وليس من شرط الوحش ان يكون مستقبحا بل يكون نافرا لا يألف الأنس. فتارة يكون حسنا وتارة يكون قبيحا. وقد تضمن التنزيل العزيز كلمات معدودة وهي التي يطلق عليها "غريب القرآن" وكذلك تضمَّن الحديث النبوي منه شيئا وهو الذي يطلق عليه "غريب الحديث". وهناك ايضا "الوحشي الغليظ او المتوعر". وهذا قبيح. وتنقسم الألفاظ في الاستعمال ايضا الى جزلة ورقيقة. ولكل منها موضع يحسن استعماله فيه. فالجزل منها يستعمل في وصف مواقف الحروب وفي قوارع التهديد والتخويف واشباه ذلك. وأما الرقيق فأنه يستعمل في وصف الأشواق وذكر ايام البعاد وفي استجلاب المودات وملاينات الأستعطاف واشباه ذلك. والجزل غير الوحشي المتوعر بل المتين مع عذوبتهُ في الفم ولذاذته في السمع. وكذلك الرقيق هو غير الركيك السفسف وانما هو الرقيق الحاشية

الناعم الملمس. معنى هذا ان الالفاظ الجزلة تتخيل في السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار. والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوي دماثة ولين وأخلاق ولطافة مزاج.

وجانب انيق آخر من جوانب اللغة العربية ذكره الجرجاني ايضا من بين جوانب كثيرة أخر اعرضنا عنها رغم اهميتها وطرافتها- . قال الجرجاني فاذا قلت "زيد منطلق" فقد اثبت الأنطلاق فعلا له من غير ان تجعله يتجدد ويحدث شيئا فشيئا. بل يكون المعنى فيه كالمعنى في العبارة "زيد طويل". وأما الفعل "ينطلق" فانه يقصد فيه الى ذلك. فاذا قلت "زيد ينطلق" فقد زعمت ان الانطلاق يقع جزءاً فجزءاً وجعلته يزاوله ويزجيه. قال الأعشى:

لعمري لقد لاحتْ عيونٌ كثيرةٌ

الى ضوء نار في اليفاع تحَّرقُ

وذاك لأن المعنى: ان هناك موقدا يتجدد منه الألهاب والأشتعال حالا فحالا.

-٣-

مما لاشك فيه أن الشعر العربي في مجرى تاريخه الطويل وفي مختلف ابعاده ومراميه يجمع بين الغث والسمين وبين الصادق والكاذب وبين الأصيل وغير الأصيل. وهذا واضح لدى جميع الشعراء لا سيما المكثرين منهم كما يظهر ايضا لدى الشاعر نفسه في مختلف المواقف. وقد وضع ابن سلامٍّ وابن طباطبا وقُدامة بن جعفر وآخرون ذكرنا اسماءهم في الفصل السابق مبادئ عامة اتفقوا على بعضها واختلفوا على بعض آخر- كل بطريقته الخاصة- للتمييز بين جيد الشعر ورديئه. اما وجهة نظري في هذا الكتاب فتنحو منحى آخر وتنفرد بكونها ترمي الى التمييز بين الشعر الجيد والشعر الأجود الذي ينطوي على صور شعرية مترفة انيقة معبَّرا عنها بألفاظ مترفة انيقة تنسجم معها بأوزان شعرية رائقة وقواف ذات جرس موسيقي غنائي وايقاع رشيق على السمع

والمشاعر. وفن الشعر هذا- الشعر الأجود- هو بنظري كالموسيقى يستلزم ان يكون اصحابه ورواته والمستمتعون بسماعه وترديده من ذوي السجية او السليقة الشعرية. وفقدان هذه السجية او السليقة الشعرية لا يختلف بنظري عن فقدان ذي النجدة السلاح ولا وجود لأحدهما دون الآخر . وقديما قال المتنبي:

إنَّ السلاحَ جميعُ الناسِ تَحملُه

وليس كلَّ ذواتِ المخلب السبُعُ

وقال شاعر آخر -من الجهة الثانية-: وهو الجواهري:

وكان لك الجيشان جيشٌ مُدَرّبٌ

وآخرُ اقوى منه قلبٌ مدرَّبُ

وما السيفُ إلاّ آلةٌ خلفها يدٌ

وخلفهما عزمٌ يهمُّ ويضرب

والجانب الأجود في فن الشعر عند العرب هو كالجوهر في الصدف لا يبرز للمرء حتى يشقه عنه. وكالعزيز المتحجّب لا يسمح بالنظر الى وجهه حتى يستأذن عليه. ثم ما كل فكر يهتدي الى وجه الكشف عنه ولا كلّ خاطر يؤذن له بالوصول اليه. ولابدَّ للفكر الذي يهتدي الى وجه الكشف عنه وللخاطر الذي يؤذن له بالوصول اليه (سواء اكان لقائل الشعر ام لراويته وللمستمتع بسماعه او انشاده) ان يتحمل فيه المشقة الشديدة ويقطع اليه الشقة البعيدة ليصل الى دُرره ليشعر بعد ذلك بسعادة الظفر ولذة النجاح. وهذا كله يستلزم توافر السجية الشعرية والثقافية اللغوية والشعرية الواسعة والعميقة. وهذا لا يتوافر الا للقليلين من الناس.

قال ابو عمرو بن العلاء: قيل لمنذر بن واصل كيف شهوتك لجيد الشعر؟ قال: اسمع بالحرف منه لم اسمعه من قبل -فتود اعضائي أن لها أسماعا فتتنغم به كما تنغمت

الأذن. وقيل له: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة لولدها وليس لها غيره. ثم قيل له: وكيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته من المال. وقال آخر: اني لأسمع القصيدة البِكرْ ومالي الا قميصٌ واحد فأخلعه على صاحبها وأستكسي الله عز وجل. والشعر الذي يودُّ منذر بن واصل لو ان اعضاءه جميعا تتلذذ به كما تلذذت الأذن عند سماعه والذي يخلع الآخر قميصه الذي لا يملك سواه على صاحب ذلك الشعر ثم يستكسي الله عز وجل هو الذي ينطبق عليه قول دعبل:

يموتُ رديء الشعرِ من قبلِ اهلهِ

وجيدهُ يبقى وانْ مات قائِله

وهو الذي وصف بأنه:

يستقبلُ الروحَ النَّدىَّ أريجهُ

أبداً ويؤكل بالضمير ويُشربُ

أو:

وهو المشيَّعُ بالمسامع إن مضى

وهو المضاعف حُسنه إِن كُرّرا

او كما قال آخر يصف الأبيات الأنيقة:

لذيذات المقاطع مُحكمات: لو ان الشعرُ يلبس لارتدينا.

وقائله ينطبق عليه القول المأثور "ان اشعر الناس من انت في شعره حتى تفرغ منه".

والذي عندي -في هذه المسألة- أنَّ المرء لا يبرع في صناعة هذا النمط من الشعر ولا يلتذ بروايته وحفظه وانشاده ما لم يكن ممن يميز بين الأحسان والأحسان ويعرف مراتب المحسنين من الشعراء.

جاء رجل الى العتّابي فقال له: ما اردتُ بقولك؟

في ناظري انقباضٌ عن جفونهما
وفي الجفون عن الآماق تَقصيرُ

قال العتَّابي: "أمتعلمٌ انت ام مُتعِّنت". قال "بل مُتعنت". قال العتابي: "لا أدري" - والتعنت هنا يشير الى فقدان السليقة الشعرية او الافتقار الى الدّربة. وربما يدل على فقدانهما جميعا. وقديما قيل "وما اجتمعا الداءان إلاَّ ليقتلا".

والشعر الأجود هذا الذي نحن بصدد الحديث عنه والاستشهاد بنماذج منه لا يقتصر على شاعر بالذات ولا على فترة زمنية محددة بل هو مثبوت في دواوين كثير من الشعراء في ثنايا شعرهم الجيد احيانا وفي الرديء منه. كما انه ايضا موجود لدى كثير من الشعراء المقلين والمنسيين ايضا. ويتجلّى بأوضح اشكاله في الغزل والوصف -بصوره المتعددة- وفي الرثاء وفي المدح (في حالات نادرة جدا) عندما تتوافر (بالاضافة بالطبع الى الصور الفنية الأنيقة المعبر عنها بالفاظ انيقة واوزان وقواف ذات جرس موسيقي كما ذكرنا قبل قليل) شرطان مهمان هما صدق مشاعر صاحبه وكون الممدوح يستحق ذلك المدح بجدارة ليس بنظر الشاعر وحده حَسْب وانما ايضا بنظر غيره ممن عاصروه وممن جاءوا من بعده.

وصدق المشاعر يتضح بأجلى صوره في الغزل وفي النسيب ويتضاءل الى ادنى مستوياته في المديح، قيل ان احد الرُّجّاز اتى نصر بن سيّار عامل خراسان لآخر خلفاء بني امية -وهو شاعر ايضا-. فمدحه بقصيدة تشبيبهُا مئة بيت ومديحها عشرة ابيات.

فقال له نصر: "والله ما ابقيتَ كلمة عذْبة ولا معنى لطيفا إلا وقد شغلته عن مدحي بتشبيبك فأن اردتَ مديحي فاقتصد في التشبيب".

كما يصدق ايضا في المديح الساذج النابع من مشاعر صادقة وان كانت متناقضة: من ذلك مثلا: دخل المعاني الراجز على الرشيد لينشده شعرا وعليه قلنسوة طويلة وخفّ ساذج. فقال له الرشيد: اياك ان تنشدني إلاَّ وعليك عمامة عظيمة الكور وخفان ومالقان. فقدم عليه العماني من ألغد وقد تزيا بزي الأعراب فأنشده. ثم دنا فقبَّل يده. ثم قال: "يا أمير المؤمنين.. قد والله انشدتُ مروان ورأيتُ وجهه وقبلّتُ يده واخذت جائزته. وانشدتُ يزيد بن الوليد وابراهيم بن الوليد ورأيت وجوههما وقبلتُ ايديهما وأخذت جوائزهما. وانشدت السفاح ورأيت وجهه وقبلتُ يده واخذت جائزته. وانشدت المهدي ورأيتُ وجهه وقبلّتُ يده واخذتُ جائزته. هذا الى كثير من أشباه الخلفاء وكبار الأمراء والسادة الرؤساء. ولا الله ان رأيت فيهم ابهى منظرا ولا احسن وجهاً ولا انعم كفًّا ولا اندى راحةً منك يا أمير المؤمنين". فاعظم الرشيد له الجائزة على شعره واضعف له على كلامه.

والشعر الجيد نادر في الشعر العربي على ما اظن والشعر الأجود اندر منه. ذكر يحيى إبن علي المنَّجم ان اباه قال: اكثر هذه الأشعار تسقط وتُنسى إلا ان يُرزق حمقى فيحملون ثقلها فتكون اعمارها بمدة اعمارهم. ثم ينتهي بها الى الذهاب. وقال المفضل الضبي: ما لم يكن من الشعر حسنا فبطون الصحف احمل لمؤونته من صدور عقلاء الرجال. وقال احد الشعراء في وصف الشعر الجيد:

يَـزِينُ الـشعرُ افواهـا اذا نطقـتْ

بالـشعر وقـد يُـزري بـأفواهِ

وقال ابو العيناء -من جهة الشعر الرديء- دخلنا على العُتبي نعوده وقد مرض. فقال: والله ما اجزع من الموت كجزعي من ابي مسلم الخلق لأني اخاف ان يرثيني كما

رثى الأصمعي. وقال ابن الاعرابي قيل للمفضَّل الضبي -وانا حاضر مجلسه- لِمَ لا تقول الشعر وانت اعلم الناس به؟ قال: علمي به يمنعني من قوله.

والشعر الجيد والأجود بدأت بواكيره قبل ظهور الأسلام ثم اخذ بالتبلور والتطور بعد ذلك وعلى اساسه حتى بلغ ارفع مستوياته في القرنين الثالث والرابع للهجرة. قال ابو عمرو بن العلاء لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى هممتُ روايته (وهو يقصد دون شك من ناحية المتانة اللغوية بالموازنة بالشعر الجاهلي بالدرجة الأولى وشعر صدر الاسلام). وهو رأي وجيه بنظرنا. وخالفه ابن الاعرابي -دون وجه حق بنظرنا- حيث قال: ان اشعار هؤلاء المحدثين-مثل ابي نواس وغيره- مثل الريحان يشم يوما ويذوى خير يخلد به. واشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركَّته ازداد طيبا. وذهب محمد بن القاسم الى ابعد من ذلك عندما قال على لسان ابيه -متجنيا برأينا- "سمعت ابي يقول: اغلب هذا الشعر مرذول.

ولابد من التنبية هنا الى اننا نستثني من حضيرة الشعر الجيد الصور الشعرية الأنيقة من ناحية التعابير والخيال التي تنطوي على معان تافهة او نابية عن الذوق السليم كقول احد الشعراء في المدح بالشجاعة:

وكانوا كفأر وسوسوا خلف حائط

وكنت كسنور عليهم تسلقا

والصور الشعرية التي لا تنطوي على مشاعر انسانية كقول احد الشعراء في وصف زلزال حدث في عهد احد الحكام الطغاة في مصر:

ما زلزلت مصر من كيد ألم بها

لكنها رقصت من عدلكم طربا

وقال آخر يشيد بكرم معن بن زائدة:

ومن جوده يرمي العداة بأسهم
من الذهب الأبريز صيغت نصولها
لينفقها المجروح عند انقطاعه
ويشتري الأكفان منها قتيلها

-٤-

اعتبر المعنيون بدراسة فن الشعر (الذين لخصنا آراءهم في الفصلين السابقين باستثناء الجرجاني) ان اللفظ -الصوت المنطوق به والرمز المدون: الكلمة -اداة او وسيلة او وعاء مادي ينقل الفكر من شخص الى آخر: اي انه الوسيلة التي يعبر بها الفكر عن نفسه. وهذا يعني -بعبارة اخرى- ان لدينا فكرا محضا ورموزا مدونة واصواتاً منطوقا بها تعبر عنه... ولم يفطنوا (باستثناء الجرجاني) الى الرابطة العضوية (غير القابلة للأنفصام الا لاغراض التحليل النظري) الموجودة بالفعل بين الرمز المكتوب والصوت المتحدث به من جهة وبين الفكر (المعنى) من جهة اخرى. والصوت المتحدث به دون معنى صوت اجوف: مبهم: اعجم لا يدخل في عداد اللغة. وكذا الحال في الرمز المدون. ومن هذه الزاوية فأن انحياز فئة منهم نحو اللفظ وانحياز فئة اخرى الى المعنى امر عقيم ولا مسوغ له من الناحية اللغوية ذاتها. فالكلمة اذن كيان واحد متماسك (فكر واداة مادية منطوق بها او مكتوبة تحمله). وهذا هو جوهر اللغة بنمطيها (لغة الكلام ولغة الاشارات). وهذا هو الذي يميز الأنسان عن سائر المخلوقات. وان الاتصال الفكري بين الناس يستلزمهما معا. يتضح اذن ان الكلمة فكر ملتحم بصوت يشير اليه ويرمز او يدل عليه. والكلمة اصغر وحدة متماسكة في اللغة مثل الخلية الحية في عالم الأحياء ومثل الذرة في عالم الجماد.

ذلك هو الخطأ الأول الذي وقع فيه المعنيون بدراسة فن الشعر باستثناء الجرجاني. أما الخطأ الآخر الذي ارتكبوه -باستثناء الجرجاني ايضا -فانهم تحدَّثوا عن الألفاظ المفردة التي وصفوها بالفصاحة كأنها في حد ذاتها او بمفردها تؤلف اللغة دون ان يتحدثوا - إلاَّ عرضا ونادرا -عن "النظم" الذي اسهب الجرجاني في الحديث عنه. ومن هذه الناحية فالفصاحة والبلاغة ترجعان الى معنى واحد وان اختلف اصلاهما. لأن كل واحد منها انما هو الابانة عن المعنى والاظهار له. معنى هذا ان الفصاحة تكون في المعنى (المزية التي استحق اللفظ الوصف بأنه فصيح عائدة في الحقيقة الى معناه). ولو قيل انها تكون فيه -دون معناه- لكان ينبغي اذا قلنا في اللفظة انها فصيحة ان تكون تلك الفصاحة واجبة لها في كل حال من حالات النظم بتعبير الجرجاني. ومعلوم ان الأمر بخلاف ذلك. فأنا نرى اللفظة تكون في غاية الفصاحة في موضع ونراها بعينها- فيما لا يحصى من المواضع- ليس فيها من الفصاحة قليل ولا كثير. وانما كانت كذلك لأن المزية التي من اجلها نصف اللفظ في شأننا هذا انه فصيح مزية تحدث من بعد ان لا تكون وتظهر في الكلم الاَّ ان يدخلها "النظم". وهذا يعني -بعبارة اشمل- ان الألفاظ المفردة- التي في اللغة- لم توضع لتعرف معانيها في انفسها ولكن لأن يُضمَّ بعضها الى بعض. وليس النظم شيئا آخر -بنظر الجرجاني- الا توخي معاني النحو واحكامه ووجوهه وفروعه فيما بين معاني الكلمات. قال سلمة بن قتيبة كنتُ عند ابن هُبيرة الأكبر، فجرى الحديث حتى ذكر العربية فقال: "واللهِ ما استوى رجلان دينهما واحد وحسبهما واحد ومرؤتهما واحدة احدهما يلحن والآخر لا يلحن. ان افضلهما -في الدنيا والآخر- الذي لا يلحن". قال سلمة بن قتيبة فقلت: اصلحَ الله الأمير.. هذا افضل في الدنيا بفضل فصاحته وعربيته. ارأيت الآخرة.. ما باله فضل فيها؟ قال: "انه يقرأ كتاب الله على ما انزله الله. والذي يلحن يحمله لحنه على ان يدخل في كتاب الله ما ليس فيه ويخرج منه ما هو فيه". قال سلمة: صدق الأمير. وقال الخليل سمعت السِّجستاني يحدث بحديث فلحن فقال: "استغفر الله" يعني انه عدَّ اللحن ذنبا.

وللنحو -كما هو معروف- مكانة مرموقة في اللغة العربية ذاتها وفي المجتمع العربي الاسلامي ايضا. قال السجستاني: تعلموا النحو فأنه جمال للوضيع وتركه هجنة للشريف. وقال وهب بن جرير الضَّبي من باهله: يا بني اطلب النحو فأنكَ لن تعلم منه بابا إلا تدرعَّتَ من الجمال سربالاً. وسأل الحجاج يحيى بن يعمر يوما: أتجدني الحن؟ قال يحيى: الأمير افصح من ذلك: فقال الحجاج عزمتُ عليك: ـ أتجدني الحن؟ قال يحيى وانا آمن.. فقال الحجاج: انت آمن. قال يحيى: نعم تلحن. فقال الحجاج في اي شيء. قال يحيى: في كتاب الله. فامتعض الحجاج وقال: ذلك أسوأ. والله لا تسألنني ببلد انا فيه. ونفاه الى خراسان. وذكر الرواة ان طاهر بن الحسين قدم الكوفة. وكان العباس بن محمد اميرا عليها. فوجه العباس كاتبه لاستقباله. فلما تلقاه الكاتب قال له: "أخيك العباس يقرأ عليك السلام". فقال له طاهر: وما انت منه؟ قال: كاتبه. فقال طاهر نعم. عليَّ -بموسى بن محمد بن عبد الرحمن- وهو كاتبه- فقال له: اكتب وانت قائم يصرف العباس بن محمد عن الكوفة اذ لم يتخذ كاتبا يحسن الأداء منه. وقال ابو عمرو الشيباني: لحن المنصور في مجلس فيه اعرابي. فصبر الاعرابي اذنيه وهو واجم. فلحن المنصور مرة اخرى. فقال الاعرابي: أفٍّ لهذا؟ ما هذا؟ ثم تكلم المنصور فلحن الثالثة. فقال الاعرابي: اشهد لقد وليت هذا الأمر بقضاء وقدر. وعن سعيد بن سلم قال دخلتُ على الرشيد فبهرني هيبةً وجمالاً. فلما لحن خف في عيني. ولحن الوليد يوما على المنبر. فقال أحدهم: لا والله. ان رأيته على هذه الأعواد فأمكنني ان املأ عيني منه لكثرته في عيني. فاذا لحن صار عندي كبعض اعوانه. وقيل ان عمر بن عبد العزيز تضجَّر يوما من كلامَ رجل بين يديه فقال صاحب شرطة للرجل: "قُم. أوذيتَ امير المؤمنين". "فقال عمر لصاحب الشرطة" والله.. لكلامك هذا اشدّ ايذاءً لي من كلامه".

وذكر القاسم بن معن ان عيسى بن موسى دعاه يوما ليوليه القضاء. قال فدخلتُ اليه وانا هايب له. فسلمت عليه بالامرة. فردَّ عليَّ السلام واشار الى موضع فجلستُ فيه. ثم قال لي: "دعوتك لخيراً" (بكسر اللام وفتح الراء). فقال القاسم: "فهان والله عليَّ. حتى

صار في عيني ارقَّ من شعره لما رأيتُ من لحنه". ثم قال لي: اريد ان اوليك القضاء. فقلت: لا استقيم له. فامتعض وقال غاضبا: ان ابيت ضربتك خمسة وسبعين سوطا. فقلت في نفسي ما يجيء بعد هذا إلاّ شَرٌّ منه. ثم سألته ممازحا: وتفعل ان لم افعل؟ قال: نعم. فقلت: قبلت. فوليت القضاء".

ومن طريف ما يروى في هذه المناسبة ان اعرابيا وقف يوما على مجلس الأخفش فسمع كلام اهله في النحو وما يدخل معه. فمال وعجب. فأطرق ووسوس. فقال له الأخفش: ما تسمع يا اخا العرب؟ قال: اراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا مما ليس من كلامنا.

ومعاني النحو -كما يقول ابو سعيد السيرافيّ- منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ من ذلك. وان زاغ شيء عن هذا النعت فانه لا يخلو من ان يكون سائغا بالاستعمال النادر والتأويل البعيد او مردودا لخروجه عن عادة القوم الجارية على فطرتهم. أما ما يتعلق باختلاف القبائل فذلك شيء مُسلَّم لهم ومأخوذ عنهم. وكل ذلك محصور بالتتبع والرواية والسماع والقياس المطَّرد على الأصل المعروف من غير تحريف. ومن يتكلم بالاعراب والصحة ولا يلحن ولا يخطيء ويجري على السليقة الحميدة والضريبة السليمة قليل او عزيز نادر. وان الحاجة شديدة لمن عدم هذه السجية وهذا المنشأ الى ان يتعلم النحو ويقف على احكامه ويجري على منهاجه ويفي بشروطه. ومتى اتصف انسان بهذه الحلية وعلى هذا النجَّار فلعمري انه غنيٌّ عن تطويل النحويين كما يستغني قارض الشعر بالطبع عن علم العروض. ولكن اين ذاك الفرد والشاذ النادر!! ومن طريف ما يروى في هذا الباب ان أَعرابيا وقف يوما على مجلس الأخفش فسمع كلام اهله في النحو وما يدخل معه. فحار وعجب واطرق. فقال له الأخفش: ما تسمع يا أخ العرب؟ قال: "أراكم تتكلمون بكلامنا في كلامنا بما ليس من كلامنا".

والنحو -كما هو معلوم- بحر زاخر يستعصي عبوره احيانا حتى على فطاحل اللغويين. ويستلزم دراسة مستفيضة ومتواصلة. سأل احدهم ابن خالويه ان يعلمه من النحو ما يقوم به لسانه فقال انا اتعلم النحو منذ خمسين عاما ولم استطع لحد الان ان اقوم لساني. قال الفراء مات الكسائي وهو لا يحسن حد نعم وبئس ولا حد أن المفتوحة ولاحد الحكاية وقيل لم يكن الخليل يحسن النداء. وكان سيبويه لا يدري حد التعجب. وساق ابن جني في الخصائص امثلة من سقطات الأصمعي والفراء والخليل وغيرهم. وذكر الرواة -وهو كثير وطريف- ان الجاحظ اخطأ في تفسير معنى الفعل "تلحن" في البيت الثالث من ابيات مالك بن اسماء بن خارجة:

أمعُطًى منّي على بصري للـ
حبِّ أم أنت اكمل الناس حُسنا
وحَديث ألذُه هو مما
يَنعتُ الناعتون بُوزن وزنا
منطق صائبٌ وتلحنُ احيانا
وخيرُ الكلام ما كان لحنا

قال الجاحظ: "يستحسن من الجارية الحسناء ان لا تكون فصيحة. وعندما عوتب الجاحظ وقيل له انما "تلحن" هنا بمعنى تورى في كلامها. قال: فظننت الى ذلك بعد. فقيل له: فغيره. قال: كيف لي بما سارت به الركبان. وتحضرنا في هذه المناسبة ملاحظات طريفة وعميقة نقلها مالك بن سلمان عن ابراهيم بن طهمان الذي كانت له جراية شهرية من بيت المال لقاء ما يبديه من آراء في قضايا لغوية وفقهية معقدة . وقد سئل ابراهيم هذه مرة وهو في مجلس الخليفة عن مسألة فقال لا أدري. فقيل له تأخذ كذا وكذا في كل شهر من بيت مال المسلمين ولا تُحسن مسألة... فقال: "اني آخذ على ما

أحسن." ولو اخذت على مالاً أحسن لفني بيت المال ولا يغنى مالاً احسن".شيء وقال ابو عبد الله الزعفراني كنت يوما بحضرة ابي العباس ثعلب. فسئل عن شيء فقال لا أدري. فقيل له: أتقول لا ادري.. واليك تضرب اكباد الأبل.. واليك الرحلة من كل بلد... وهذه صفة العلماء. ومعلوم ان المعرفة -في كل موضوع- اوسع من ان يحيط بها محيط او يلم بها شخص.

ـ ٥ـ

لقد اخذت احسن ما وقعت عليه عيني من أبيات ورد اغلبها في قصائد منثورة لشعراء متعددين وفي كتب الأدب واللغة وفي كتب الأختيار المعروفة. ويبدو ان الأختيار لو جرينا فيه الى اقصاه أَتْعَبَنْا القارئ لأن جيد الشعر واجوده لا ينتهي حتى ينتهيَ منه. وفي ما أرويه كفاية على انه غيض من فَيضه ولأن الأرتقاء الى مافوق ذلك هُذْرَ كما ان القصور عنه عِيَّ وحَصْر. وليس لي في تسجيله اكثر من حسن الأختيار. واختيار المرء قطعة من ذوقه. على ان ما اوردته من ابيات في الغزل او الراح لا يخرج عن كونه كما قال الشاعر:

أُمتعُ في رَوض المحاسنُ مُقلتي

وامنعُ نفسي أنْ تَنالَ المحرَّما

فأنا مفتونٌ بالصُّورُ الشعرية الأنيقة وبالتعابير الرشيقة المنسجمة معها وبالجِرْس الموسيقي والايقاع الشعري. فأنا مأخوذٌ بالوصف الشعري البريء لا بالممارسة الفعلية. وتلك حالة سايكولوجية وان كانت فريدة في بابها إلاّ ان لها نظائر لدى كثير من هواة الشعر القُدامَى والمحدَثين في الغَرب وفي عالمنا العربي على حد سواء. فقد تَغَنَى الكاتب الفرنسي الشهير راباليبه (١٤٩٥ ـ ١٥٥٣) في وصف النبيذ وأَطنَب في اظهار محاسنه واطرى عليه دون ان يذوق طعمه على ما يقول بلزاك (١٧٩٩ ـ ١٨٥٠).

نودُّ ان نبدأ بتسجيل ابيات مختارة من ثلاث قصائد في وصف الشمس لثلاثة شعراء عاشوا في فترات تاريخية متباعدة الأولى لرجل من بني الحارث بن كعب الذي عاش في صدر الفترة الاسلامية والثانية لابن الرومي الذي جاء من بعده بزهاء ثلاثة قرون والثالثة للشيخ عبد الحسين صادق الشاعر اللبناني المعاصر. ولكل نُكْهتُه ورشاقته رغم كون موضوعها جميعاً واحداً.

قال رجل من بني الحارث بن كعب يصف الشمس منذ بزوغها حتى غروبها:

مُخَبَّـأةٌ أمّـا اذا الليـل جَنَّهـا
فتَخفـى وأمّـا بالنهـار فَتَظْهَـرُ

اذا انشقَّ عنها ساطعُ الفجرِ وانجلَى
دُجَى الليل وانجابَ الحجابُ الستر

وأَلْبسَ عرضَ الأرضِ لونا كأنَّه
على الأُفق الشّرقي ثوبٌ معْصَفَرُ

تَجُلَّت وفيها حين يبدو شُعاعها
ولم يُعْلُ للعين البصيرةِ مَنظر

عليها كَرَدْعِ الزعفرانِ يُشبَّهُ
شُعاعٌ تلألأ فهو ابيضْ اصفر

فلمَّا عَلَتْ وابيضّ منها اصفرارُها
وجالتْ كما جال المَنيحُ المُشهّر

وجَللتِ الآفاقَ ضوء يُنيرها
بحرٌ لها وجهُ الضُّحَى تَتسَعَّر

كما بـدأت اذا اشـرقت في مغيبهـا
تعـود كمـا عـاد الكـبير المعمـر
وتُـدنف حتـى مـا يكـاد شـعاعها
يـبين اذا وَلَّـتْ لمـن يُتبـصَّرُ
فأفنـتْ قرونـاً وهـي في ذاك لم تـزل
تمـوت وتحيـا كـل يـوم وتُحشرُ

وقال ابن الرومي يصف الشمس عند الغروب:

وقـد رُنَّقَـتْ شمـسُ الأصيلِ ونَفُضَّتْ
علـى الأفُـق الغربـيِّ وَرِسـا مُذَعْذَعا
وودَّعَـتِ الـدُّنيا لتقـضيَ نَحْبَهـا
وشـول بـاقي عمرهـا فتشعـشعها
ولاحظـتِ النـوارُ وهـي مريضةٌ
وقـد وَضَعَتُ خـدّاً الى الأرض أضْرُعا
كمـا لاحظـتْ عُوَّادَهـا عـينُ مُـدنِفِ
تُجـرَّعُ مـن اوصابه مـا تَجَرَّعـا
وبَـيَّنَ إغـضاءُ الفـراق عليهمـا
كأنَّهمـا خِـلاَّ صـفاءِ تَوزَّعـا
وقد ضَرَبَتْ في خُضرة الـرَّوض صُفْرَةٌ
مـن الـشمس فاخـضَّر اخضراراً مُشَعْشَعا

وأذكَى نسيمَ الـرَّوضِ ريعـانُ طُلِّـةِ
وغَنَّـى مُغـني الطـيرِ فيـه مُرَّجعـا
وظَلَّتْ عيونُ الروَّض تَخَّضَلُّ بالنَّدَى
كمـا اغرورقـت عـينُ الـشَّجِّي لِتَـدْمَعَا
يُـرا عَيَّنهـا حُـورا اليهـا روانيـا
وَيَلحظْـنَ الحاظـا مـن الوجـد خُشَّعا

وقال الشيخ عبد الحسين الصادق: الشاعر اللبناني المعاصر يصف الشمس:

أَبِنْـتَ الـصُّبح كـم أَرعَبـتِ قلبـا
وكـم أَدْهُـشْت في معنـاكِ لُبَّـا
اراكِ وانـــتِ جاريــةٌ رُخــاءً
سُبقتِ الطَّـرفَ حـين يَـردُّ هُـدّبَا
أراكٍ وانــتِ ســافرةُ المُحيَّــا
سَـدلّتِ مـن الـسّناءِ عليـكِ حُجُبَـا
أمامـكِ تُرسـلين بيـاضَ شَـعْر
وخَلفَـكِ تَـسحبين دُجـاهُ سَـحْبَا
طُلْعْـتِ بِميَعـةِ الفتيَـاتِ زُهـوا
وسّـرت بِهدْجُـة الـشّيخاتِ دَبَّـا
فأنـتِ مـع التبـرُّج بِنْـتُ حِـذر
وطالِعـكْ المـبينَ هَـو المُخبَّـا

فلــم تــستبقِ للظلمـــا هَزيعــا
ولا لكواكـــب الجـــوزاء سَـــرِبا

البحتري يصف طيف الخيال:

أقامتْ علـى الهجران مـا إنْ تَجوزُه
وخالَفَهــا بالوصـل طَيـفٌ لهـا يَـسرى
فكـم فـي الـدُّجَى مـن فَرْحـةٍ بلقائهـا
ومـن تَرْحـة بـالبيَن منهـا لـدَى الفجر
اذا الليـلُ اعطانـا مـن الوَصْل بُلغَةٌ
تَنّتنــا تُباشــيرُ النهــارِ الى الهَجْــر
ولم أنــسْ إسـعافَ الكَـرى بـدُنُوها
وَزوْرَتَهــا بعــد الهُــدُوّ ومــا تَــدري
وأَخـذي بعِطفَيهـا وقـد مـالَ رِدفُهـا
بِلَيّنَــة العِطفــين مهـضومة الخَـصْر
عنــاقٌ يُــروِّي غِلَّــتي وهــو باطــلٌ
ولــو أنــه حَــقّ شَـفَى لَوعَـة الـصدر

....

أَلمَّــتْ بنــا بَعْــدَ الهــدوِ فــسامَحَتْ
بوصــل متــى تَطْلُبْــهُ فــي الجِـدِّ تُمْنَـعِ
وما برَحَـتْ حتـى مَضَـى الليـلُ وانقضَـى
وأَعْجلَهَــا داعــي الــصبّاح المُلِّمــع

فَولَّـتْ كـأنَّ الـبينَ يَخلـجُ شَخـصهَا
أَوانَ تَولَّـتْ مـن حَـشايَ وأَضـلُعي
وَرُبَّ لقـاء لم يُؤَمَّـلْ وفُرْقَـة
لأَسمـاءَ لم تُحـذَرْ ولم تُتوَقَّـعِ
أرانـي لا أنفـكُّ في كـلِّ ليلـةٍ
تعـاود فيهـا المالِكيَّـة مَـضْجعي
أَسَـرَّ بقـربٍ مـن مُلِّـم مُـسّلّم
وأشَـجَي ببـيَن مـن مُحّـبِ مُـودِّع
فكـائنُ لنـا بَعْـدَ النـوى مـن تَغـرُّقِ
تُزَجِّيـه احـلامُ الكـرىَ وتجمـع

....

وإنّـي وإنْ ضَـنَّتْ علـيَّ بُودِّهـا
لأَرتـاحُ منهـا للخَيـالِ المـوِّرقِ
فكـم غُلَّـةٍ للـشوق أطفـأتُ نارَهـا
بطيـفٍ مـا يَطـرُقْ دُجَـى الليـلِ يَطـرُقِ
أَضُـمُّ عليـه جَفـنَ عـيني تَعَلُقـا
بـه عنـد إجـلاء النُّعـاس المرفِّـق

وقال الشريف المرتضى في وصف طيف الخيال:

تَـصُدِّينَ مِنَّـا سـاهراتٍ جُفونِنـا
ومـا زِرِتنـا إلاَّ ونحـن نِيـامُ

فَخَيرُ من اليَقظانِ مَن بات سَاهرا

وخيرُ مِنَ الصُّبحِ المنيرِ ظَلام

لقاءُ بِجُنْحِ الليلِ طَلْقٌ مِحلهُ

وفي الصبْح مَحْظورٌ عليَّ حَرام

....

وزارتْ وسادي في المنام خَريدَةٌ

اراها الكَرَى عيني ولستُ اراها

تُمانِعُ صُبحاً أَنْ اراها بناظري

وتَبذُل جُنُحاً أَنْ أَقَبِّلَ فَاها

ولمّا سَرَتْ لم تَخْشَ وهَنا ضَلالَةً

ولا عَرَفَ العُذَّالُ كيف سُراها

فَمَنْ ذا الذي من غير وعد أتىَ بها

ومن ذا على بُعْدِ المَزار هداها

في وصف الراح والساقي: قال احدهم:

وساقٍ يَحُثُّ الكأسَ وهي كأنما

تلألأ منها مثل ضوء جبينه

سَقاني بها صِرْفَ الحُمَّيا عَشيَّةً

وثَنَّى بأُخرى مِن رَحيق جفونه

هَضيمِ الحَشا ذو وَجنةِ عَنْد مِيَّة

تُريكَ قِطافَ الوردِ في غير حِينه

فَــأَلْثِمُ مــن جَفنَيــه مــافوق خَــدِّه

وأرشِــفُ مــن خَدَّيــهِ مــا بِيَمِينيــه

وقال ديكُ الجِنِّ:

فقــامَ تَكــادُ الكــأسُ تَخِــضبُ كَفَّــه

وتَحْــسَبُهُ مــن وَجَنتيــه اســتعارها

مُــورَّدَةٌ مــن كَــفٍّ ظَــبي كأنمّــا

تَناوَلَهــا مــن خــدِّه فَأَدارَهــا

فَــضَلْنا بأيــدينا نُتَعْتِــعُ روحَهــا

فتأخــذ مــن اقــدامنا الــراح ثارهــا

وقال ابن هاني الأندلسي:

جَعلنــا حَــشايانا ثِيــابَ مُــدامِنا

وقَــدَّتْ لنــا الظلمــاءُ مــن جِلــدها لُحْفــا

فمــن كَبِــدٍ تُــدْنِي الى كَبِــدٍ هَــوَىً

ومــن شَــفَةَ تُــوحي إلى شَــفَةَ رَشْــفا

بِعينيــك نَبِّــهْ كأســهَ وجفونَــهْ

فقــد نُبِّــهَ الأبريــقُ بعــد مــا أغْفَــي

وقــد فَكَّــتِ الظَّلمــاءُ بعــضَ قيودِهــا

وقــد قــام جيشُ الليــلِ للفجر فاصــطَّفا

وولـــت نجـــومٌ للثُّريَّـــا كأنّهـــا
خـــواتمُ تبـدو في بَنـانِ يـدٍ تَخْفَـى

يَـــسْقيكَهَا رَشَـــأُ يكـــادُ يَرُدُّهـــا
ســكَرى بفـــترة مُقلَـــةٍ حَـــوراء

يَـــسعَى بهـــا وبِمثْلِهـــا مـــن طَرْفِـــهِ
عَـــوْدا وإبـــداءً علـــى النُّـــدمَاء

وقال الناشيء:

ومُدامـــةٍ يخفَـــى النَّهـــارُ لنورهـــا
وتَـــذِلُّ اكنـــافُ الـــدّجى لِـــضِيَائها

صُـــبَّتْ فأحـــدقُ نورهـــا بِزجاجهـــا
فكأَنَّهـــا جعلْـــت إنـــاءَ إنائهـــا

وتُـــرى اذا صُـــبَّتْ بَـــدتْ في كأسـها
تتقاصـــر الأرجـــاء عـــن ارجائهـــا

وتَكـــاد إنْ مُزِجَـــتْ لِرّقـــة لونهـــا
تَمتـــازُ عنـــد مِزاجهـــا مـــن مائهـــا

صفراءُ تُضِحي الـشمسُ إنْ قيستْ بها
في ضـــوئها كالليـــل في اضـــوائها

واذا تَـــصَفَّحْتَ الهـــواءَ رأيتَـــه
كَـــدِرَ الأديمـــةِ عنـــد حُـــسن صَـــفائها

تزداد من كَرَم الطباع بقدر ما
ثُودي به الأيام من اجزائها
لاشيء اعجبْ من تولَّدِ بُرئها
من سقْمها ودوائها من دائها

وقال اخر – وهو كثير وانيق:

أمَّا الصَّبُوحُ فأنّه فَرْضُ
فألامَ يَكْحَلُ جَفْنَكَ الغَمْضُ
هذا الصباحُ بَدَتْ بشائرُه
ولخيله في ليله رَكْضُ
والصُّبح قد شابْت ذوائبه
وعِذاره بالفجر مُبيَّض
فانهض الى صهباءَ صافيةٍ
قد كاد يَشري بعضَها بعضُ
يَسقيكَها من كَفِّه رَشأٌ
لِدْنُ القِوام مُهَفْهَفَ بَضُّ
سِيَّانَ خَمرتُه وريقتُه
كِلتاهما عبيةُ مَحْض
تُدمي اللواحظُ خَدَّهُ نَظَرا
فاللحظُ في وَجَناته عَضُّ

والكـــأسُ اذ تَهـــوى بهـــا يـــدُه

نجـــمُ بِجُـــنْح الليـــل مُـــنقَّض

نـــام النـــدامى لاحَـــراك بهـــم

إلا كمـــا يتحْـــرك النـــبَّض

وقال بشار:

وصـــفراءَ مِثـــل الزعفـــرانِ شَـــربتُها

علـــى وجـــه صـــفراءِ الترائـــبِ رُودِ

حـــسدتُ عليهـــا كُـــلَّ شـــيء يَمَـــسُّها

وماكنـــتُ لـــولا حـــسنُها بحـــسود

كـــأن مليكـــا جالـــسا في ثيابهـــا

تُؤَمِّـــل رؤيـــاهُ عيـــونَ رُقَـــود

مـــن البـــيض لم تُـــسْرِج علـــى اهـــل ثُلَّـــةٍ

ســـواما ولـــم ترفَـــع حِـــراَج قعـــود

اذا نَطقَـــتْ صِـــحنا وصـــاح لنـــا الـــصَّدَى

صِـــياحَ جنـــودٍ واجهـــتْ جنـــود

تُميـــتُ بـــه البابَنـــا وقلوبَنـــا

مِـــراراً وتحـــيهّن بَعْـــدَ عَمـــود

ضـــللنا بـــذاك الديْـــدنِ الـــبرَم كُلَّـــه

كأنـــا مـــن الفـــردوس تحـــت خلـــود

ولا يــأسَ إلاّ أننــا عنــد اهلــها
شــهودٌ ومــا البابُنــا بــشهود

في الغزل: قال احدهم:

ولمــا وقفنــا للــوَداع وبيننــا
احاديــثُ يعيــي الحاســبين عديدُها
تَبــادَرَ دمعــي فانــصرفتُ تهيضني
الى عبرتــي بُقْيــا عليــكِ اذودهــا
فمــا أشْــبُهتْ عينــايَ إلاّ ســحابةً
دنــا صَــوبُها واســتَعْجَلَتْها رُعودهــا
فمــا زال زَجْــرُ الرعــد يحــدُ سَــحابها
فتبــدو وارواحُ الــشَّمال تُحيــدها
فمــا اقلعــتْ حتــى بَكــت فتــضاحكتْ
ريــاضُ الرُّبَــى فاخــضَّر بالعَــشْب عودهــا
وهــل تَتلاَفــى ذاتُ عِقــد جُمانَهــا
اذا انــسلَّ مــن سِــلك النِّظام فريــدُها
فقــال رفيقــي ماللِونِــكَ حــائلا
وعينيــكَ مــا يعدو جَفْونــكَ جُودُهــا
فأَغــضيتُ عــن ردّ الجــواب تَبَلُّــدا
وخــيرُ قلــوبِ العاشــقين بَليــدها

وقال البحتري:

نَصَرْتُ لها الشَّوقَ اللجوجَ بأدمع
تلاحَقَّن في اعقاب وَصْل تَصرَّما

وَتَيَّمنَي أَنَّ الجَوَى غيرُ مُقصِرٍ
وأن الحِمَى وصفٌ لِمَن حَلَّ بالحمى

أُؤلِّفُ نَفْساً قد أُعِيْدت على الهَوَى
شَعاعا وقليا في الغواني مُقْسَّما

لقد أخُذْ الرَّكبانُ امِسِ وغادروا
حَديثَين مِنَّا ظاهرا وُمكتَّما

وما كان بادي الحُبّ مِنَّا ومنكُمُ
لِيُخَفى ولا سَرَّ التلاقي لِيُعْلَما

وقال غيره:

تُقِّربنا الآمالُ ثم تَعوقُها
مماطَلَةُ الدنيا بها واعتلالُها

فأصبحتِ كالشَّمسِ المنيرة ضَوُّها
قريبٌ ولكن اين مِنَّا مَنالُها

أبو حَيَّة النُّميَري:

نَظـرتُ كـأني مـن وراء زُجاجـةٍ
الى الـدار مـن مـاء الـصبا أنْظُـرُ
فعينـايَ طـورا تَغرقـان مـن البُكَـا
فأعـشى وطـورا تحـسُرِان فأُبـصِرُ
ولـيس الـذي يهمي من العين دمُعها
ولكنَّـه نَفْـسٌ تـذوب فتقْطُـر

وقال غيره:

يابـديعا طغـى بـه الحـسن حـدا
فتحـدا جمالـه وتعـدى
مـشبه الغـزال والبـدر والغـصـ
ـن جميعـا عينـا ووجهـا وقـدا
لابـسا فـوق درفيـه عقيقـا
فارشـا تحـت نـرجس العـن وردا
لـو تبـدى في ظلمـة لاسـتنارت
او تمـشى علـى الـصفا لتنـدى
واسـتعار الهـوى لـه لحظـات
كـن في عـسكر الـصبابة جنـدا
لا تلمـني فلـست اول حـر
صـار بالحـب للأحبـة عبـدا

وقال آخر:

واذا التقينــا والعيــونُ روامــقُ
صَــمْتَ اللــسانُ وطرفُهــا يــتكلّم
تــشكو فــأفهمُ مــا تقــولُ بِطَرفْهــا
ويَــرُدُّ طَــرفي مِثْــلَ ذاكَ فَــتفهم

وقال غيره:

اذا نَظَــرَتْ طَرَفْــي تَكلَّــم طَرَفُهــا
وجاوَبَــه طَــرفي ونَحــن سُــكوتُ
فكــم نظــرة منهــا تُخِّــبرُ بالرِّضــا
وأُخْــرَى لهــا نَفْــسي تَكــاد تمــوت

وقال الأمير تمَيم بن المُعِزّ:

قالــت وقــد نالَهــا للبــيَن أَوُجَعُــهُ
والبــيَنُ صَــعبُ علــى الأحبــاب مَوْقِعُــهُ
اجعلْ يديَك على قلبي فقد ضَعُفَتْ
قــواه عــن حَمــل مــا تَحويْــهِ أَضْلعُه
واعطِـفْ عَلَـيَّ المَطايـا سـاعةً فعسى
مَــن شَــتَّ شَــمّلَ الهَــوى بــالبيَن يَجمعه

كـأنّني يـومَ وَلّـتْ حَـسْرةَ وأَسـىً

غَريـقُ بحـرٍ يَـرى الـشاطي فَيُمنْعَـه

وقال الشريف المرتضى:

وكـم مـن جَليـدٍ لا يُخـامرُهُ الهوىَ

شَـنَنَّ عليـه الوَجـدَ حتـى تَتَيمَـا

اهـانَ لَهُـنَّ الـنفسَ وهـي كريمـةٌ

والقَـى الـيهُنَّ الحـديثَ المكتمـا

ويـومَ وَقفنـا للـوداع وكُلُّنـا

يَعُـدُّ مطيـعُ الـشوقِ مَـن أَحْزَمـا

نُـصِرْتَ بقلـبٍ لا يُعَنَّـفُ في الهَـوى

وعـينٍ متـى اسـتَمْطَرتُها قَطَـرَتْ دَمـا

وقال آخر:

عَاطَيْتُـه كَـرَمَ الأَوَداجِ صَـافِيَةً

فقـام يـشدو وقـد مالـتْ جَوَانُبـهُ

إِنْ يُوعِـدِ الوعـدَ يومـا فهـو مُخَلِفُـهُ

او يَنْطُـق القـولَ يومـاً فهـو كاذِبُـهُ

كَلَّمُتـه بجفـون غـيرِ ناطقـةٍ

فكـان مـن ردِّه مـا قـال حاجِبُـهُ

استودع اللـهَ مـن بـالطَرف ودعـني

يـومَ الفـراق ودمـعُ العـينِ سـاكِبُهُ

ثم انصَرْفتُ وَداعي الشوق يَهتِفَ بِيْ

أرفِـقْ بقلبـك قـد عَـزَّتْ مَطالبُـهُ

وقول غيره في الغزل ايضا:

وتَنـالُ إنْ نَظَـرَتْ اليـك بطرَفْهـا

مـا لا ينـال بِحَـدِّه النَّـصْلُ

واذا نَظَـرْتَ الى مفـاتِن وَجْههـا

فلِكُـلّ موضِـع نظـرةٍ قتَـلُ

ولقلبهـا حِلْـمٌ تَـصُدُّ بـهِ

عـن ذي الهَـوى ولطرفهـا جَهْـلُ

وقال ابو نواس في المعنى نفسه:

ومنتظـرٍ رَجْـعَ الحـديثِ بطرفِـهِ

اذا مـا انثنَـى مـن لينْـهِ فَـضَحَ الغُصْنَا

اذا جَعَـلَ اللَحـظَ الخَفِّـى كلامَـه

جَعلـتُ لـه عـيني لِتُدْركـه أُذْنَـا

وقال آخر في معرض العبث:

وسـاقٍ يَحُـثُّ الكـأسَ وهـيَ كأنَّمـا
تـلألأ منهـا مِثـلُ ضـوءِ جَبِنيـهِ

هَـضيمُ الحَـشا ذو وَجْنـةٌ عَندَمِيَّـة
تُريـكَ قِطـافَ الـوردِ في غـير جِنـه

سـقاني بهـا صِـرْفَ الحُميَّـا عَـشيَّة
وثَنَّـى بـأخرى مـن رحيـقِ جِفونـه

فأَرشِـف مِـن جَفَنيـه مـافوق خَـدِّه
والْـثِمُ مِـن خَدَّيـه مـا بيمينِـهِ

وقال ذو الرِّمَّة:

لهـا بَـشَرٌ مِثْـلُ الحريـرِ وَمنطـقٌ
رقيـقُ الحَواشـي لاهُـراءٌ ولا نَـزْرُ

فَفيـكِ مِـن الـشَّمسِ المُـنْيرِة نُورُهـا
ولـيس لهـا مِنـكِ المَحـاجِرِ والثُّغْـرُ

وقال ابو نواس في وصف الراح:

فـالخمرُ ياقوتـةٌ والكـأسُ لؤلـؤةٌ
مـن كَـفِّ لؤلـؤة مَمـشوقَةِ القَـدِّ

تَـسقِيكَ من عَينَيها سِحرا ومن يدها
خَمـرا فمالـكَ مـن سُكرينِ مـن بُـدِّ

....

قامْــت بأبِريقهــا والليــل معْتُكِــرُ

فَظَــلَّ مــن وجههــا في البيــت لألاءُ

فأرْسلتْ مـن فَـمِ الأبريـق صافية

كأنّمــا أخــذُها بــالعينِ إغْفـاء

....

كــأنَّ حُبــابَ المــاءِ حــول إنائِهــا

شُــذورٌ ودُرٌّ لــيس بينهمــا فَــصْلُ

تَوهَمَّتُهــا في كأســها فكأنَّمــا

تَوهَّمــتُ شيئاً لــيس يُدركــه العقــل

اذا اشتبكتْ رَجلاَي عن سَورة الكرى

دَرَجْــتُ اليهــا مِثلَمــا يَـدْرُج الطِّفــل

وقال آخر يتغزل بعمياء:

قــالوا تَعَــشَّقها عميــاءُ قلــتُ لهــم

مــا شــأنَها ذاك في عــيني ولا قَــدَحَا

بــل زادَ وجَــدْيَ فيهــا أنَّهــا ابــداً

لا تَعِــرف الــشَّيبَ في فُــودي اذا وَضَــحا

إنْ يُجرحِ الـسيفُ مـسلولا فلا عَجَبٌ

بَــل العُجْــبُ مــن سيف مُغْمَــد جرحَــا

كأنَّمـا هـي بـستانٌ خَلـوتَ بـه
ونـامَ نـاطورُه سَـكرانَ قـد طفحـا
تَفَـتَح الـوردُ فيـه مـن كَمائمـه
والنَّرجِسُ الغَضُّ فيه بَعْدَ مـا انفتَحـا

وقال ابن نباتة في الغزل:

اغـصانُ بـانٍ مـا أرى أم شَـمائِلٌ
واقمـارُ تـمٍّ مـا تَـضُمُّ الغَلائـلُ
وبِـيْضُ رقـاقٍ أمْ جفـونٌ فـواتِرٌ
وسُـمرُ دِقـاق ام قُـدودٌ قواتـل
وتلـك نبـال ام لحـاظ رُواشِـقُ
لهـا هَـدَفُ مِـنيّ الحَـشا والمَقاتِـل
بِروحـيَ أفـدِي شادِنا قـد أَلِفتُـهُ
غَـدوتُ في شُـغْلٍ مـن الَوجـد شـاغل
أمـيرُ جمـالٍ والمِـلاحُ جنـوده
يجـور علينـا قَـدُّهُ وهـو عـادِل
له حاجبٌ عن مقلتي حَجَبَ الكَرَى
ونـاظِرُهُ الفَتّـانُ في القلـب عامِـل
شكوت فما أَلْـوى وقلتُ فما صَغَـى
وَجَـدَّ بقلـبي حُبَّـهُ وهـو هـازل

طويـل التـداني دَلُّـهُ متـواتِرُ

مَديـدُ الـتَّجني وافـرُ الحُـسْن كامـل

أَطارِحُـه بـالنحوِ يومـاً تعَلَّـلا

فيبـدو وللأعـراب فيـه دَلائـل

ويرفَع وَصلي وهو منصوبُ في الهوَى

ويَنـصبُ هَجـري عامِـداً وهـو فاعـل

تفقهـت في عـشق لـه مثـل ماغـدا

خـبيرا بأحكـامِ الخِـلاَفِ يُجـادل

فيا مـالكي مـا ضّر لـو كنت شافِعي

بِوَصلك فافعـل بِـيْ كمـا انـت فاعـل

فـاني حِنيفِـيّ الهَـوى مُتخيّـل

بعـشقك لا أُصـغي وان قـال قائـل

وقال دعبل:

فـوالله مـا أدري بـأيِّ سِـهامها

رَمَـتني وكـلُّ عنـدنا لـيس بالمُكْـدِي

أَبالجِيْـدِ أم مَجْرَى الوِشاح وانَّـي

لأَتَهْـمُ عَينيَهـا مـع الفـاحِمِ الجَعْـدِ

وقال آخر:

تمنَّيتُ مـن أَسْعَى لـه وهـو قـاتلي

وَرُبَّ منًـى للمـرء فيهـا مَنايَـاهُ

قَسَا فرماني من قِسِيَ حواجب
تَنوب لها دَأبا عن الرَّشْقِ عَيناه
بَذَلنا دِماءٌ في هَواهُ وأَدْمُعا
وضَنَّ لنا ظُلْما بِظَلْمِ ثَناياه
فَمَنْظَرُهُ والثُّغرُ منه وعَرْفُهُ
وقامَتُه والرِّدَف منه وخَدّاه
لِشَمسِ الضَّحَى والدُرِ والمِسّكِ نَفْحَةً
وغُصْنِ النَّقا والدَّعْصِ والوردِ أَشْبَاه

وقال آخر:

توهَّمَهُ طَرْفي فَألَمَ خَدَّهُ
فَصارَ مكانَ الوَهِمِ من نَظَري أَثْرُ
وصَافَحَه قلبي فَآلَمَ كَفَّهُ
فَمَنْ صَفْح قلبي في انامله حَفْرُ
ومرَّ بِفكري خاطِرا فَجُرَحْتُه
ولم أرَ خَلْقَا قَطُّ يُجرحه الفِكر

وقال غيره:

ومن طاعتي اياهُ أُمِطْرُ ناظري
له حين يُبدي من ثناياهُ لِيْ بَرْقَا

كـأنَّ دمـوعي تُبْـصِرُ الوَصْـلَ هاربـا

فِمِـنْ أجـلِ ذا تجـرِي لِتُدْرِكَـه سَـبْقَا

وقال آخر:

قِفـي يـا اميمَ القلـبِ نَقضي لُبانَـةً

ونـشكو الهـوى ثـم افعلـي مابَـدا لَـكِ

اريَ النـاسَ يَرجـونَ الربيـعَ وانمَّـا

ربيعـي الـذي ارجـو زمـانَ نوالـك

تعاللـت كـي أَشجَى ومابـكِ عِلَـةٌ

تُريـدين قتلـي قـد ظَفِـرْتِ بِـذَلكِ

أبـيني أفي يُمنـى يـديك جَعَلْـتِني

فـأفرُح أم صَـيرَّتني بـشِّمالِكِ

اصاحبةَ العَهْـدِ الـذي لا نَخونُـه

ذَهبـتِ بقلـب الـصَّبِ مـذهَب مالـك

أَمُـرّ عليـك اليـومَ آخـرَ مَـرَّةٍ

فياليـت شـعري هـل خَطْرتُ ببالـك

أقـول لـك اليـومَ الـوَداعَ وليتني

تُـسَدَّ علـيّ اليـومَ كـلُّ مـسالكي

الحاجري في الغزل:

هَيَّجْـتَ وَجـدي يانـسيم الـصَّبا

إنْ كنـتَ مـن نجـدٍ فيـا مَرْحَبَـا

جِـدّدَ فَـدتْكَ الـنفسُ عهـدَ الهَـوى

بـــذلك الحـــيِّ وتلـــكَ الرُّبَـــى

إنَّ المُقيمَ بَــسْفح اللَّـــوى

مَـــن لا ارى لـــي عنــه مَــذهبا

أبقـوا الأسَـى لـي بَعْـدهم مَطمَعـا

والـــدَّمعُ حتـــى نَلتقـــي مَـــشرَبا

مازلـتُ ابكي الـشِّعْبُ مـن بعـدهم

حتـــى غــدا مـــن ادمعـــي مُعْـشِبَا

وقال ايضاً:

جَـسَدٌ ناحــلٌ وقلــبُ جَـريحُ

ودمـــوعٌ علـــى الخـــدود تَـــسيحُ

وحبيـــبُ مُـــرُّ التَّجنّـــي ولكـــنْ

كـــلَّ مـــا يفعـــل المليـــحُ ملـــيحُ

يــا خلـيّ الفــؤاد قــد مـلأ الــو

جــد فـــؤادي وبـــرح التّبـــريح

جُــد بوصـلٍ أحيـا بــه او بهجـر

فيـــه مـــوتي لعلـــني اســـتريح

انــت للقلــب في المكانــة قلــبٌ

ولروحـــي علـــى الحقيقـــة روح

بخضوعي والوصلُ منك عزيزٌ

وانكساري والطرفُ منك صحيح

انت قصدي من الغزير ونجدٍ

حين اغدو مُسائلا واروح

يا غزالاً له الحشاشةُ مرعي

لا خزامي بالرقمتين وشَيحُ

ابو الحسن التهامي في الغزل:

ولو بكت الورق الحمائم شجوها

بعيني فما اطواقهّن انسجامُها

وفي كبدي استغرُ الله علّةٌ

الى برد تبنّى عليه لثامها

وبَرْدٍ رُضاب سلسلٍ غيرَانه

اذا شربته النفس زادَ هيامها

فيا عجباً من غلّةٍ كلمّا ارتوت

من السلسبيل العذب زاد اضطرامُها

كَأنَّ في الجَوّ اشجاراً مُعلَّقَة

مِنَ المجّرة تُدنيها وتُقصيها

اوراقُها فِضَّةٌ بيضاءُ تَضرِبها

ريحُ الشَّمال فتَهوَى من أعاليها

او راقصاتُ جوارٍ فوقعها انقطَعْت
منهـا العُقـودُ فَنِلنـا مـن لآليهـا

او شَقَّقَ البعضُ من بَعضٍ غلائلها
بُسكرِهنّ فألقتهـا تَراقيهـا

او مَرَّتِ الريحُ بالأَقطانِ قد ندفتْ
فَعمَّمتْ دورَهـا منهـا سَواقيها

او من نُسورٍ تَسُدُّ الأُفُقَ كثرَتُها
تَناثَرَ الريشُ واصطفّتْ خَوا فيهـا

او فيه أَرْجِيَةُ بالماءِ دائرةٌ
تَرمي الطّحين الينا من نَواحيهـا

او فيه غَسَّالُ أثوابٍ يُبيّضها
يُظُّل يَعصِرها طورا ويَطويهـا

او الكواكبُ من افلاكها انتشرتْ
على عُصاة تمادتْ في مَعاصيها

ابو الفتح البِستي، في الحِكَم:

زيادةُ المرءِ في دنياه نُقصانُ
وَربْحُهُ غيرُ محضِ الخيرِ خُسرانُ

دَعِ الفؤادَ من الدُنيا وزُخرِفُها
فَصفُوُها كَدرٌ والوصلُ هُجران

أحْسِنْ الى النـاس تَـستعبدْ قلـوبَهُمُ

فطالمـا اسـتعبدَ الأنـسانَ احـسانُ

مـن اسـتعان بغـير الله في طلـب

فـأن ناصـرهُ عُجْـزٌ وخُـذلان

مَـن يَـزرِع الـشَّرَّ يَحصِد في عواقبـه

نَدامـــةُ ولَحُـــصْدِ الـــشَّرُ أَبَّـــان

والنـاس اعـوان مـن دَالَتْـهُ دولتُـهِ

وهـــم عليـــه اذا عادتْـــه اعـــوان

وللأمـــور مواقيـــتٌ مقُـــدَّرةٌ

وكــلُّ امـرٍ لــه حَــدٌّ ومِيزان

فــلا تكــنْ عَجِــلا في الأمـر تَطلبُــه

فلــيس يُحمَــد قبـل النُّـضجِ بُحـران

حَـسْبُ الفتـى عَقْلُـه خِـلاًّ يُعاشره

اذا تَحامـــاه اخـــوانٌ وخُـــلان

اذا نبــا بكــريم مــوطنٌ فَلَــه

وراءَه في بـــسيط الأرض اوطـــان

لا تَحـسبنَّ سـرورا دائمـاً ابـدا

مـن سـره زمـن سـاءته ازمـان

ابو نواس لما نهاه الأمين عن شرب الخمر:

أيهُّـا العــاذلان في الــراح لومـا

لا اذوق المـــدام إلاَّ شميمـــا

نـــالني بالعتـــاب فيهـــا إمـــام

لا ارى لـــي خلافـــه مـــستقيما

إن حظــيَّ منهــا اذا هــي دارت

أَن اراهــا وان أَشــم النــسيما

فاصــرفاها الى ســواي فــأني

لــست إلاَّ علــى الحــديث نــديما

فكــأني ومــا أَحــسنُ منهــا

قعــديُّ يُحــسنُ التَّحكيمــا

لم يطــق حملــه الــسلاح الى الحر

بِ فأوصــي المطيــق ألاَّ يُقيمــا

وقال غيره:

قــالوا اشــتكت عيُنـه فقلــتُ لهـم

مــن شَّــدة الفَتْــك نَالَهــا الوَصَــبُ

حمرتهــا مــن دمــاء مــن قتلــت

والــدمُ في النَّــصل مــشاهدُ عَجَــبُ

وقال ابو تمام:

تُعطيـــك منطقهـــا فـــتعلم أنّـــه

لِجَنَـــى عذوبتـــه يمـــر بثغرهـــا

وأظـــن حبـــل وصـــالها لمحبهـــا

أوهـــى وأَضْـــعَفُ قـــوة مـــن خـــصّرها

وقال الحريري –صاحب المقامات- :

وأحـوى حَـوَى رقـيّ برقـة ثغـره

وغـادرني ألـف الـسهاد بغـدره

تـصّدى لقتلـي بالـصدود وأنـني

لفـي أسـره مـذ حـاز قلـبي بأَسْـرِه

أصـدق منـه الـزور خَـوفَ ازوراره

وأرضـي استماع الهجـر خـشية هَجـره

واسـتعذب التعـذيب منـه وكلمّـا

أجـدّ عـذابي جَـدّ بِـيْ حُـبُّ بِـرّه

تناسـى ذمـامي والتّناسـي مذمـةٌ

وأحفـظ قلـبي وهـو حـافظ سِـرّهِ

وأعجـبُ مـا فيـه التّبـاهي بعُجبـهِ

وأكـبره عـن أنْ أفـوه بكـبره

لـه منِّـي المدح الـذي طاب نَشْرُه

ولـيْ منـه طـيَّ الـودِّ مـن بعـد نـشره

ولـو كـان عَدلا ما تجنِّي وقد جنـى

علـي غَـيري يجـتني رشـفَ ثَغّـره

ولـــولا تثنيـــه ثنيـــتُ أعـــنتي

بـداراً الى مــن اجتلـي نـور بـدره

وإنـي علـى تـصريف أمـري وأمـره

أرى المُـرَّ حلـو في انقيـادي لأمـره

وقال آخر:

ألمَّـتْ بنـا يـومَ الرحيـل اختلاسـهُ

فأَضـرَم نـيرانَ الهـوَى النّظُـر الـشَزْرُ

تأيَّـتْ قلـيلا وهـي ترعـد خِيفَـةً

كمـا تتـأبى حـين تعتـدل الـشمسُ

وخاطبهـا صـمتي بمـا انـا مـضمرٌ

وأبلـستُ حتـى يـسمع لـي حـسٍّ

وولـتَ كمـا ولَّـى الـشبابُ بطيبـه

طـوت دونهـا كـشحا علـى يأسهـا الـنفس

وقال المتنبي:

فـديناكَ مـن ربـعٍ وإِن زدتنـا كربـا

فأنـت كنـتَ الـشرقَ للـشمس والغربـا

ذكــرتُ بهــا وصــلا كــأنْ لم أفــز بــه

وعيــشا كــأني كنــتُ اقطعــه وثْبــا

وفتانــةَ العيــنين فتاكــة الهــوى

اذا نفخــت شــيخا روائحهــا شَــبَّا

لهــا بــشرُ الــدر الــذي قلــدتْ بــه

ولــن ارَ بــدرا قبلــها قلــد الــشُّهبا

فليــتَ هــوىَ الأَحِبّــةِ كــان عَــدْلا

فَحَّمــل كُــل قلــب مــا آطاقــا

وقــد آخَــذَ التَّمــامَ البَّــدرُ فِــيهمُ

واعطــاني مــن الــسَّقَم المُحاقَــا

وبــينَ الفَــرع والقَــدمين نــورٌ

يَقــود بِــلا أزمِتهــا النِّياقَــا

وَطْــرفَ إِنْ سَــقَى العُــشاقَ كأســا

بهــا نَقّــص سَــقانِيها دِهَاقــا

وخَــضْرٌ تَثبــتُ الأبــصارُ فيــه

كــأن عليــه مــن حَــدق نطاقــا

ابن زريق البغدادي يصف لوعة الفراق:

لاتعذُليــهِ فــأنَّ العَــذْلَ يوجِعــه

قــد قُلــتِ حقــاً ولكــنْ لــيس يَــسمعِهُ

جـاوزتِ في لومـة حـدًا أضـرَّ بـه

مـن حيـثُ قـدَّرتِ أَنَّ اللـومَ ينفعـه

فاسـتعملي الرِّفـقِ في تأنيبـه بَـدَلا

من عُنّفِـهِ فهـو مضنيَ القلـبِ مُوجَعُـه

قـد كـان مـضطَلعا بـالبيَن يَحملـه

فَـضُلِّعَتْ بخطـوب البـيَن أضْـلَعُهُ

يَكفيـه مـن لوعـة التَّنفيـذ أَنَّ لـه

مِـنَ النَّـوى كـلَّ يـوم مـا يُروَعُـه

مـا آبَ مـن سَـفر إِلاَّ وازعجَـه

رأي الى سـفر بـالرَّغِمْ يَتبعَـه

كأنمَّـا هـو في حـلٍّ ومرتَحَـل

موَّكـلٌ بفـضاءِ الأرض يَذرَعـه

اذا الزمـانُ اراه بالرحيـل غِنـى

ولـو الى الـسَّدِّ اضحَى وهـو يَرفعـه

تـأبى المطـامعُ إِلاَّ ان تُجـشِّمه

للـرِزْق كَـداً وكـم ممـن يُودّعـه

ومـا مُجاهُـدة الأنـسان واصلـةٌ

رزقـا ولا دِعَـةُ الأنـسانِ تَقْطَعُـه

واللّـهُ قَـسّم بـين الخَلْـقِ رزقهُـم

لم يخلـقِ الله مخلوقـا يُـضيعَّه

لكنهم مُلِئوا حِرْصا فلستَ ترَى

مسترزِقا وسوَى الغابات تُقنْعه

والحِرْصُ في المرءِ والأَرزاقُ قد قُسِمَت

بغْيَ إلا إن بَغيَ المرءِ يَصْرَعه

والدَّهر يُعطي الفتَى ما ليس يَطلبه

حقًّا ويُطمعه من حيثُ يمنُعَه

استودع اللهَ في بغدادَ لي قمرا

بالكرخ من فَلَك الأَزرار مَطْلَعه

البحتري يصف المبارزة بين الفتح بن خاقان والأسد:

غَداةَ لَقِيتَ الليثَ والليثُ مُخْدِرٌ

يحدد نابا لِلقاء ومِخْلَبا

شَهدتُ لقد أَنصَفته يومَ تَنبري

لهُ مصِلتا عضْبا من البيض مُقضبا

فلم أَرَ ضِرغامينَ أصدقَ منكما

عِراكا ذا الهيَّابة النِّكْس كذَبَّا

هزبرٌ مشى يبغي هزبرا وأغلبٌ

من القوم يغْشَى باسل الوجه أغلبا

أدلَّ بشغب ثم هالته صولةٌ

رآكَ لها أمضى جنانا وأشغبا

فـــأحَجمَ لَمَّــا لم يجــدِ مطمعــاً
وأقـدمَ لَمّـا لم يجـد فيـك عنـك مَهربا

فلــم يعفــه أنْ كــرّ نحــوك مُقـبلاً
ولم ينجــه ان حــاد عنــك مَنكبَــا

حملـت عليـه الـسيفَ لاعزمـك انثنـى
ولا يــدُكَ ارتــدَّتْ ولا حَــدّه نبــا

قال المرار التّغلبي يصف القطا في الهجير:

بــلادٌ مـــروراةٌ بهـــا القَطـــا
تَـرىَ الفـرخَ في حافاتهـا يتحـرقُ

يظـــلّ بهـــا فـــرخ القطـــاة كأنّـــه
يتـيمُ جفـا عنـه مواليـه مطـرق

بديمومـــةٍ قـــد مـــاتَ فيهـــا وعينـــه
علـى موتـه تغفـي مـرارا وترمـق

شـــبيهٌ بـــلا شـــيء هنالـــك شَخـــصه
يواريـــه قـــيضٌ حولـــه متفلـــق

لـــه محجـــر نـــابٍ وعـــينٌ مريـــضةٌ
وشــدق بمثــل الزعفـران مخلَّــق

تناجيـــه كحـــلاء المـــدامع حـــرةٌ
لهـا ذنـب وحـفُ وجيـدٌ مطـوق

سماكيـــــةٌ كدريـــــة عرعريـــــة

ســكاكية غــبراء سمــراء عــسلق

اذا غادرتــه تبتغــي مــا يعيـشه

كفاهــا ذاياهــا النَّجــاءُ الهبنَّـــق

غـدتْ تـستقي مـن منهـل لـيس دونـه

مـــسيرةُ شــهرِ للقطـــا متعَّلـــق

لازغـــب مطـــروحٍ بجـــوزٍ تنوفـــة

تلظَّـــى سمومـــا قيظـــه فهـــو أورق

تـــراه اذا امـــسى وقـــد كـــان جلـــدُه

مـــن الحَـــرِّ عـــن اوصـاله يتمـــزق

غـــدت فاسـتقلت ثـــم ولــت مـــنيرة

بهـــا حـــين يزهاهـــا الجناحـــان أَوْلـــق

تـــيمَّم ضَحـــضَاحاً مـــن المـــاء قـــد بَـــدَتْ

دعامُيـــــصه فالمـــــاءُ أَطْمَـــــلُ أورقُ

فلمـــا أتتـــه مقـــذحرا تغوثـــتْ

تغـــوُّث مخنـــوقٍ فيطفـــو وَيغـــرق

تُحـــيرُ وتلقـــي في ســـقاء كأنَّـــه

مـــن الحنظـــل العـــامي جـــرو مَّفِلـــق

فلمـــا ارتـــوت مـــن مائـــه لم يكـــن لهـــا

أنـــاةُ وقـــد كـــادت مـــن الـــرِّي تبـــصق

طمت طموة صعدا ومدتْ جرانها

وطارت كما طار السحاب المحلق

ابن ابي كريمة يصف التبكير للصيد وكلابه:

وغبَّ غَامٍ مَزَّقت عن سَمائه

شآميةُ حصاء جَونَ السَّحائب

مُواجه طلق لم يُردِّد جهامه

تذؤب ارواح الصبا والجنائب

بعثتُ واترابُ الدَّجى قد تقلصْت

لفرة مشهورٍ من الصبح ثاقب

وقد لاح ناعي الليل حتى كأنَّه

لساري الدَّجى في الفجر قنديلُ راهبِ

بها ليل لا يُثنهم عن عَزيمة

وانْ كان جَم الرشد لؤم القرائب

بتجنيب غضيف كالقداح لطيفه

مُشرطة آذانها بالمخالب

تَخالُ سياطا في صلاها منوطةً

طوال الهوادي كالقداح الشّوازب

اذا افترشت خبتا اثارت بمتنه

عَجاجا تلظاهُنَّ نار الحباحب

يَفـوتُ خُطاهـا الطَّـرفُ سـبقا كأنَّهـا

سـهامُ مغـالٍ او رجـومُ الكواكـب

تكـاد مِـن الأحـراج تنسَّلُ كلمـا

رأت شـبحا لـولا اعـتراض المناكـب

طـراد الهـواري لاحهـا كـل شـتوة

بطامسة الأرجـاء مـرت المسـارب

تسوف وتُـوفي كـل نـشز وفدفـدِ

مـرابض ابنـاء النفـاق الأرانـب

كـأن بهـا ذُعـرا يُطـير قلوبهـا

انـينُ المكـاكي او صـريرُ الجنـادب

تـدير عيونـا ركبـت في براطـل

كجمـر الغـضى خـزرا ذراب الأنائـب

اذا مـا اسـتحثت لم يُجـن طريـدها

لهـنُّ ضـراء او مجـاري المـذانب

وان باصها صلتا مدى الطرف أمسكت

عليـه بـدون الجهـد سبل المـذاهب

تكـاد تفري الأهـب عنهـا اذا انتحت

لنبـأة شـخب الجـرم عـاري الرّواجـب

كـأن غـصون الخيـزران متونهـا

اذا هـي جالـت في طِـراد الثعالـب

كواشـر عـن انيـابهن كـوالحٌ

مُذلقـة الآذانِ شـوسُ الحواجـب

ونزل ابو الرعل الجُرمي ببعض قُرى انطاكية فلقي من جرذانها شرا فقال:

أنحْ لـشيخٍ ثـوى بالـشام مغتربـا

نـائي النـصير بعيـد الـدارِ مهمومِ

تكنفتـه قريبـاتُ الخُطـى دكُـنٌ

وُقُـصُ الرقـاب لطيفـات الخـراطيم

حجـن المخالـب والأنيـاب شـابكةٌ

غلـبُ الرقـاب رحيبـات الحيـازيم

وقال يزيد بن ناجية السعدي في المعنى نفسه:

كُحـل العيـونِ صـغيرةٌ أذنابهـا

جُـنْحُ الحنـاس يعتـور جرابـي

شُـمّ الأنـوف صـغيرةٌ آذانُهـا

يلحظـن لحـظ مـروعٍ مُرتـاب

دُكـن الجبـاب تـدرعت ابـدانُها

صـعل الـرؤوس طويلـة الأذنـاب

شُـخْتُ المخالـب والأنايب والـشَّرى

ثجـل الخـصور رحيبـةُ الأقـراب

أَشـقى الآلــهُ بلادهــنَّ سـحائبا

غُـرَّ النــشاص بعيــدةَ الأطنــاب

تَرمــي بغبــسي كــالليوث تــسربلتْ

منهــا الجلــود مــدارع الــسنّجاب

غُلــب الرّقــاب لطيفــة اعجازهــا

فطــح الجبــاه رهيبــة الأنيــاب

مُتهَــسِنَّاتٍ للطِّــراد كأنهــا

آســاد بيــشة أدمجــت بخــضاب

وقال المتنبي يصف فرسه عند مفارقته سيف الدولة:

ويــومٍ كليــل العاشــقينَ كَمَنْتُــهُ

أراقــبُ فيــه الــشمسَ إِبَّــانَ تَغْـرِبُ

وعــيني الى أُذنَــي أَغَــرَّ كأنَّــه

مِـن الليـل بـاقٍ بَين عينيـهِ كوكـب

لــه فَـضْلةٌ عــن جـسمه في إِهابـهِ

تَجــيء علــى صدرٍ رحيـبٍ وتَـذهب

شَــفَقْتُ بــه الظَّلمــاءَ أدنِــي عِنانَــه

فَيطغَــى وأُرضــه مِــرارا فَيلَعــب

وأصــرعُ أيَّ الــوحش قفيتــهُ بــه

وانــزِل عنــه مِثلَــه حــين اركــب

ومــا الخيــلُ إلاّ كالــصديق قليلــةٌ

وانْ كَثُــرَت في عــين مــن لا يُجَــرب

اذا لم تُــشاهِد غــيرَ حــسْنِ شــبانها

واعــضائها فالحُــسن عَنــك مُغيَّــب

وقال المتنبي يصف الخيل وهو في طريقه الى كافور:

وجُــرد امــددنا بــين آذانهــا القَنــا

فَــبتنَ خِفافــا يتــبِعُنَ العَواليــا

تَماشَــي بأيــدٍ كُلمَّــا وافــتِ الــصَّفَا

نُقــشْنَ بــه صــدر البُــزاةِ حَوافيــا

وتَنظُــر مــن ســودٍ صــوادقَ في الــدُجى

يَــرينَ بعيــداتِ الــشخوصِ كماهَيــا

وتَنــصِّبُ للجِــرَسِ الخَفــيِّ سَــوامعا

يَخُلــنَ مناجــاةَ الــضميرِ تَنادِيــا

قال لبيد في الحِكَم:

بلينــا ومــا تُبلَــى النجــومُ الطوالــع

ويبقــى الخَيــالَ بَعــدنَا والمــصانِع

ومــا النــاسُ إلاّ كالــديارِ واهِلــها

بهــا يَــوم حَلُوهــا وتَغــدو بَلاقــع

وما المــرء إلاَّ كالــشهابِ وضــوُءه
يَحــورُ رمــاداً بَعُــدَ اذ هــو سَــاطِع

وما المــال والأهلــوُن إلاّ ودائــعٌ
ولا بُــدَ يومــا أنَّ تُــرَد الودائــع

أُخَبَــر أخبــارَ القــرون الــتي مــضَت
أؤودُّ كــأني كلمَّــا قُمــتُ راكــع

ألــيس ورائــي إِن تراخــت منــيتي
لــزوم العــصا تُحنَــى عليهــا الأضــالع

فأصبحتُ مِثلَ الــسيف أَخْلَــقَ جَفنَــه
تقــادمُ عهــد العــينِ والنَــصل قــاطع

أعــاذِلُ مــا يــدريكَ الا تَظنُّنــا
اذا رحَــل الــسُفار مَــن هــو راجــع

وقال عروة بن حزام قبيل وفاته:

فياليــت كــل اثــنين بينهمــا هــوى
مــن النــاس والأنعــام يلتقيــان

فيقــضي حبيــب مــن حبيــب لبانــة
ويرعاهمــا ربــي فــلا يريــان

هــوى نــاقتي خلفــي وقــدامي الهــوى
وانــي واياهــا لمختلفــان

هــواي امــامي لـيس خلفـي معرج
وشــوق قلوصــي في الغــدو يمــاني

وقال عروة بن حزام:

هـــواي عراقـــيٌ وتَـــثني زِمامَهـا
لِـــبرقِ اذا لاحَ النجـــومُ يَمـــاني
فلــو تَركتنّــي نــاقتي مــن حنَينها
ومــا بِــيَ مــن وَجــدٍ إذنِ لكَفــاني
مَتى تَجمعي شَـوقي وشَـوقكَ تُثْقِلي
ومالــكِ بالجِمــلِ الثقيــل يَــدان
يقـول لِـي الأصحابُ اذ يَعـذلونني
أشـوُق عراقـــيٌ وانـــتَ يَمـــاني
ولـــيس يمـــانٍ للعراقـــيّ صــاحبا
عـــسى لـــصروف الـــدهرِ يَلتقيـــان
تَحمَّلـتُ مـن عفراء مـا لـيس لـي بـه
ولا للجبـــال الراســـياتِ يـــدان
وانــي لأهَــوى الحَـشر اذ قيـل إنــني
وعَفـــراء يـــومَ الحـــشرِ مُلتقيـــان
تَكـنفني الواشـونَ مـن كـل جانـب
ولـــو كـــان واش واحـــدٍ لكفـــاني

ولـــو كـــان واشٍ باليمامـــة داره

أحـــاذره مـــن شـــؤمه لأتـــاني

ولما اراد المهدي قتل صالح بن عبد القُدوس على الزنّدقة جاءه بكتاب الزندقـة وقـال له: اقرأ هذا؟ قال صالح: وما هذا يا أمير المؤمنين؟ قـال: كتـاب الزندقـة. قـال صـالح: أوتَعرفه انتَ يا أمير المؤمنين اذا قرأتَه؟ قال: لا. قال صالح: أيجوز لك ان تُسفك دمي على ما لا تعرف؟. قال المهدي: فأني اعرفه. قال صالح: فقد عرفته ولست بزنديق. وكذلك اقرأ ولست بزنديق. فاستشاط المهدي غَضَبا وامر بقتله وصلبه على الجسر في بغـداد. وكـان صالح قبل ذلك بأيام قد قال وهو بالحبس يصف حاله ويتوقع ما سيحدث له:

وتَفَـــرحُ بالرُؤيـــا فَجُـــلّ حـــديثنا

اذا نحـن اصبحنا الحـديثُ عن الرؤيـا

فـأنْ حَـسُنَتْ لم تـأتِ عَجلَـى وأَبْطأَتْ

وان قَبُحَـت لم تَحْتَـبِس وأنَـت عَجلَـى

طُـوى دونَنـا الأخبـار سَجنُ مُمنَّـعُ

لـه حـارسُ تَهـدا العيـونُ ولا يَهـدا

قُبِرنـــا ولم نُـــدفَن بِمعْـــزل

مـن النـاس لا يُخشَى فَنغُشَى ونَغشَى

ألا أحـــدُ يـــأوي لأهـــل محلّـــة

مقيمين في الـدنيا وقـد فـارقوا الـدنيا

وقال عمرو بن قميئة في الشيخوخة:

كـأني وقـد جـاوزتُ تـسعين حُجَّـة
خَلعـتُ بهـا عـني خمـار لجـامي

علـى الـراحتين مّـرَّةٌ وعلـى العـصَا
أنــوء ثلاثـا بعـدَهُنَّ قيـامي

رَمتني بناتُ الـدَّهر مـن حيثُ لا أرى
فكيـفُ بمـن يُرمَـي ولـيس برامـي

فلـو أنَّهـا نبـل إذنٌ لا تقيتُهـا
ولكـنني أرُمـي بغـير سِـهام

اذا مـا رآنـي النـاسُ قـالوا الم تكـنِ
جَليـدا حَديـدَ الطـرف غَيَّـر كهَـام

وأفنـى ومـا أُفنِي مـن الـدهر لبَنَـةَ
ولم يفـنَ مـا أفنيـتُ سِـلكَ نِظـام

وأهلكـني تأميـل يـومٍ وليلـةٍ
وتأجيـل عـامٍ بعـد ذاك وعـام

وقال آخر:

كَبِرتُ وجاء الـشَّيبُ والـضُّعف والبلَـى
وكـلُّ امـرىء يبلـى اذا عـاشَ ماعِـشْتُ

اقــولُ وقــد جــاوزتُ تــسعين حُجــة
كــأنّ لم اكــن فيهــا وليــدا وقــد كُنــتُ

وأنكِـرتُ لَمـــاًّ أنْ مـضى جُـل قــوتّي
وتـــزداد ضــعفا قــوتّي كلمّــا زدتُ

كــأني اذا اسرعتُ في المـشيٍّ واقــفٌ
بقــربُ خطــى مامـسها قــصرا وقْــتُ

وصـرتُ اخــافُ الـشيء كــإن يخافني
أعــد مـــن المــوتى لــضعفي ومامــتّ

أســهر مـــن يـــرد الفـــراش ولينَــه
وإن كنــتُ بــين القــوم في مجلس نمت

وقال غيره ـ وهو كثير وطريف:

وقــد يَجْــزَع المــرءُ الجليــدُ وتَبتْلــي
عزيمـــةَ رأي المـــرءِ نائبـــةُ الـــدَّهر

تُعـــاودُه الأيـــام فيمـــا يَنوبُـــه
فَيقــوى علــى امِــر ويَـضعُف عــن امــر

ذكرنا ان المدح ـ كزميله الهِجاء ـ يسجل (الا نـادرا) وصـمة عـار في جبين الـشعر العربي في مجرى تاريخه الطويل وبخاصـة لـدى فطاحـل الـشعراء. فقـد اتُخِـذ المدح (وبخاصة المبالَغ فيه كما اتخذ الهجاء لا سيما المقذع منه) اداةٌ للتكسب والملق والمداهنة وتمجيد الطغاة واذلال الناس. ودواوين الشعراء ـ ولا سيما البـارزين مـنهم ـ طافحـة

بالأمثلة التي تؤيد وجاهة ما ذهبنا اليه. ولم نعثر طوال دراستنا لموضوع فن الشعر عند العرب إلا على حالات نادرة جدا اتصف بها شعر المديح بالأوصاف التي اشترطنا توافرها في الأجود من الشعر (وهي الصُّور الشعرية الفنية التي تتصف بالأناقة والجمال معبّرا عنها بالفاظ انيقة تنسجم معها وبأوزان رشيقة ذات جِرس موسيقي وكونها ايضا تحمل مشاعر الشاعر الصادقة البعيدة على الرياء والتزلف وكون الممدوح ايضا جديراً بها لا بنظر الشاعر وحده ولا بنظر الذين عاصروه، وانما ايضا بنظر الذين جاءوا من بعده الى يومنا هذا وربما في المستقبل البعيد). ومن تلك الحالات النادرة حالة عمر بن عبد العزيز الذي ثبت باجماع آراء المؤرخين. وقد شرحنا ذلك باسهاب في كتابنا "عمر بن عبد العزيز" الماثل للطبع.

وقد آثرنا ان نختتم هذا الفصل من فصول كتابنا ـ وهو بنظرنا اهم فصل فيه ـ بما مدح به كثير والأحوص وجرير عمر بن عبد العزيز.

قدم عدي بن عروة بن مسعود (شقيق عبد الله بن مسعود صاحب رسول الله والأثير عند عمر بن الخطاب) وكان ورعا تقيا وفقيها مفوُها في المنطق نظير الحسن البصري ـ وكان ايضا عالما بالشعر وبالشعراء ـ على عمر بن عبد العزيز فرأى الشعراء على باب الخليفة. وكان عَدِي هذا مشمرَ الثياب معتما على عِمَة لاصقة برأسه قد القى هامِشها على كتفيه. فأوقفه جرير ـ من بين الشعراء الآخرين الذين سيأتي ذكر اسمائهم بعد قليل ـ وخاطبه بقوله:

يا أيُّها الرجلُ المرخِي عِمامتَه
هذا زمانُك أنِّي قد مَضَى زَمني

أَبلِغْ خليفتنا إنْ كنتُ لاقيه
أني لدى الباب كالمصفود في قرَن

لا تـــنسَ حاجتنـــا لقيـــت مغفـــرة

قـد طـال مكثِـيَ عـن أهلـي وعـن وطني

قال عدي: نعم يأت أبا حِرزة. ثم دخل على عمر فقال له: يا أمـير المـؤمنين: الـشعراء بالباب. وسهامُهم مسمومة واقوالهم نافذة. فأذن لهم بالدخول اليك. ثم قال ياعمر: أعز الله أمير المؤمنين: ان رسول الله امتدح واعطى: امتدحه العباس بن مرداس فكساه حُلةٌ (وانشده بعض ابياتها):

رأيتُـــك يـــا خـــير البرِيـــة كلـــها

نَـــشرتَ كتابـــا جـــاءَ بـــالحق مَعْلَمَـــا

ونَـــورَت بالبرهـــانِ امـــرا مُدمَـــسا

واطفـــأتَ بالبرهـــان نـــارا تَـــضَرما

مَـــن مُبلـــغٍ عـــني الـــنبيَّ محمـــدا

وكـــلُّ امـــرئ يُجـــزى بمـــا قـــد تكلمـــا

قال عمر: صدقت يا عَدِي. فَمَنْ بالباب من الشعراء؟ قال: ابـن عمـك عمـر بـن ابـي ربيعة. فقال عمر: لاقرَّب الله قرابته ولا حيّا وجهه. والله لا يدخل إلي ابدا. فمـن بالبـاب غيره؟ قال: جميل بن معمر العُذري. فقال عمر: فوالله لا دَخل عَليَّ ابدا. فمن بالباب غيرُ من ذُكر؟ قال: الاخطل الثعلبي. قال عمر: ابعده اللـه عنـي ولاوطِـيء لي بـساطا. فمـن بالباب غيره منهم؟ قال: همام بن غالب الفرزدق. فقال عمر: والله لا دخل علي ابدا. فمن بالباب غيره؟ قال: جرير (وانشده الأبيـات التـي قالهـا جريـر قبـل دخـول عـدي عـلى الخليفة). فقال عمر: إن كان ولا بد فأذن له. فدخل جرير وهو يقول:

إِنَّ الـــذي بَعــثَ الـــنبي محمـــدا

جَعَــلَ الخلافـــةَ في الأمـــام العـادِلِ

وَسِـــعَ الخلائـــق عَدلـــهُ ووقَـــارُه

حتـــى أر عـــووا واقـــامُ مَيـــلَ المائـــل

إِنـــي لأرجـــو منـــه نَفعـــا عـــاجلا

والـــنفسُ مولعـــةٌ بحـــبِّ العاجـــل

والله أُنـــزل في الكتـــاب فريـــضة

لابـــن الـــسبيل وللفقـــير العائـــل

ثم استأذن في الأنشاد. فقال عمر: يا جرير اتقِ الله.. ولا تقل إلاّ حقّاً فأن الله سائلك. فقال من قصيدة:

كـــم باليمَامـــةِ مـــن شَعثاءَ ارملـــة

ومـــن يتـــيم ضَـعيفِ الـصوتِ والنظـرِ

مِـــن بِعـــدْ لِـــك يكفـــي فقـــدُ والـــدهِ

كـــالفرخ في العـــش لم يَـــدرج ولم يَطِـــرِ

أأذكـــر الجُهْـــدَ والبَلـــوى الـــتي نَزَلـــتْ

أم قـــد كفـــانِي مـــا بُلغّـــتُ مـــن خـــبري

إنـــا لنرجـــو اذا مـــا الغيـــثُ أَخلفَنَـــا

مـــن الخليفـــة مـــا نرجـــو مـــن المطـــر

ان الخِلافـــة جاءتـــه علـــى قــدَرٍ
كمـا أتـى ربَـه موسـى علـى قـدر
هـذي الأرمـلُ قـد قَـضَّيتَ حاجتَهـا
فمـن لحاجـةِ هـذا الأرمـلِ الـذكر
الخـيرُ مادمـتُ حيـاً لا يُفارقنـا
بوركـتَ يـاعمرَ الخَـيرات مـن عُمـر

فقال له عمر: والله يا جرير لقد وافيت الأمر واملك الا ثلاثين دينارا. فعشَرةُ اخذها عبد الله ابني. وعَشرة اخذتها أم عبد الله. ثم قال لخادمه: ادفع له العشرة الثالثة. فقال جرير: "والله يا أمير المؤمنين إنها لأحب مال اكتسبته. ثم خرج جرير: فقال له الشعراء: وماوراءك يا جرير؟ قال: ما يسوءكم خرجت من عند امير الفقراء ويمنع الشعراء. وانا راض عنه. فانفض جمعهم..

وقال كُثيرَّ عَزَّة: قَدِمْت انا ونُصيْب والأحوص على عمر بن عبد العزيز عند توليه الخلافة. وكل واحد منا يُدِلُّ بسابقته عند عبد العزيز واخائه لعمر. فكان اولَ مَن لقَينا مسلمةُ بن عبد الملك - وهو يومئذ فتى العرب - فأحسن ضيافتنا واكرم مثوانا. ثم قال: أما بَلَغَكم أنَّ إمامكم لا يقبل الشعراء ولا يعطيهم؟ فقال كثير: ما وُضحَ لنا خبر ذلك حتى أتينا اليك. وَوجَم كثيّر وصاحباه وجمة عَرفَها مسلمة منهم. ثم قال كثيّر: فأقمنا عند مسلمة اربعة اشهر يطلب لنا الأذِن - وهو وغيره - فلا يؤذن لنا. ثم قال كثير لصاحبيه: جدِّدا من الشعر غير الذي اعددتهما. فليس الرجل بدنيوي. الى ان استأذن لهم مسلمة في يوم جُمعُة. فأذن لهم بعد ما أذن للعامة. فدخلوا. فقال كثير: "يا أمير المؤمنين: طال الثّواء.. وقَلتِ الفائدة.. وتحّدثت بجفائك ايانا وفودُ العرب. "ثم استأذنه في الأنشاد. فإذِن له عمر وقال: قل ولا تقل إلا حقا فأن الله سائلك، فأنشد قصيدته التي ورد فيها:

وَليــتَ ولم تَـشـِتم عليّـا ولم تُخِـف
بَرُيـا ولم تقبـل اشـارةَ مجـرم

وَصـدَّقتَ بالفِعل المقال مـع الـذي
أتيـتَ فأمـسىَ راضيا كـلُّ مـسلم

ألا إِنمـا تكفـي الفَتــى بَعـد زَيغـه
مــن الأود البــاري ثقــاف المقـوُم

تكلمـتَ بــالحقِّ المــبين وانمــا
تــبَينُ آيــاتُ الهُــدى بــالتكلم

وأظهـرتُ نـورَ الحـق فاشـتد ضـوءه
علـى كـل لَـبس فـارقَ الحـقُ مظلـم

وعاقبـت فيمـا قـد تقـدمت قبلـه
وأعرضـت عمـا كـان قبـل التقـدم

فعـشتِ بـه مـا حـج للهِ راكـب
مقـيم مطيـفُ بالمقـام وزمـزم

ومالــكَ اذ كُنــت الخليفـة مــانعُ
ســوى الله مــن مــالِ رغيـب ولازِم

وقـد لَبِـستُ لـبسَ الهَلـوك ثيابَهـا
تـراءى لـك الـدنيا بكـف ومعْـصَم

وتُـومضُ احيانـا بعـين مريـضة
وتُبـسم عـن مِثـل الجُمـان المـنظم

فأعرضـت عنهـا مـشمئزا كأنمـا
سَـقتك مَـدوفا مـن سِـمام وعَلْقَـم

وقـد كنـتَ مـن أحبالهـا في ممنـع
ومـن بحرهـا في مزيـد المـوج مفعَـم

ومازِلـتَ تومـاً الى كـلِ غايـةِ
بَلغـتَ بهـا اعلـى البنـاء المقـدم

فلمـا أتـاكَ الملْـكُ عفـوا ولم يكـن
لطالـب دنيـا بَعـده مـن تَكلُّـم

تركـتَ الـذي يفنـى وان كـان مونقـا
وآثـرت مـا يبقـى بـرأيّ مُـصمِّم

وأضـررت بالفـاني وشمَّـرت للـذي
أمامَـك في يـوم مـن الـشر مظلـم

سَـما بـك هَـمٌّ في الفـؤاد مـؤرقُ
بَلغـتُ بـه اعلـى المعـالي بـسلّم

فمـا بـين شرق الأرض والغـرب كلـها
منـادٍ ينـادي مـن فَـصيح وأعجـم

يقـول: أمـير المـؤمنين ظلمـتني
بأخـذ لـدينار ولا أخـذ درْهَـم

ولا بـسْطِ كـف لأمـرىء غيـر مجرمِ
ولا الـسفُك منـه ظالمـا ملءَ محجَـم

ولــو يــستطيع المــسلمون لقــسمّوا

لــك الــشّطر مــن اعمــارهم غَــير نُــدم

فــأربح بهــا مـــن صَــفقِه لمبــايع

وأعظِــمَ بهــا أعظِــمْ بهــا ثــم أعظــم

ثم تقدم الأحوص فاستأذنه في الأنشاد. فقال له عمر: قل ولا تقل إلاّ حقــا. فأنـشده قصيدته التي ورد فيها:

ومــا الــشعرُ إلاّ خُطبــة مــن مؤلّــف

لمنطــقِ حــق او لمنطــقِ باطــل

فــلا تَقبلنْ إلاّ الــذي وافــقَ الهُــدَى

ولا تُرجِعَّنـــا كالنـــساء الأرامـــل

رأينــاكَ لم تَعــدِل عــن الحِــقّ يَمْنَــة

ولا يَــسْرة فِعــلَ الظَّلــومِ المخاتِــل

ولكــنْ اخــذَت القــصدَ جَهْــدَك كلمّــه

تَعــد مِثــالَ الــصالحيَن الأوائــل

فقلنــا ولم نكــذب بمــا بــدا لنــا

ومــن ذا يَــرُد الحــقَّ مــن قــول قائــل

ومــن ذا يَــرَّد الــسَّهمُ بعــد مَــضائه

علــى فوتِــه اذ عــاد مــن نَــزِع نابــل

فــأن لم يكــن للــشعر عنــدك موضــعٌ

وإنّ كــان مِثْــلَ الــدُّرُ في فَتَــل فاتــل

وكـــان مــــصيبا صـــادقا لا يعيبـــه
سـوى انـه يبنـــي بنـــاء المنـــازل
فـــأن لنـــا قُربَـــى ومحـــض مَـــودّة
ومـــيراثُ آبـــاءِ مـــشوا بالمناضـــل
وذادوا عـــدوّ الـــسِّلم في عُقـــر دارهـــم
وارســـوا عمـــود الـــدين بَعـــد التمايـــل
وقَبْلَـــكَ مـــا اعطَـــى هُنيـــدَةَ حلـــةَ
علـــى الـــشعر كَعْبـــا مـــن سَـــديسٍ وبـــازِل
رســـولُ الالـــهِ المســـتـضاءُ بنـــوره
عليـــه ســـلامٌ بالـــضُّحى والأصـــائل
فكـــلُّ الـــذي عـــددّتُ يكفيـــكَ بعـــضُه
ومِثلـــكَ خـــيرُ مـــن بحـــورِ ســـوائل

ثم تقدم نُصيب فأبَى عمر ان يأذن له في الأنشاد. فخرج وهو محموم. ثم قـال لنـا عمر: والله ما عندي ما اعطيكما. فانتظروا حتى يخرج عطائي فأواسيكما فيه. قـال كثير فانتظرنا. فأمر لي وللأحوص ـ لكل واحد منا ـ بمئة وخمسين درهما.

وقصة عمر بن عبد العزيز مع الراجز دُكين بن سعيد الدارمي التميمي مشهورة وقد ذكرها ياقوت الحموي في معجم الأدباء. (ودُكَين هذا هو غير دُكين بن رجاء). وقـد كـان منقطعا الى عمر بن عبد العزيز حين كان عمر واليا على المدينة. فلمـا وِلي عمـر الخِلافـة قَصَده دكين. فلما استأذن عليه قال له الحاجب "انه في شغل يَرُدَ مظالم بني أمية التـي اغتصبوها من الناس الى بيت مال المسلمين والى اصحابها." فترقب دكـين خـروج عمـر للصلاة. فلما خرج في يوم ملائم انشده ارجوزته التي مطلعها:

"يا عمر الخَيرات والمكارم" فدخل عمر على امهات اولاده. فما زال يجمع من عندهن العشرة والعشرين حتى جمع له ثلثمائة درهم. فأعطاه اياها. والذي عندي في هذه المسألة لو سلك غيره مسلكه لترفع كثير من الشعراء عن التملق والدجل والافتراء على الله وعلى الناس.

ونود ان نختتم هذه النماذج المختارة من الشعر العربي الأصيل - في مَعرض المدح - بمقتطفات من قصائد رائعة مَدَح ابو الطيب المتنبي - وهو صادق المشاعر بنظرنا - سيف الدولة (الذي يستحق مثل هذا المدح بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة ايضا لاتصافه بالشجاعة والأريحية والشهامة ولدفاعه عن الثغور ضد الروم الغزاة). وفي بعض الأبيات غموض من ناحية المعنى وتعقيد في اللفظ - كما لاحظنا في ابيات كثيرة ذكرناها لشعراء آخرين - وقد آثرنا ان لا نتعرض لتسرح بهوامش كثيرة وان نشجع القارئ للرجوع الى مظانٍ لها لعله يأنس بها ويجد المزيد منها: قال ابو الطيب في مدح سيف الدولة:

تَحولُ رماحُ الخَطِّ دون سِبائه

وتُسبَى له من كلِّ حيّ كرائِمهْ

ويُضحِي غُبار المِسك أدنى ستوره

وآخرُها نَشْر الكباءُ الملازمة

له عسكرا خيل وطير اذا رَمى

بها عسكرا لم تَبق إلاَّ جَماجمه

سَحابٌ من العقبان يزحف تَحتها

سَحابٌ اذا استقت سَقتها صوارمه

...

تركنا من وراءِ العيس نجدا

ونكبّا الّسماوة والعِراقا

فمــا زالــت تَـرى والليــل داج
لــسيف الدولــة الملِـك ائتلاقــا

أدلَّتُهــا ريــاحُ المــسكِ منــه
اذا فتحـــتْ مَناخرهـــا انتـــشاقا

. . .

طِــوالُ قنــا تُطاولهــا قِــصار
وقُطــرُك في نــدى ووغــى بحــار

كــأن شــعاع عــين الــشمس فيــه
ففــي ابــصارنا عنــه انكــسار

وفيــكَ اذا جنَــى الجــاني أنــاةٌ
تُظْــنّ كرامــة وهــو احتقــار

وكنــتَ الــسيفَ قائمــهُ الــيهم
وفي الأعــداد حَــدُّكَ والغِــرار

جيــادٌ تَعجــز الأرســانُ عنهــا
وفرســانٌ تُــضيق بهــا الــديار

وظَــلَّ الطَّعــنُ في الخَــيلين خِلــسا
كــأن المــوَت بينهــا اختــصار

فخلعهــم بــرِّد البــيض عــنهم
وهــامهمُ لــه معهــم مُعــار

عَجاجــا تَعثُــر العِقبــان فيــه
كــأن الجَــوَّ وعــث او حِبــار

فلـــزَّهم الطـــرادُ الى قِتـــال
أحـــدُّ ســلاحهم فيـــه الفِـــرار

مَـــضوا متـــسابقي الأعـــضاءِ فيـــه
لأرؤســـهم بأرجلـــهم عِثـــار

اذا صُـرفَ النهـارُ الـضوء عـنهم
وجـــا لـــيلانِ ليلـــك والغُبـــار

وإن جـنح الظـلامِ انجابَ عـنهم
اضـــاء المَـــشْرَفيةُ والنهـــار

اذا فـــاتوا الرمـــاحَ تَنـــاولتْهم
بأرمـــاح مـــن العطـــش القِفـــار

اذا سَـلَكَ الـسماوةَ غـيرُ هـاد
فقـــتلاهُم لعينيـــه مَـــسار

ومـــا انقـــادْت لغـــيرك في زمـــان
فتـــدري مـــا المقـــاودُ والـــصَّغار

فَأَقْرَحَـــتِ المَقـــاودُ ذَفرتَيهـــا
وعَفـــر خَـــدُها هـــذا العـــذار

فجازَ لـه حتـى علـى الـشمس حكمـهُ
وبـانَ لــه حتـى علـى الــنجم مِيَـسم

كـأنَّ العـدى في ارضـهم خُلفـاؤه
فِـأن شـاءَ جاوزهـا وان شـاء سَـلمَّوا

ولا كُتب إلاَّ المَشَرفِّية عنده
ولا رُسَلُ إلا الخَميس العَرمرَم

ولما تلقَاك السَّحابُ بصَوبه
تلقاه أعَلى منه كعبا واكرم

فباشر وجها طالما باشر القَنا
وبل ثيابا طالما بَلهَّا الدم

تلقَّاك وبعض الغيث يتبع بعضَه
من الشام يَتلو الحِاذقَ المتعلم

فزارَ التي زارتْ بك الخيلُ قَبرها
وجَشمه الشوقُ الذي تَتَجشم

...

يُطِّمع الطير فيهم طولُ أكلهم
حتى تكادَ على أحيائهم تَقَع

يُذرى اللقان غبارٌ في مناخِرها
وفي حناجرها من آلسٍ جُرَع

...

فيوماً بخيلٍ تطردُ الروِّم عنهمُ
ويوما بجود تطرد الفَقر والجدَبْا

سراياكَ تُترى والدُّمستق هاربُ
واصحابُه قتلى وأمواله نَهبا

أتـى مُرعَـشا يـستَقرِب البُعـد مقبلا

وأدبـرَ اذ أقبلـتَ يَـستبعد القُربـا

فأضحت كـأن الـسورَ مـن فـوقُ بـدؤه

الى الأرض قـد شـقَ الكوكـبَ والتربـا

تَـصدّ الريَّـاحَ الهُـوجَ عنهـا مخافـةَ

وتَفْـرَع فيهـا الطـير أن تلْقـطَ الحَبَّـا

وجـيش يـثني كـلّ طَـودٍ كأنَّـه

خريـقُ ريـاحِ واجهـت عـصنا رَطَبـا

كـأن نُجـوَم الليـل خافـت مغـاره

فمدَت عليهـا مـن عجاجتـه حُجبـا

....

رأىَ ملـكُ الـروم ارتياحُـك للنَّـدى

فقـامَ مقـامَ المُجِتـدى المتملـقِ

وخَلـىُّ الرمـاحَ الـسمهرية صـاغرا

لأدْرَب منـــه بالطعـــان وأَحـــذقِ

وكاتـبَ مـن ارض بعيـد منالُهـا

قريـب علـى خيـل حواليـك سُـبَّق

وقـد سَـار في مَـسراك منهـا رسـولهُ

فمـا سـارَ إلا فـوق هـام مفلَّـق

ولم يُثنـك الأعـداءُ عـن مُهجاتهم

بمثـل خـضوع في كـلامٍ مُنمَّـق

وكنــــتَ اذا كاتبتَــــه قبــل هـــذه

كتبــتَ اليـــه في قـــذال الدُّمُـــستق

فـــأن تُعطـــه منــك الأمـــان فــسائلٌ

وان تُعطـــه حـــدَّ الحُـــسام فـــأخلق

وهــل تَــرَك البــيضُ الــصوارمُ مــنهمُ

حبيــــسا لفــــادٍ او رقيقــــا لمعتــــق

لقـــد ورَدوا وِردَ القطـــا شـــفَراتها

ومــــرُّوا عليهــــا رَزدَقــــا بعـــد رزدق

دروعٌ لملِــك الــروم هــذي الرســائلُ

يَــردّ بهــا علــى نفــسه ويُــشاغل

وأنــىّ اهتــدي هــذا الرســول بأرضــه

ومــا ســكنتْ مــذ سِــرتُ فيهــا القَــساطِل

ومــن أَي مــاء كــان يَــسقي جيــادهَ

ولم تَــصفُ مــن مَــزج الــدماءِ المنَاهــل

أتــاكَ يكــادُ الــرأسُ يَجْحَــد عُنقْــه

وَتنقــدُّ تحــت الــذُّعْر منــه المفاصــل

فَقَاسَــمكَ العيــنَين مِنــه ولَحظَــه

سَــمُّيك والخِــلّ الــذي لا يُزايــل

وقَبَّــل كمــا قبــل الــترب قبلــه

وكــلّ كمــيء واقــفٌ متــضائل

وأسعدُ مشتاقٍ وأظفرُ طالب
همُامُ الى تقبيل كمكَ واصل

مكانٌ تَمنّاه الشِّفاهُ ودونه
صدورُ المذاكي والرماح الذوابل

وأكبر منه همةً بَعثتْ به
اليكَ العِدى واستنظرته الجحافل

اذا عاينتك الرسل هانت نفوسها
عليها وما جاءت به والمراسل

فأن كل خوفُ القتل والأسر ساقَهم
فقد فعلوا ما القتلُ والأسر فاعل

فخافوك حتى مالقتل زيادةٌ
وجاءوك حتى ماتُرادُ السَّلاسل

ارى كُلَّ ذي مُلْكِ اليك مصيره
كأنَّك بحرُ والملوكُ جداول

اذا الجودِ أعطِ الناسَ ما انت مالكٌ
ولا تُعطِين الناسَ ما انا قائل

تُدبِّر شرقَ الأرض والغرب كفه
وليس لها وقتا عن الجود شاغل

يتبع هُراب الرجالِ مرادُه
فمن فَرَّ هَربا عارضته الغوائل

ومن فَرَّ من احسانه حسدا له
تلقَّاه منه حيثما سار نائل
رأيتك لولم يقتضِ الطعنُ في الوغى
اليك انقيادا لاقتضته الشمائل
ومن لم تُعلمه لك الذُلَّ نفسهُ
من الناس طُراً علمَّته المَناصل

.....

يُفدي أتّم الطير عُمْرا سلاحَه
نُسور الفَلا أحداثُها والقَشاعِم
وما ضَرَّها خَلْق بغير مخالبٍ
وقد خُلِقت اسيافهُ والقوائم
هَل الحدثُ الحَمراء تعرف لونها
وتَعلم أي الساقيين الغَمائم
سَقتها الغَمامُ الغرُّ قبل نزوله
فلما دَنا منها سَقتها الجَماجم
بَناها فأعَلى والقَنا يَقرع القَنا
ومَوجُ المنايا فوقَها متلاظم
وكان بها مِثلُ الجنون فأصبحت
ومن جُثثِ القتلى عليها تَمائم
تفيت الليالي كلَّ شيء اخذنه
وهُنَّ لِما يأخذن منك غوارم

أتـــوك يجـــرُّون الحديـــدَ كـــأنَّهم

سَـــروا بجيـــاد مـــا لهـــن قـــوائم

خميـس بـشرق الأرض والغـرب زَحفـه

وفي أذنِ الجَـــوزاء منـــه زَمـــازم

وَقفتَ ومـا في المـوت شكٌ لواقـف

كأنـك في جَفـن الـردَّى وهـو نـائم

تمـرُّ بـكَ الأبطـال كلمـى هزيمـة

ووجهـك وضـاح وثَغـرك باسـم

تَـدوس الخيلُ الوكـورَ علـى الـذُّرى

وقـد كثـرت حـول الوكـور المطـاعم

اذا زَلقَـــتْ مـــشتَّها ببطونهـــا

كمـــا تتمـــشى في الـــصعَّيد الأراقـــم

تَظـنّ فـراخُ الفَـتْخِ أنَّـك زُرتهـا

بأماتِهـــا وهـــي العِتـــاق الـــصلادم

وماضـرَّها خلـقُ بغـير مخالـب

وقـد خُلقـت اسـيافهُ والقـوائم

.....

ودانـت لـه الـدّنيا فأصبحَ جالـساً

وايامُهـــا فيمـــا يُريـــد قيـــامُ

تَنـام لـديكَ الرُّسـلُ أمنـا وغبطـةً

وأجفـانُ رب الرُّسـل لـيس تَنـام

وانَّ قميص المَلْك مَبعة

وانَّ دمــــاءُ أملَتْـــــك حَـــرام

لهـم عَنــكَ بــالبيضِ الخِفـاف تَفَـرقُ

وحَولـك بالكتْـبِ اللطــافِ زِحــام

وربَ جــوابٍ عــن كتــابٍ بعثتَــه

وعُنوانُــــه للنـــاظرين قتَــام

تَـضيق بــه البيــداءُ مــن قبــل نِـشره

ومــا فُــضَّ بالبيــداء عنــه خِتــام

حــروفُ هِجــاء النــاس فيــه ثلاثــة

جَــوادٌ ورمــحٌ ذابــلٌ وحُــسام

اذا الحــرب قــد اتعبتَهــا فالــهَ ســاعةً

لِغمْــدَ نــصلٌ اويُحــلَّ حِــزام

ومــا زِلــتَ تُفنـي الــسَّمرَ وهــي كـثيرةٌ

ويُفنَــى بهــن الجيــشُ وهــو لهُــام

متــى عــاودَ الجــالونَ عــاودتَ ارضَــهم

وفيهـــا رقــابٌ للـــسيوف وهَــام

وربـــوا لـــك الأولاد حتـــى تُـصيبَها

وقـــد كَعَبــتْ بنــتٌ وشــبَّ غُــلام

جَرى معك الجارون حتى اذا انتهوا

الى الغايــة القُــصوى جريْــتَ وقــاموا

أهم المصادر

١- القالي: الأمالي/ المطبعة التجارية/ القاهرة/ ١٩٥٤.

٢- الثعالبي: يتيمة الدهر/ القاهرة/ مطبعة السعادة/ ١٣٧٧هـ.

٣- ابن قتيبة/ المعارف/ القاهرة/ مطبعة دار الكتب/ ١٩٦٠.

٤- ابن الأثير/ المثل السائر/ القاهرة، مكتبة نهضة مصر/ ١٩٦٢.

٥- ابو هلال العسكري/ ديوان المعاني/ القاهرة/ مكتبة القدس/ ١٣٥٢هـ.

٦- الحاتمي/ الرسالة الحاتمية/ القاهرة/ مطبعة دار المعارف/ ١٩٦٩.

٧- الجرجاني/ الوساطة بين المتنبي وخصومه/ القاهرة/ عيسى البابي الحلبي/ ١٩٦٦.

٨- الصاحب بن عباد/ الكشف عن مساوئ شعر المتنبي/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٦٩.

٩- البغدادي/ خزانة الأدب/ القاهرة/ دار الكتاب العربي/ ١٩٦٧.

١٠- ابن حجة الحموي/ ثمرات الأوراق/ القاهرة/ مطبعة الأستقامة/ ١٣٧٩هـ.

١١- الأبشيهي/ المستطرف في كل في مستظرف/ المكتبة التجارية الكبرى/ القاهرة/١٣٧٩هـ.

١٢- ابن عبد ربه/ العقد الفريد/ القاهرة/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ ١٩٥٤.

١٣- ابن طباطبا/ عيار الشعر/ القاهرة/ المكتبة التجارية/ ١٩٥٦.

١٤- المبرد/ الكامل/ القاهرة/ دار نهضة مصر/ لم تذكر سنة الطبع.

١٥- ثعلب/ مجالس ثعلب/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٥٦.

١٦- الراغب الأصبهاني/ محاضرات الأدباء/ بيروت/ دار مكتبة الحياة/ ١٩٦١.

١٧- المرزباني/ معجم الشعراء/ القاهرة/ دار احياء الكتب العربية/ ١٩٦٠.

١٨- الآمدي/ الموازنة بين ابي تمام والبحتري/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٦١.

١٩- قدامة بن جعفر/ نقد الشعر/ القاهرة/ مكتبة الخانجي/ ١٩٦٣.

٢٠- الجمحي/ طبقات فحول الشعراء/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٥٤.

٢١- ابن قتيبة/ الشعر والشعراء/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٦٦.

٢٢- الصولي/ الأوراق/ القاهرة/ مطبعة الصاوي/ ١٩٣٦.

٢٣- الشريف المرتضى/ الأمالي/ القاهرة/ دار احياء الكتب العربية/ ١٩٥٤.

٢٤- الباقلاني/ اعجاز القرآن/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٦٣.

٢٥- الأصمعي/ الأصمعيات/ القاهرة/ دار المعارف/ ١٩٥٥.

٢٦- ابن الأبار/ اعتاب الكتاب/ دمشق/ مطبعة المجمع العلمي العربي/ ١٩٦١.

٢٧- الحصري/ زهر الآداب/ القاهرة/ المطبعة الرحمانية/ ١٩٢٥.

٢٨- الصولي/ اخبار البحتري/ دمشق/ دار الفكر/ ١٩٦٤.

٢٩- المرزباني/ معجم الشعراء/ القاهرة/ المطبعة الرحمانية/ ١٩٦٠.

٣٠- ابن رشيق/ العمدة/ القاهرة/ مطبعة السعادة/ ١٩٥٥.

٣١- الجرجاني/ دلائل الأعجاز/ تطوان/ المطبعة المهدية/ بدون تاريخ.

٣٢- الجرجاني/ اسرار البلاغة/ القاهرة/ مطبعة الترقي/ ١٣٢٠هـ.

٣٣- الجاحظ/ البيان والتبيين/ مكتبة الخانجي/ القاهرة/ ١٩٦١.

٣٤- الجاحظ/ كتاب الحيوان/ القاهرة/ مكتبة مصطفى البابي الحلبي/ ١٩٣٨.

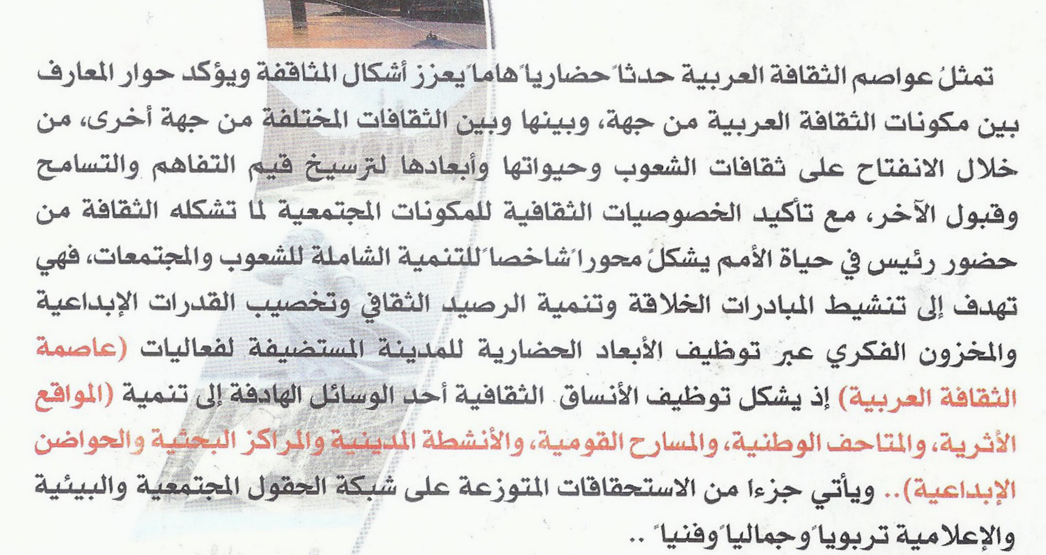
٣٥- الأصفهاني/ الزهرة/ بيروت/ مطبعة الآباء اليسوعيين/ ١٩٣٢.

٣٦- ابن الأثير/ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور/ بغداد/ مطبعة المجمع العلمي العراقي/ ١٩٥٦.

٣٧- الوزير ابو عبيد البكري/ سمط اللآليء في شرح امالي الغالي/ مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر/ القاهرة/ ١٩٣٦.

المحتوى

كلمة تمهيدية ٨
المقدمة ١٦
نشوء الشعر وتطوره وعلاقته بالغناء والموسيقى والرقص
الفصل الأول
منزلة الشعر عند العرب ٤٣
الفصل الثاني
آراء مختلفة في الموازنة بين الشعراء ٩٣
الفصل الثالث
فن الشعر
وجهة النظر الفلسفية ١٢١
أ- ارسطو ١٢٣
ب- الفلاسفة المسلمون ١٣٠
الفصل الرابع
فن الشعر
وجهات النظر غير الفلسفية ١٥١
الفصل الخامس
فن الشعر
وجهة نظر المؤلف ١٩١
أهم المصادر ٢٧٨



تمثلُ عواصم الثقافة العربية حدثاً حضارياً هاماً يعزز أشكال المثاقفة ويؤكد حوار المعارف بين مكونات الثقافة العربية من جهة، وبينها وبين الثقافات المختلفة من جهة أخرى، من خلال الانفتاح على ثقافات الشعوب وحيواتها وأبعادها لترسيخ قيم التفاهم والتسامح وقبول الآخر، مع تأكيد الخصوصيات الثقافية للمكونات المجتمعية لما تشكله الثقافة من حضور رئيس في حياة الأمم يشكلُ محوراً شاخصاً للتنمية الشاملة للشعوب والمجتمعات، فهي تهدف إلى تنشيط المبادرات الخلاقة وتنمية الرصيد الثقافي وتخصيب القدرات الإبداعية والمخزون الفكري عبر توظيف الأبعاد الحضارية للمدينة المستضيفة لفعاليات (عاصمة الثقافة العربية) إذ يشكل توظيف الأنساق الثقافية أحد الوسائل الهادفة إلى تنمية (المواقع الأثرية، والمتاحف الوطنية، والمسارح القومية، والأنشطة المدينية والمراكز البحثية والحواضن الإبداعية).. ويأتي جزءاً من الاستحقاقات المتوزعة على شبكة الحقول المجتمعية والبيئية والإعلامية تربوياً وجمالياً وفنياً ..

وحيث تستعد بغداد بشواهدها القديمة وملامحها المعاصرة، فتعدُّ العُدة لتحتفي في رحاب العرب بهذه المناسبة، فإنما تتحاور مع ثقافات العالم بما تمتلكه من مقومات غنيةٍ وجذور ممتدة تتداخل فيها الأزمنة بما تشكله من فصول تطبع بصماتها على الأمكنة والمثابات، بموازاة الآثار الشاخصة والوثائق الخالدة، لتتجاوز حدود الرؤية والانطواء إلى عوالم أكثر انفتاحاً وفضاءاتٍ أكثر أتساعاً.



طبع في دار الشؤون الثقافية العامة dar_ iraqculture @mocul. gov. iq
من اصدارات بغداد عاصمة الثقافة العربية baghdad 2013 @mocul. gov. iq

الغلاف: وسام عامر
السعر: ٣٨٠٠ دينار